فاروق منيب

الأعمال الكاملة

المجلد الأول

الديك الأحمر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة

فاروق منيب

المجلد الأول

- □ الديك الأحمر
- □ زائر الصباح
- □ أحزان الربيع

● الاخراج الفنى :

● ماهر الشـــمسى

اهـــــداء

الى من تحملت المشـــاق فى سبيل تربيتى أنـا واخوتى ..

امى العزيـرة

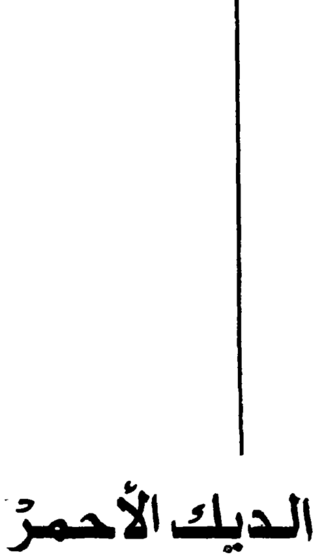
والى من ارتضت أن تشـــاركنى حيــاتى

زوجتى الحبيبة

فاروق منيب

كلمـــة الى القراء

وقعت بعض حوادث قصص هـذا الكتاب فى عهد الملكيـة الظالمـة ؛ الذى ساد فيه نفوذ الاقطـاع البغيض فى أرجاء ريفنا . وقد تحمل الفلاحون من هذا النظام القسوة والطغيان . وكانت هذه الحوادث فى تفتيش الملك السابق بانشاص .. هـذا الملك الذى كان عبدا للاستعمار فى الخـارج ، ورأسا ونصيرا للاقطاع فى الداخـل .. الى أن جاءت الثورة ، وطرد الملك الطاغيـة ، وتحطم الاقطاع البغيض .



الديك الأحمرُ

الصـــورة

نام عبد المقصـــود افندى يحلم ويتمنى . وبات يتقلب فى فراشه يرتب المســـائل بالتمام والكمـــال . فغدا سيذهب الى المصوراتى هو والعائلة . ولقد ارسل بدلته وقميصه الى المكوجى، وغسلت له زوجته منديله الأبيض الشاهى . واشترى من الشارع وهو عائد من عمله بالأمس موسى للحلاقة ثم علبة ورنيش ، واحضر بيده رطلين من اللحم الســـمين ليســـترد قواه وعافيتـــه ولكن عبد المقصود افندى تحير ، فكيف سيقف أمام المصوراتى بكتفـــه الضامرة ووجهه المحبب وشعره الأشيب ، وتذكر أيام شبابه التى كانت أيام . فقد كان الرجل كالحصـــان لا يحمل للدنيا همـــا ، فلم تكن له زوجة ولا أولاد ، ولم يكن قد عرف هذه المحكمة التى امتصت قواه ولا هـــذا الباشكاتب الصفيق الذى ينهره ويسقيه المر والعذاب .. وتمر الأيام وأنت يا عبد المقصـــود كاتب .. عشرين سنة كاتب .. لا ترقية ولا علاوة ولا حتى شكر .. يارب لا اعتراض ولا مانع ...

ولكن الباشكاتب رغم انه يريك الذل والهوان وينهرك من آن لآخر يا عبد المقصود ، الا انه شخصية لها قيمتها ومركزها ، تتحدث عنه المحكمة كلها .. فجميع المسائل تحل بيده ، وهو حين يقول لا ... يعنى لا ... وحين يقول نعم ... يعنى نعم ... وصحيح فهو بقامته المديدة وعرضه الذى يبلغ المتر يخيف الجميع ... حين يجلس على مكتبه يكون كالسبع بجلسته المتحفزة اليقظة ، وأنت يا عبد المقصود لماذا لا تقف أمام المصوراتى غدا وانت تتمثل الباشكاتب بعظمته وقوته وجبروته ، بل تأخذ بيدك مسبحة علاوة على ذلك . طيب انت الآن عرفت كيف تقف مهيبا ذا جلال ورهبة . ولكن امراتك بوجهها الذى يغطيه الحزن والكآبة ، وفمها الذى انعوج على مر الزمان وعينيها الغائرتين ذواتا الاشعاع الرمادى الفاتر كيف تجعلها تتخلى عن تجهمها ووقارها القديمين ؟ كيف تجعلها تضحك أو حتى تبتسم ؟ وتذكرها أيضا وهى فى شبابها . كانت حلوة ذات عينين عسليتين ، تخطف الأنظار حين تتبختر فى الشارع بوجهها المشرق ودمها الخفيف ... أما الآن فهو كما يراها ... وقد ارخت عينيها فى تعب وانهاك .. تحتضن ابنها الصغير فى محبة واشتياق ولقد علمت نفيسة بأنها ستذهب الى المصوراتى غدا ولكنها لم تفعل شيئا . لم تنظف فستانها الذى اكل عليه الزمن وشرب . ولم تلمع حذاءها ، ولم تغسل قمطتها الحمراء أو حتى لم تمشط شعرها ... ولها العذر يا عبد المقصود ... فهى تدبر شئون البيت بالحكمة والرضاء .. فعليها أن تطعم العيال بأقل القروش ... وعليها أن تكنس البيت من آن لآخر ، وعليها أن تطبخ وتغسل وتراعى حالة زوجها وكل هذه الأعمال تخنق الأنفاس ، وتجعلها تتجهم ويعوج فمها باستمرار .

ولكن ما العمل يا عبد المقصود ، وفى امكانك على الأقل ان تدخل البهجة والسرور الى قلب زوجتك الوفيــة لتبدو امام المصوراتى حلوة جذابة ... لقد كنت تفخر بها ايام زمان حتى كنت تقول انك تتزوج احلى بنت بالبلد ... وهــذه الصورة التى ستخلد ذكراك انك تريدها كأحسن صــورة ... تريد أن تبدو كالباشكاتب فى قوته وشخصيته ، وتريد أن تبدو نفيسة كما لو كانت فى صباها ... ولكن هيهات يابنى ... انك لو استطعت ان تجعلها تبتسم لكان ابو زيد خالك .

حاول ان يوقظ زوجته ليتفاهم معها فى الموضوع ، ولكنه تراجع عندما رآها مستغرقة فى النوم تحتضن الولد الصغير ، واكتفى بأن لمس خدها فى حنان ... وســوى المسألة بينه وبين نفسه ، ومن هنا للصبح تفرج ... ويكون حلها الحــلال ... ويارب يا نفيسة تصبحى منتعشة ، فرحانــة ... طيب وابنك الذى يريد تغيير حذاءه منذ زمن طويل ... كيف يظهر بالصــورة بحذائه القديم ... ان امه منعته من الخروج الى الشارع اياما من اجل ذلك ، وفكر أن يتخلص من المشكلة ، فليس من الضرورى ان يأخذه معه وليأخذه فى مرة ثانيــة ... ولكن افكاره ضربت رأسه فى عناد واصرار .. فكيف يكون ذلك ... وهــذه اول صورة فى حياته ... وستكون مع العائلة بأكملها ... ومن يضمن انه سيتصور مرة اخرى ... ومن يدرى لعل هــذه الصــورة ستكون الأخيرة ... على العموم هذه مسألة تحل ... فمثــلا وبكل بساطة يستطيع ان يقترض حذاء من الست أم عاشــور جارتهم الطيبة .. وسيرده لها عندما يعودون ، وبلغت النشــوة بعبد المقصود أفندى حدها ... فقام من نومه مزهوا منتصرا ... لقد تغلب على صعوبات عديدة كانت ستعترضه فى الصباح ان هو تركها بدون تفكير . لم ينم عبد المقصــود أفندى الا فى هــذا

الحلم الكبير الذى استحوذ على اهتمامه طول الليل . كان يقلق ويستاء حين تقابله أطراف المشاكل من المسألة التى تأخذ عليه لبه وكيانه ... ثم ينام ويبتهج حين يتذكر الصورة وقد خرجت انيقة بالورق المصقول اللامع ... وبدا هو قويا ذا شخصية جبارة ... وبدت زوجته نفيسة مغتبطة فرحانة ، وبدا أولاده مسرورين مزهوين .. يضىء المرح وجوههم الصغيرة . واحس عبد المقصود افندى بابنه الصغير يوقظه من النوم فقد تأخر كثيرا ... وقام يتثاءب فلم يأخذ نصيبه من النوم ، وهفهف اليه اولاده :

ـ صباح الخير يا بابا .

ورد الرجل على أولاده صباح الخير واستدار الى زوجته :

ـ صباح الخير يا نفيسة .

وردت نفيسة وقد علت وجهها ابتسامة طرية لم يألفها من قبل . ولاحظ عبد المقصود افندى شيئا جديدا فى زوجته ... انها تنتقل فى أرجاء البيت و « تزغزغ » الأطفال فى البيت فى انسياب وفرح . لاحظ ان نفيسة قد تخلت عن تجهمها الذى ما كان يفارقها أبدا ، وحمد الله فهذه امنيته التى طالما تمناها ... ونظر الى الخارج ليرى الجو . واطمأن ، فلا غبار ولا رياح ... فسيصلون الى المصوراتى دون ان تتعفر ملابسهم أو احذيتهم ... وأمام المرآة كان عبد المقصود افندى يمشط شعره الأشيب ويدخن سيجارة وقد نسى نفسه فراح يدندن بصوته المسلول يمط شفتيه فى صبر وعمق وتلوى :

« الحلو مين يعرفه »

واستغرق فى الغناء حتى كادت السيجارة تلمس المنضدة

بالنار وانشغلت امراته فى تشطيف العيـال الذين علا صراخهم لا يريدون غسل وجوههم ولكن الأم كانت تغريهم :

« اغسل يا على .. اشطف يا حسنى ... ياللا يا فتحيـة عشان النهاردة رايحين نصور » . وخرجت العائلة من البيت الى المصوراتى وقد قفلوا الأبواب ، الا أن عبد المقصود افندى ما كاد يترك عتبة الباب الخارجى حتى توقف فجأة وهو يقول :

ــ هب . نسيت حاجة ...

وطـلع الى البيت مرة اخـرى . ولم يكن نسى حاجـة أو محتاجة . وانما عاد ليتأكد من غلق الأقفـال واحكامها كمـا يجب . كان ذلك من جراء الوسوسة والشكوك التى يتميز بها عبد المقصود افندى . وخرجوا الى الشـارع وهم يخشون تقلبات الجو ... ولو لدقيقة واحدة ، فهى كافيـة على الأقل ان تطمس بنطلون الرجـل بالغبـار أو أن تجعل السـت نفيسة تعود الى شحوبها وحزنها بعد ما تغلبت عليهما . وصمتوا ، بل واسكتوا العيال ، فلعل ذلك من دواعى الحذر والحيطة ... ووصـلوا الى المصوراتى ... وبعد المساومة ... ومن هنـا لهنا اتفقوا على الأجرة ، ورتبت الكراسى .. اثنـان فى المقدمـة ليجلس عليهما الوالدان ... وواحـد لتجلس عليه ابنتهمـا الكبيرة فتحيـة ، وسيتحشر الأطفال بعد ذلك ... فحجم الصورة صغير ... ومن الذوق أن يترك المصوراتى لزبائنه الحرية فى أن يجلسـوا كيفما يشاءون ... ووجد عبد المقصود افندى من الأفضل ان تقف ابنته فتحية لتظهر كاملة بالصورة ... ومرت هـذه المسألة غير ان الرجل اراد ان يحمل ولديه على حجره ، واحد على يمينه والآخر على يساره . وهمست له زوجتـه أن يدع العيال يقفون بجوارهم فلا يحملهم على حجره ... فليسوا صغارا كما يعتقد .

وكادت تحدث مشـــادة بين الرجل وامراته ... فلقد صمم عبد المقصود افندى ان يحمل ولديه ... وهنا تدخل المصوراتى يؤيد الزوجة ... فسيكون وقوفهم الطف ... وانتهى الاشكال بسلام ورضى الرجل قبل ان يفلت الأمر من يده وتتجهم الست نفيسة ... فهذه حكاية يعمل لها الف حساب . وعدل المصوراتى من وضـــع الســـتارة الملونة المفروشـــة وراء العـــائلة ... على الجدار ... وانبسط عبد المقصود افندى فسيخرج كل ذلك وراءه وكأنه فى حديقة غنـــاء خضراء ... وابتدأ المصـــوراتى فى العد ... واحد .. اتنين ... استعدوا وعفت ذبابة على وجه عبد المقصود أفندى طردهـــا بمنتهى الضيق ... وخفق قلب الست نفيسة من الفرح ، فبدا على وجهها تألق ساذج ، واحتضنت طفليها فى محبة والفة . وبدون أن يدرى رفع عبد المقصود افندى كتفيه ، وفرد صـــدره على الآخر ، ووضع ساقا على الأخرى ، وانبعج على الكرسى يتأبط ذراع ولده ... وأعاد المصور العد ... واحد ... اتنين ... وتقدم وهو يمشى على اطراف اصابعـــه يعدل من وضـــع الست نفيسة ... فلمس جسدها يرفعه الى اعلى ... وزام عبد المقصود أفندى كأنه يكتم شيئا فى باطنه ... ورجع المصوراتى يعيد التجربة ... واختل الوضع من جديد ... فتقدم مرة اخرى يعدل من وضـــع الست نفيسة ، فرفع ذقنها فى لطف شديد ... وهنا قفز عبد المقصود افندى من على الكرسى وهاج يشتم المصوراتى وشكله واخلاقه المنحطة كيف يلمس خد امراته نفيسة ، وراح يوبخه ... وكاد أن يرفع الكرسى عليه ، وحين وجد أن الحكاية كبرت وتوسعت بدون لازم هتف محاولا العتـــاب :

ــ ويا اخى ما كنت تقولى ... وانا اعمل كل حاجة ... وانسحب المصوراتى ... فلم ير زبونا كهذا ... وما الذى جرى

فى الدنيا .. فكم من مرة أصلح من وضع زبائنه العديدين ... ولم يحدث شيء ... فلا خناق ولا زعيق ؛ وهـذه مهمته يفهمها جيدا ... واذا كان قد أخطأ فلا تستحق المسـألة كل هـذا الاصطدام وكل هذه العجرفة ... وهدأ من روعه مرة بالمحايلة واخرى بالمفهومية . سكت عبد المقصود افندى ... وجلس على كرسيه وقد اشعل سيجارة برمها فى فمه ثم رفع كتفيه ... ووضع ساقا على أخرى ... وانبعج على الكرسى فى كبرياء وانفة ، ونادى على ولده يتأبط ذراعـه وأعـاد المصوراتى الأعـداد ... واحد ... اتنين واستعد الجميع . وحاول عبد المقصود افندى ان يرفع ابتسامة على شفتيه وبعد برهة كانت الحكاية التى بات الرجل يحلم بها ويرتب لها قد انتهت . وحلت العائلة فى حجرة الانتظـار « تقزقز » اللب وتمرح فلقـد حبسـت حريتهم من الصباح ... وانطلق العيال يجرون وسط الغرفة يعبثون بالآلات المتناثرة ويقلدون المصوراتى فى خفـة وظرف ... واحد ... اتنين ... استعدوا ... وبعد قلق شديد ظهر المصور ، وفى يده الصورة ، غير ان الوالدين كانا يحلقان فيها وقد اعتراهما الذهول والعجب فلقد ظهرت الست نفيسة فى منتهى العبوس ، معوجـة الفم ، تعلو وجهها الكآبة والحزن العميقان . ولقد ضـاع الأمل الذى راود عبد المقصود افندى ، والذى كان يحيره من آن لآخر .. أن تتخلى امراته نفيسة عن عبوسها وعوجة فمها ..

واندثر هذا الحلم فى لحظة واحدة كان هو الخاسر فيها .. لحظة زعيقه فى المصـوراتى .. واستياء امرأته لهذه المشكلة التى ما كان لها سبب معقول .. ورأت الست نفيسة زوجها وقد رفع كتفيه كأنما يتقزز من شيء امامه ، وانبعج على الكرسى فى استهتار وجد مضحكين . وعجبت المراة لهذا المسوخ الذى اعترى زوجها فى لحظـة قصيرة فلقد عرفته متواضعا لا يرفع نظراته من الأرض

واستغربت لهذه البسمة التى حاول عبد المقصــود انتزاعها من قلبه .. فخرجت هزيلة .. مهزوزة باهتة ، مقتضبة مفككة .. وانفردت نظرات احد الأولاد بالصورة ثم هتف فى ابيه على الفور :

ــ بابا .. بابا .. البنطلون طالع مقطع برضه فى الصــورة يا بابا !!

وخجل عبد المقصود أفندى من ابنه ، فلم يرد عليه كلماته التى انبعثت فى لحظات طاهرة نقية ، وعادت العائلة الى البيت ولم يكن لها حديث الا الصورة والمصوراتى والخناقة ...

* * *

ومرت الأيام وعبد المقصود افندى يذهب الى عمله بالمحكمة ثم يعود ، وفى لحظات فراغه يأتى بالصورة يتأملها ويتسلى بها ؛ وفى لحظة من تلك اللحظات تفتح قلبه فجأة على شىء جديد لم يكن لاحظه من قبل .. صحيح أنه خرج بالصورة كالمسوخ .. وصحيح أن امراته ظهرت حزينة مستاءة كعادتها ، ولكن أولاده الصغار ظهروا وهم يضحكون يعلو وجوههم البشر والفرح .

لقد خرجوا جميعا كما كانوا فى الحياة أنقياء سـذج ... لا يعرفون الا المرح والحب ، حتى ولده الذى خرج بنطلونه ممزقا افتر ثغره عن بسمة منتصرة .

واثناء هذه الخواطر الجميلة قام عبد المقصود أفندى بثقة وعزم يدق المسامير فى أحد الجدران ليعلق الذكرى التى راوده احساسه يوما ما بتسجيلها .

ع الحســاب

حلو يا محمدى ، الحالة عال ، والأشيا معدن ، والدنيا بخير ، ميت فل عليك يابنى .. هكذا انبسط محمدى أفندى المدرس مع نفسه وهو يودع زوجته فى الصباح بابتسامة راضية منطلقا الى المدرسة وفى فمه سيجارة لف ، يسحب أنفاسها كأحسن عمدة وكان يدندن فى سره بأمنيات طيبة عزيزة فاليوم أول الشهر وجدول حصصه خال الا من حصة محادثة سيخطفها فى سرعة وسيكروت العيال ملهلبا أصابعهم اذا احتاج الأمر الى ذلك .

وسيعود الى حميدة ، امرأته التى شربت معه أفراحه ومآسيه ، وفى يده ما لذ وطاب . وببساطة رتب ليلة حافلة ، اللذيذة منعشة ، يختمها بحواديت للأولاد عن أبو زيد الهلالى والزناتى خليفة وعنتر وعبلة والسبع سواقى . بل يلذ له أن تبقى صورة امرأته أمامه وهو يقرصها مداعبا اياها فى رفق ومحبة . حاثا اياها بعمل فنجان من الشاى بيدها التى لا تعدمها متأملا

وجهها النحيف ، وراسها الصغير ومنديلها الأحمر ، لا يدرى محمدى افندى كيف تذكر مع هـذا كله كلبته التى لا تسكت عن النباح أبدا ، ومحاولته معها بأن يرضيها بلقمة ليسد حلقهـا البغيض ولكنهـا لا تستكين . وقرب المدرســة كانت عصاته تضرب الأرض فى ثقة وجراة ، فلقد رتب الأمور اللازمة . وأحكم المسائل جيدا . وعلى الباب ألقى نظرة طويلة ، كان الفناء غاصـا بالتلاميذ ، يجرون ويزعقون ومحمدى أفندى بوقاره يشق طريقه ماسحا أطراف سترته عندما اهتزت عيناه برؤية حضرة الناظر وفى صوت حاول أن يجعله جادا رزينا ألقى السلام :

ـ سلام عليكو يا حضرة الناظر .. ولكن الناظر لم يلتفت اليه ، فقد كان فكره مشـغولا مع يده فى تأديب احد التلاميـذ الأشقياء . ودلف الى الفصل وهو غير مطمئن بل اعترته غصـة مفاجئة من هذا اللقاء الفاتر ، وكالعادة قام التلاميذ ثم قعدوا ، واخذ هو قطعة من الطباشير ليجربها وليكتب التاريخ ، وليرسم بخ فارسى جميل كلمة « محادثة » كان يتفنن قبل أن تلامس اصابعه السبورة فى الميم الكوفية . وفى السنة الهجرية والنقط التى يضعهـا فوق الحروف فى توازن وانسجـام . ورفع احد العيال اصبعه متسائلا :

الحصة دى ايه يا فندى ؟

وانزل محمدى أفنـدى الطباشير من يده وهو يرمقـه فى احتقار وامتعاض اجلسه على الفور ثم مط صـوته فى سخرية وقـال :

ـ اقعد يا شعبان ، يعنى فالح ياخى .. طب خلى الكلام ده لواحد شاطر .. يعنى يهمك ايه ...

ورفع يده وخط التاريخ على الجانبين ، ثم انتقى مكانا وسطا وانزل اصابعه ليرسم عنوان الحصـة ، وما كادت قطعة الطباشير

تحتك بالسبورة حتى انزلقت ذراعه كلهـا معها وبهت محمدى افندى ، وضج التلاميذ بالضحك . واندفع اليهم ينهال بالشتائم الغزيرة التى لا حصر لها . وزعق وهو يستعيد هدوءه المفقود :

ـ مين اللى عمل كده يا كلاب ...

وصمت التلاميذ وارتفعت ابصارهم الى سقف الغرفة فى ذهول خائف . وتخشبت أجسادهم على المناضد . فهم يعرفون محمدى افندى جيدا .. يعرفونه حين يغضب ويكهربهم واحدا.. واحدا يأخذهم بالدور ، ولا يفلت منهم أحدا ولا حتى ابن المدير .

واستمرت موجة الصمت القاتلة ، ومحمدى افندى يحاول أن يكتشف شيئا باحثا بعينيه الخبيرتين عن الخائفين أو المترددين وفشلت محاولاته اليائسة غير انه كان هنـاك تلميذ ينكمش فى درجه كالكتكوت البردان يخط بأنامله الصغيرة بينه وبين نفسه : شعبان اللى عملها يا فندى ...

ولم يستطع هذا التلميذ أن ينطق بحرف واحد ، فلو خرج لسانه من فمه باسم شعبان لكانت وقعته سوداء ويومه اسود من الحبر ولنوى أن يمزق بدلته ، أو يشرب مقلبـا . فشعبان اكبر تلاميذ الفصل وهو يصطادهم بالخارج ليضربهم بسبب وبغير سبب مزاجـه هو الذى يحـدد ذلك ، فحين تعتريه نوبة الجنون يجر الكلام مع اقرب زميـل له وهات ياضرب ، لم يستطع أحد أن يعترف بأن شعبان هو الذى شمع السبورة ليعوق المدرس عن الشرح . وفى غمرة من التـذمر الصـارخ كانت الأيدى مفرودة تعتريها رعشة خائفة ومحمدى أفندى يلف بعصاه مؤدبا الجميع مفرغا كل متاعبه فى الحياة .

ـ ان شاء الله مفلحتو يا خنازير .. أنا مش كاتب الكلمات الصعبة . قوم يا واد يا محمد .

ـ هل رايت الذئب قط ؟

ويهرش محمد قفاه وهو يجيب :

ـ نعم رايته قط ...

ويصفعه محمدى افندي ببساطة وهو يأمره :

ـ بلاش قط دى .. نعم رايته وخلاص .

ويلقى عليه سؤالا آخر وهو يزغد تلميذا مازال يكتم ضحكاته فى الدرج بين كفيه :

ـ هل ذهبت الى حديقة الحيوانات ؟

ويسكت الولد وهو يستعيد الرحلة الماضية . كان الشوق ياكله ليذهب الى القاهرة .

ـ لم أذهب الى حديقة الحيوانات .

ـ ليه يا خوى مرحتش .. كان الاشتراك غالى .. ناقص نوكلكوا كمان ...

واشار الى تلميذ فى آخر الفصل :

ـ قوم يا زكى .. هل ذهبت الى حديقة الحيوانات بالجيزة ؟

ـ نعم ذهبت الى حديقة الحيوانات بالجيزة .

ووضع محمدى افندى كفه الغليظ على كتف محمد وهو يرمقه فى تحد :

ـ شايف الاجابة ازاى .. بمب ، ناس راحو مصر يابنى.. لكن اسمع لما انت ما رحتش حديقة الحيوانات شفت الديب فين امال ؟

ورد عليه محمد بخشونة ووجل :

ـ شفته فى الغيط ..

وانتهز التلاميذ هذه الفرصة وضحكوا من قلوبهم ، وراحوا يرفسون بعضهم بأرجلهم من تحت الأدراج ، ويتهامسون فى خوف شديد .. ولم يسكتوا الا على صوت السكرتير وقد حمل كشفا نادى على معظمهم من خلاله :

ـ اللى يسمع اسمه يروح للدكتور .

وخرج معظم التلاميذ وبقى محمدى افندى يتأمل الباقين.. وقد سرت فى قلبه مرارة عابرة .. ولكنه عاد يسأل شعبان :

ـ هل رايت الكركدن يا شعبان ؟

وانطلق شعبان بدون تفكير : نعم رايته ...

وانفتح محمدى افندى مؤنبا اياه على غبائه : شفته فين يا شيخ .. فى بيتكو .. أظن .. انت كنت معانا فى الحديقة .. يا سلام على فصاحتك يا أخى .. اتنيل خليك واقف .. اضربه قلم على قفاه يا حسين عشان يصحى شوية .. انت بتاكل بصل؟

وذعر حسين ، فكيف يضرب هذا الفحل ، وهو يعرف مصيره لو تقدم وهتف فى ضعف :

ـ حيضربنى بره يافندى .

وكادت الحكاية أن تنقلب الى غم ويتحول الفصل الى هيصة .. لولا أن محمدى افندى وضع عقله فى دماغه وسكت .. وكاد الهدوء يأخذ مكانه وتنتهى الحصة على خير . لولا الخواطر المكبوتة التى كانت تريد أن تنفجر ولولا الغيظ الفائض الذى بان

على وجوه التلاميذ من وقاحة شعبان .. فانفلت لسان احدهم في سرعة البرق وبدون استئذان :

ــ شعبان اللى شمع التختة يافندى .

وعلت الزيطــة ...

ــ هوه يافندى .. هو اللى شمعها ...

وقطع محمــدى افنــدى الأســئلة .. وراح يلوح بالعصى فى يده :

ــ يابن الـ .. يا جن .. هو أنت .. كويس اللى عرفتك.. وعلى أفخـاذه العريانة كانت العصى تلســعه وهو يقفز باكيـا بصوته الخشن والذى كان يبدو فيه مخادعا ليوقف الضرب .. وسكت محمدى أفندى لحظة ثم قال :

ــ تروح تجيب أبوك .. انت مرفود .. فاهم ؟

واســتمر وكأنه لا يعبـأ بالســؤال الذى يطرحــه ــ هو بيشتغل ايه ؟

وقفز جار شعبان يقول :

ــ صاحب دكانة الشرف اللى جوه البلد يافندى .

وحمــلق محمدى أفندى ببلاهــة وعجز فهو زبون الوالد الكريم .. وافضاله عليه لا تحصى .. يكفيه جر السجاير لأول الشهر على الحساب .. واحتلت راسه الصــورة الجميلة التى رسمها وهو قادم فى الصباح ، سيعود وفى يده طلبات البيت ..

الأرز وحبة البركة وباكو البانليا لتعمل له زوجته طبق المهلبيـــة الذى تصفه له على الدوام بأنه سيأكل أصابعه وراءه .

وفى تراخ وخفة ظل .. استمر يؤنب شعبان وكأنه يخفى موضوع الشكك فى سره :

ـ انا رايح لأبوك النهاردة .. ولازم اقول له .. أنا باضربك لمصلحتك .. يعنى امال لمصلحتى ...

وقبل أن يكمل نصائحه الغالية .. كان جرس الحصـــة قد دق .. والتلاميذ قد استعادوا ارواحهم المتعبة ...

الديـك الأحمـر

حدث هذا وأنا طالب صغير بالمدرسة الابتدائية لم اتجـاوز الثانية عشرة من عمرى ، فعندما حاولت امى ان توقظنى فى ذلك الصباح ، كانت حلاوة النعاس ما زالت تداعب جفونى المتعبة . ولو أرادت أن تصحبنى لأذهب الى الحقل لمـا همنى شىء أبدا . فتلك أمنيـة تراودنى على الدوام . لكن المصيبة انى ذاهب الى المدرسة .. ونفضت اللحاف بعيدا عن وجهى .. ورفت شريط اللمبة (نمرة ٥) التى ترقد بجـانبى بنورها الكابى طول الليل.. وتناولت كتاب المطالعة لعله يبثنى الحمـاس كى أقوم . لكنى لم أستطع . فقد أطفأت الرياح المندفعة من نوافذ الحجرة المتداعية مصباح الزيت الكليل ، فسمعت أمى ترفع صـوتها علامة على ان الكبريت فى موضـع معين .. وبسليقتى تحسست مكانه واشعلت شريط المصباح وعاد الضـوء الخافت يستلقى على الأشـياء فى ضعف واهن . وفردت الحصيرة ثم وضعت عليها الطبلية ، وفوقها رصصت كتبى واوراقى والتقطت أذنى صـياح ديكنـا الأحمر العتيق ، وصفار قطار الساعة الخامسة فى محطة « الغابة » تئن من بعيد . وكنت أحلم من زمان أن يكون امام قريتنا محطة لأركب

منها الى المدرسة ، ولكن بلا فائدة . وانهت امى صلاتها وصياح الديك الأحمر العجوز فى حظيرتنا يشوش على السكون الضارب اطنابه حولنا ، وصوته الرخيم المعتق يهز البيت .. كو ... كو ... كو ...

كانت حظيرة الدجاج غالية على امى مثل عينيها . فهى قد لمت فراخها من الأصلاء .. وزغطت حواصلها . فى كل صباح تذهب الى الحظيرة تحنو عليها بنظراتها المشفقة ، وفى احدى يديها قلة الماء التى تسكبها فى « قوار » الشرب ، وفى اليد الأخرى غطاء الحلة المحمل بحب الذرة ، وتنثره اليها وهى تناديها .. كت .. كت .. كت .. ولقد قامت أمى لتباشر هذه المهمة ، ورفعت انا صوتى كى أطرد النوم من عينى :

مصر العزيزة لى وطن وهى الحمى وهى السكن

وهى الفريدة فى الزمن

وكنت فرحان وانا أردد هذا النشيد الذى يسمعه لنا المدرس كل يوم . وفجأة دفعت امى باب الحجرة وهى تدخلها هاتفة :

— واد يا حسن ، انت مش رايح المدرسة واللا ايه .. دا الشمس طلعت يا منكوب ...

وسكت . محاولا تجاهلها ، وحنجرتى تردد بآلية تامة :
مصر العزيزة لى وطن ... وهى الحمى وهى السكن ...

واغتاظت امى وهى تقول : « وله .. انت مش ماسك الا البتاع ده فى ايدك .. متقرا شوية قرآن على الصبح علشان ربنا يفتحها عليك ... » .

واستفزتنى أمى وكانت تختلق لى المضايقات ، وتهبشنى وانا نائم لتوقظنى فتضطرب أعصابى ، واصحو مذعورا ، ولكنى لا احتج ، فهى سرعان ما تهتف فى وجهى بحنان زائد :

ــ قوم يا ابنى لحسن النهار طلع .

واسكت محتارا من امرها المتقلب على الدوام .

وفى ذلك الصباح كانت نفسى تتوق للذهاب الى المدرسة حالا فعندنا حفلة فى الحصة الثالثة ، سنلبس البنطلونات والفانلات البيضاء فى الاستعراض الكبير ، وسأجرى واسبق الجميع ، واحصل على قلم ابنوس ، وسأضرب الكورة ، وسأقفز مثل الضفدعة . فاليوم سيمر جلالة الملك من أمام مدرستنا بالمركز ليفتتح جامع الجاويش البحرى بالمديرية . وكادت تستغرقنى هذه الأحلام لولا صوت أمى الذى جاءنى فى هذه المرة حادا مشحونا بالغضب والاستياء :

« خبريه باللى تنشك .. انت مالك مكسل ليه النهارده .. قوم قامك هفه لما تهفك » ..

ولم أستطع أن اسكت فى هذه اللحظة ، فقد انفجرت فى البكاء وتساقطت الدموع على خدى وعلى كتاب المطالعة وعلى كلمات النشيد الذى سنردده اليوم ، وسرى فى روحى احساس بالضعف والانهيار ، وارتعش كيانى كله بالحسرة والألم .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أبكى فيها ، لقد بكيت كثيرا ، ولكن بكائى كانت له حالات مختلفة لا يمكن ان افهمها ، كنت أبكى مثلا لمجرد التهديد ولتلبى امى طلباتى ، فان لم تهتم بى رفعت حنجرتى فى العويل وأنا متعمد ، وتنحدر الدموع من عينى ، وتخيل الحيلة على امى فتعطينى ما اريد . وفى احيان

اخرى اشرع فى البكاء حينما تحبسنى امى فى الحجرة لأذاكر ، ولكنى لا أجد فائدة من البكاء فى هـذا الوقت ، ومع ذلك اظل استجلب الدموع وهى عزيزة لا تنزل واخيرا اخبىء وجهى بين يدى وانهنه نهنهة زائفة واخبط الأرض برجلى ، وتنطلى الحيلة على أمى فتشفق على ، وتطلقنى فى الشارع لألعب ، وفى مرات قليلة تتكشف حيلتى للوهلة الأولى ، فبمجرد ان تتقلص ملامح وجهى بالحزن وأفتح فمى استعداد للبكاء حتى تهب فى بصـوت جاد أن اسكت .. فأسكت وامرى لله .

لكنى حين بكيت فى ذلك الصباح ، كان بكاء حقيقيـا نابعـا من نفسى وروحى فقد تكشفت امامى المشكلة الخالدة « مشكلة دفع المصاريف » كانوا يطردوننى فى أيام عديدة فأرجع . ولم أكن بمفردى فسرعان ما اقابل اصـدقائى على والجوهرى وسـليم نسحب أنفسنا فندور نتسكع فى الشوارع ونستحم فى الترعة ، ونجلـس تحت احـدى شـجرات التوت ، نلعب « القـال » أو « السيجة » أو « الطاب » ، والى أن يحين موعـد عودتنـا الى بيوتنا بالتقريب ، نحزم كتبنا ونحن نتظـاهر بالنشاط . وامى لا تعرف انهم طردونى . وتستقبلنى وهى فرحانة تعتريها الدهشة والافتخار ، لأنها انجبت ابنا يذهب الى المدرسـة ، يحمل فى يده قلما يستطيع ان يحل به الطلاسم الغامضـة التى لا تعرف كنهها ، لم تكن أمى تعرف انهم يطردوننى من المدرسـة وانا أخبىء عنها ، فمن اربعة ايام كاملة ، وانا أخرج من البيت فى الصباح ثم اعود قرب الظهر فى موعد خروج المدرسة ، وهى تتوهم الا شىء يعترض طريقى الى أن هتفت فى وجهى بصـوتها الحاد الغاضب فى ذلك الصباح :

« خبر ايه يا منكود ... متقوم قامك هفة » .

وانفجرت فى البكاء ، فتقدمت منى وقد احسست بانى لا اهدد فى هذه المرة ، واحتضنتنى بين ذراعيها ، وانسدلت ضفائرها على كتفى وهى تطبطب على فى حنان :

ــ « معلش يابنى انا أعمل ايه بس .. لو كان أبوك عايش مكناش نتعب كده » .

واخرجت من جيبها قطعة من السكر لتدفنها فى فمى .. لكنى لم اشعر لها بطعم وسقطت على الأرض فالتقطتها ثم مسحتها فى طرف جلبابها ، ووضعتها ثانيـة فى جيبها . وراحت تقبلنى بصوت مسموع وفى لحظـة هـدات دون أن اسمع لها حـركة أو همسة . جلست أمامى وهى تضع يدها على خدها ، ووجهها قد بان عليه التفكير العميق الجاد الصـادق . وقامت وفتحت شباك الحجرة ، وتسربت اشعة الشمس خفاقة ساطعة على وجهها الحزين الملول . وتمتمت فى ضعف :

ــ « قوم يابنى البس هدومـك دلوقتى .. وأنا اتصرف زى ما يكون » .

وشاهدتها تجر قدميها الى حظيرة الدواجن . كانت قـد رتبت كل شىء فى راسها بحزم ودقة ، لم تلق اليها بنظرة حنان ، ولا اعترتها الشفقة عليها . كان كل حنانها وشفقتها موجهـة الى وهى تنادينى :

ــ تعا يا حسن ...

وذهبت بالقرب منها وكانت تتكىء بقدمها على عتبة الحظيرة ، والدجاج قد سكت ما عدا الديك الأحمر العتيق الذى اعتلى جرة قديمة وراح يصيح فى هوس وحمق . وقالت أمى وهى تضـع يدها على فى طيبة :

ـ هم عاوزين منك كام فى المدرسة يا ضناى ؟

وانداح فى نفسى فرح مفاجىء عارم وانا ارد عليها :

ـ جنيه ونص .

ورأيتها وهى تدلف الى داخل الحظيرة وتسحبنى من يدى قـائلة :

ـ طب اعكش معاى الديك الأحمر ده .. وحلق علشـان نمسك الأربع فرخات دول .. والبطة اللى هناك دهه .

وعلى الفور عرفت ما تنوى أمى أن تفعله . فقد قالت لى فى مرة انها ستعلمنى حتى ولو باعت جلبابها الذى عليهـا . فليس ببعيد اليوم أن تبيع الدجـاج لتدفع مصاريفى . وركزت على ركبتها فى تحفز وهى تهش الدجاج امامها الى أن حصرتها فى ركن مظلم ، ثم انقضت تمسكها واحدة بعد الأخرى ، وعلا الصـياح الى عنان السماء .. كوك .. كوك .. كوك .. كاك ...

وقيدت امى ارجل الدفعة الأولى التى امسكتها ، ثم اعطتها الى وركزت مرة أخرى ، ووقع الديك الأحمر بمنقاره الجميل فى يدها . كان اشـبه بملك فقد عرشـه فجـأة . كان الى وقت قريب يؤذن لبزوغ الصباح ، لكنه الآن المسكين الذى لا حول له ولا قوة . قيدت أمى أرجله فكف عن الصياح . وقاست الوراور ربما « طلع عليهم البيضة » فلم تجد ، وسحبت القفص ودفعت بها فيه ، وقفلت بابه . ثم قالت وهى تلهث :

ـ « خلاص يا حسن .. انا رايحة السوق ابيع دول عشان أدفع لك المصاريف .. والله لمـا تكون على جلابيتى لازم أبيعها » .

واحسست فى هذه اللحظة بارتياح شديد ، ورفعت أمى القفص على راسها ، ثم لبست شبشبها ، وانا وراءها الى السوق .

وفى الطريق لم تهدأ الطيور عن الزعيق .. ففى كل خطوة ترتفع حناجرها بأصواتها المستاءة المذعورة التى لا تعرف طريقها المجهول ، فمن سيشتريها ؟ واين تبيت الليلة ؟ وهل ستجد الغذاء والمكان الذى فقدته عندنا . ورقد الديك بعيدا عن الوراوز ذليلا مستكينا تدفعه الرغبة فى الخلاص .. ولكن من اين والقفص محكم لا منافذ فيه .. كل الذى توصل اليه أنه مد منقاره خارج القفص وسكت كأنه ينعى حظه التعس .. ورايت أمى ايضا وهى ساكتة لا تتكلم وقد طفى عليها سكون غريب كنت احس سببه . فهى تحمل فوق راسها الآن أغلى ما فى بيتها .. فماذا بعد الطيور ؟ .. وهى لا تملك يا حسرة شيئا تعتز به ؟ باعت حلقها الذهب عندما مات أبى .. وفطست الجاموسة التى شاركت عليها ، وما بقى لها فى الدنيا الا الأربعة وراور وديكهم العجوز والبطة اليتيمة . اشترتها بطلوع الروح ، وحدبت عليها . فى المساء تحبسهم واحدة بعد الأخرى ، وتغلق عليهم باب الحظيرة وقرب نومها تتهادى اليها وفى يدها اللمبة نمرة ٥ تريد أن تطمئن عليها . وفى الصباح المبكر وقبل صلاتها تفتح باب الحظيرة وتطلقها بعد أن ترمى لها بحبات الأرز .

كانت أمى ونحن فى الطريق صامتة ، تطبق على روحها اشياء ثقيلة كالحجارة لا تستطيع ان تتخلص منها أبدا . وبين الحين والآخر تنظر الى وانا امشى وراءها أتدحرج ولا اعرف ما يكون مصيرى اليوم ؟ . متى تبيع الفراخ ؟ .. ومتى أدفع المصاريف !! وهل سألحق حفلة المدرسة أم ستفوتنى كمعظم

الحفلات التى فاتتنى من قبل .. وقرب السوق اعترضتنا أفواج النساء ذوات البراقع والأثواب الملس والبرنج يردن أن يشترين منها ، كانت أمى تعرف بتجربتها أن تجاهلهن يجدى . وفى البداية نادت عليها امراة ولم تلتفت اليها بل وسعت من خطواتها وهى تجرنى وراءها .. والحت المراة فى النداء . فردت أمى وهى لا تبدى اهتماما كبيرا :

ـ ايوه يا ستى .

قالت المراة :

ـ معاكى وراور يا شبه ؟

ـ لا معايش . عاوزه كام ؟

ـ بس فرجينى الأول .

ووقفت أمى وهى تنزل القفص من على راسها بعد ان احتفظت « بالحواية » فى يدها اليسرى وكانت تنهج وصدرها يعلو ويهبط ، وقد علت وجهها حمرة التعب والارهاق ، ومسحت عرقها بطرف جلبابها ، ثم قالت بصوتها الذى وضح فيه انفعال شديد بالضيق :

ـ هه .. قلتى بكام يا ستى .. كل البيعة دى على بعضها ؟

ونظرت المراة الى القفص وهى تخرج الديك وقد طاوعها دون أن يبدى أى اعتراض ، فلم يفتح حنجرته بالزعيق . وناولته الى المراة التى وضعته فى يدها كأنها الميزان ، ثم هتفت فى سخرية وكأنها تريد أن تراود أمى وتساومها :

ـ دا ماله خفيف قوى كده يا أختى .. هو انتى ماكنتيش بتوكليه واللا ايه ؟

ولم تسكت امى فقالت محتجـة وقد بدا الضعف فى رنة صوتها ، ساحبة الديك من يد المراة :

ـ ياختى هاتى بلا كلام فارغ .. اذا كنتى عاوزه تشترى بحق وحقيقى اشترى .. حاكم انا مش فاضيالك .

ـ طيب عاوزه تبيعى بكام ؟

ـ يا وليه أنا قلتك البيعة كلها على بعضها ، الأربع وراور والديك والبطة .. عاوزه تاخديهم خديهم متفلقيش دماغى بقى ..

ومدت المراة يدهـا بنفسها فى هـذه المرة لتخرج الوراور الصغيرة والبطة .

وراحت تتحسسهم وتوزنهم فى كفها .. ثم قالت فى خبث :

ـ بيبيضو دول يا شبه ؟

وردت أمى وقد أدارت وجهها بعيدا ، مشـوحة بيدهـا فى استياء :

ـ منهم اتنين بيبيضـو .. والاتنين الفاضـلين حيبشرو قريب .

وارسل الديك صرخة عالية هزت كيان أمى وهى تزعق :

ـ يا ستى خلصينا خلينا نمشى حتشترى واللا لأ ؟ ..

قالت المراة وهى تحاور :

ـ انا خايفة اقول لتزعلى منى ...

ـ يا ستى بين البايع والشارى يفتح الله ، قولى اى كلمـة وان معجبتنيش حاقولك يحنن .

ـ تاخدى فيهم جنيه وربع ؟ ..

ولم تتحمل أمى الكلام فوضعت الحواية على راسها ، ورفعت القفص وهى ساخطة :

ـ انتى بتدلعى والنبى يا ستى .. فى حد فى الدنيا يقول الكلام ده ؟

واندفعت أمى فى طريقها غير عابئة بى الى ان لحقت بها المراة تتبعنا بخطواتها المتلاحقة السريعة تحلق علينا فى عتاب مصطنع :

خبريه يا عروسة انتى مش قلتى بين الشارى والبايع يفتح الله .امال زعلانه ليه ؟

ـ يا وليه سيبينى انا لا عروسة ولا حاجة .. انا وليه كبيرة قد أمك .. تعا ياواد يا حسن .

وتشبثت المراة بأمى لا تريدها ان تتحرك من مكانها ؛ ووقفت أمى للمرة الثانية والضيق يأكل صدرها ، والعرق يفيض على صفحة وجهها المتعب الحزين ، وشيء ما يتركز فى خاطرها .. لو ذهب حسن دون أن يطالبوه بالمصاريف اليوم لما احتاست هذه الحوسة ولما اهانت نفسها هذه الاهانة ، ولبقيت الطيور فى البيت مكرمة ، لكن ما باليد حيلة .. المهم ان تبيع الآن وتتخلص ففى السوق ستقابل أمثال هذه التاجرة اللعينة ؛ فماذا يجدى ذهابها اليه ؟ وقطعت تأملاتها حنجرة المراة :

ـ بعتى بجنيه وخمسة واربعين صاغ ؟

ـ يا ستى حرام عليكى .. والله دا انا مزغطاهم بتلاتين قرش حب بس .

ـ وانا أعمل ايه أصل سوق الطيور نزل ياختى .. ولسه حينزل كمان وكمان .

وشدت أمى يدها من يد البائعة وهى تنسحب من امامها مرة اخرى ، ولكن المرأة لم تتركها تمشى ، بل امسكت براسى وهى تقول :

ـ عشان خاطر الواد الصغير ده ربنا يخليهولك .

ونظرت امى الى ، وانا ارفع رأسى اليها وكأنى استعطفها أن تبيع وتنفض .. وطافت على وجهها سحابة حزينة كابية ظللت أمامها الدنيا بالسواد .. ثم استسلمت أخيرا :

ـ طب هاتى ياستى ...

واخرجت المرأة منديلها المتغضن وعدت لأمى النقود :

ـ طب والقفص ؟

ـ خديه راخر أنا حاعمل بيه ايه ياحسرة .

* * *

وانسحبنا راجعين واطياف المدرسة تترامى امامى على البعد ، يا ترى جرس الحصة الثانية ضرب ولا ايه ؟ زمانهم فى الحفلة دلوقتى ياريت ألحقهم .. والنبى سأجرى سأسبق الجميع .. حمامة .. وخلال التأملات لاحظت أمى وقد ابتدات تفك ازمتها ويستولى عليها سرور واضح .. ابتسمت لى وهى تقول :

ـ مبسوط يا حسن .. ؟ اياك يدخلوك بقى النهارده .. يالا نروح سوا .

وانحدرت الى وقبلتنى فى حنان .

وعلى باب المدرسة طرت من الفرح .. ورايت عم محمد البواب بقامته الطويلة وكتفه العريضـــة ووجهه الأسمر وقد تحفز الى بنظراته وكأنه يريد أن يصطادنى فلا ادخل ولكنى هتفت فى وجهه بحدة :

ـ هو ايه .. انا معاى المصاربف رايح ادفعهم .. وانت مالك .

وافلت الى داخل المدرسة حيث الاستعداد للحفلة قائم على اشده ، والتفت الى أمى أحييها وصياح الديك الأحمر الشقى ما زال يطن فى اذنى .

انســــان

لم تكن نتوقع ابدا ما حدث ، لأنه كان آخر شيء يمكن أن نفكر فيه . فنحن نعمل مع عبد المقصود افندى منذ زمن بعيد ، يمتد الى سنوات طويلة ، قاسـية ، مريرة . ذقنا فيهـا الذل والهوان وما من أحـد عكر علينـا صفو الحيـاة وحلاوتهـا الا عبد المقصود أفندى الباشكاتب . فوجهه المصلوب على تقطيبة دائمة تبثنا الرعب والخوف وكره العالم كله ، وقامته القصـيرة تذكرنا بالذئاب الجارحة التى لا ترحم . فحينما نراه فى كل صباح يحث الخطى الى مكتبه ترتجف قلوبنـا من الأسى والفزع ، فلن يمر اليوم بخير وسـلام . فسوف يجرى تحقيقا ، أو يسلم انذارا ، أو يلفت نظر احد ، أو يخصم بعض الأيام لمسكين منا .. فان لم يفعل كل هـذا أو شيئا منه فسوف لا نسلم من صـوته العالى الذى يشبه صوت ماكينة الطحين القديمـة ، فحـديث عبد المقصود أفندى كله زعيق حتى عندما ينبىء أحدنا بخبر طيب يسر القلب وتتفتح له الجوانح . ولقد احترنا فى عبد المقصـود أفندى حيرة شديدة حقا ، فلم يكن أحد منا يستطيع أن يقترب

منه فمجرد أن يقفل على نفسه باب حجرته تكون باقى الحجرات ساكنة ، يلفهـا الذعر ، وتكون الطرقـة الواسـعة الطويلة هى الأخرى قد استكانت واستسلمت ، فالسعاه يقفون كالأعمـدة المثبتة ينتظرون الاشـارات والأجراس ، ولا يستطيع أحـد من الموظفين الذين كانوا الى وقت قريب جدا وقبـل مجىء حضرة الباشكاتب بدقائق ، لا يستطيع هؤلاء أن يرتفعوا بأصـواتهم شعرة واحـدة عن الهمس ، فهم قد تعودوا على هـذا الاذلال الأبدى ، وشربوا الكثير على يد الباشكاتب العظيم . وكنـا نحن موظفى قسـم الشطب نقبع فى حجرتنا خائفين وجلين ، نقفـل افواهنا على الدوام . لكن كان هناك سر خطير بيننا لا يعرفـه الا نحن الأربعـة فقط ، فقد كنا نطـلق على الباشـكاتب لقب « الحلوف » ذلك لأن كرشـه الضخم يذكرنا بالأكل على الدوام ، ووجهه العابس الذى لا يلين ولو بابتسـامة واحدة على مر السنة يملؤنا بالامتعاض والقرف . وكان يشعرنا دائما بأننا آلات فقط ، صنعنا لتنفيذ اوامره ونواهيه ، بدون مجـادلة ولا مناقشـة ولا تفاهم ولا احساس ، فعندما يحدث خطأ فى كشف الشطب ينادى علينا جميعا ــ وبلا استثناء ــ ويرصنا فى حجرته كالأرقام وبدون تحية أو سـؤال عن الصحة أو مجرد ايماءة طيبة تبهج النفس وتسر الخـاطر الحزين ، وتسهل البدء معه فى الحـديث ، بدون شىء من هـذا يقول لنا الكلمتين اللتين ملتهما آذاننا كثيرا :

ــ اسمعوا يا اخواننا .. أنا لغاية دلوقتى مبلغتش المدير عن الفوضى اللى فى القسم ...

ونحاول نحن أن نقطع كلامه للتهدئة ، وليخفض من صوته قليـلا ولكن بدون جـدوى .. فهو يسـتمر فى اعطـاء أوامره الجليـلة :

ـ انا عاوز القسم يمشي دوغرى .. فاهمين .. مليم ناقص .. مليم زيادة .. فيه جزاء صارم ، فيه كمان تحقيق ، فيه لفت نظر ، فيه خصم وفيه انذار ، وفيه فصل .. يعنى الحكاية مش فوضى .. وسية .. انتو فاكرين ايه !!

ونسمع نحن هذا الكلام المر ، ثم نعود حالا الى مكاتبنا ؛ والقشعريرة تتملك اجسادنا ، وكأن حمى خبيثة قد أصابتنا فجأة ، ويبدو لنا الباشكاتب القمىء ، بكرشه الضخم ، كأنه عملاق كبير يراود خيالنا فى كل مكان وزمان ولكن الأمل كان يطوف علينا فى بعض الأحيان ، فقد كنا نحب ان نرى الباشكاتب فى الخارج ، بعيدا عن المكتب والوظيفة ، نراه وهو يركب الأتوبيس مثلا ، أو وهو يجلس مع اولاده فى البيت ، أو مع صديق حميم له .. فربما كان اميرا وطيبا مع هؤلاء الناس ، ونحن نريد أن نطمئن عليه ، نريد ان نراه غير مقطب الجبين ، وصوته منخفضا قليلا ، والفاظه حلوة ، جذابة ، تداعب فمه ...

ولا ندرى كيف تحقق حلمنا هذا فجأة ، فقد كان هناك شيء واحد هو الذى جعلنا نرى عبد المقصود افندى الباشكاتب انسانا آخر غير الذى عرفناه .

ففى صباح أحد الأيام جلسنا على مكاتبنا كالعادة ، خائفين، وجلين ومضطربين ، نتوقع ما يصيبنا كل يوم على يد حضرة الباشكاتب الموقر . وما كدنا نخطف عناوين الصحف ، ونبدأ العمل حتى طرق باب حجرتنا احد السعاة وقال وهو يلهث :

ـ حضرة الباشكاتب عاوزكم حالا .

وتعجبنا نحن من هذا الساعى الأشأم ، فمن يدرى ما يخبئه لنا الباشكاتب فى طيات هذا اليوم الأسود . وهزتنا رعدة

مباغتة لا نعرف لها سببا . وسرى امامنا طيف سحابة باهتة جعلتنا نستغرق فى سكون . ثم سرعان ما نفضنا الذعر عن كواهلنا ، وقمنا مسرعين كالجنود المحاربين الى مكتب الباشكاتب. وهناك زادت المفاجأة تعقيدا ، فقد وجدنا معظم الموظفين يقفون هم الآخرون ولا يعرفون مثلنا ما يخبئه لهم القدر .

واخيرا جاءنا صوت الباشكاتب ـ ولأول مرة هامسا ، رقيقا ضعيفا ، رفافا كالنسمة :

ـ اتفضلوا اقعدوا .. مفيش حاجة .. المسألة مش خاصة بالعمل .

واحسسنا نحن لحظتها بارتياح شديد يدغدغ عواطفنا الملتاعة ، وازدادت راحتنا حين جلسنا وقد احسسنا بألفة جديدة للمكان .

وكنا نتوقع ان تكون هناك حفلة عامة بمناسبة نقل المدير مثلا ، او ان هناك زيادة عامة فى المرتبات أراد الباشكاتب أن يجعلها لنا مفاجأة كبرى ، وان يوهمنا بأن المسألة غير خاصة بالعمل .

واخيرا كنا نجزم بانه لابد وان حدثا سعيدا جدا قد حدث للباشكاتب جعله هكذا منسابا ، حنونا رقيقا ، لا أثر لتقطيبة المشئومة فى وجهه ، ولم يدم تخميننا طويلا .. فقد سمعنا صوت عبد المقصود افندى يتهدج فجأة وهو يقول لنا فى نبرات حزينة :

ـ البقية فى حياتكم يا اخوانا فى عبد البصير افندى كاتب الصنف .. مات النهارده الصبح فجأة وهو جاى الشغل معايا .. ورجعت بيه بيتهم فى تاكسى مخصوص .

ولم يستطع عبد المقصود افندى أن يتحكم فى نفسه ،

فاختلجت صفحة وجهه كالأطفال ، وانسابت الدموع من عينيه على خديه ، وانهار صوته ، فأصبح ينهنه بصوت مسموع حنون فيه الأسى والحزن العميق ، واخرج منديله من جيبه ليمسح وجهه المبتل ، وسكت عن البكاء ولكن الدموع ظلت تتساقط من عينيه بلا ارادة ولا وعي .. وساد اللغط بين الموظفين ، وتعجبوا وهم يقفون فى الحجرة كالتماثيل الصخرية . وسكتوا حينما ارتفع صوت الباشكاتب قليلا والمنديل فى يده اليمنى ويده الأخرى تحنو على موظف جلس بجواره :

ـ اسمعوا يا اخوانا لازم كلنا نروح الجنازة الساعة ثلاثة النهاردة .

وانبسطت اسارير وجهه قليلا ثم وجه الحديث للجميع :

ـ حاجة غريبة .. اما دنيا غرورة صحيح .. الراجل يكون ماشي معاى فى أمانة الله ابص الاقيه وقع من طوله قدامى.. حاجة تجنن .. دا البنى آدم على كده ضعيف قوى .. قوى .. دحنا ملناش حاجة فى نفسنا بقى .. دا لغاية امبارح بس كان عندى .. حتى نسى قلمه هنا أهوه .. اهوه قلمه .. اهوه .

وتوقف الباشكاتب عن الكلام ونحن نستغرق فى سكون عميق يستحوذ علينا جميعا ، حتى محبرة الباشكاتب وريشته وقلمه الأحمر والدفاتر العديدة الملقاة على مكتبه قد سكتت هى الأخرى لأول مرة ، فلم تعد تخيفنا او تزعجنا وكانت عيوننا جميعا تتركز على الباشكاتب وقد تخلى عن مكانه وراء مكتبه ، وجلس بيننا على الأريكة الطويلة ، وبين الحين والآخر يحاول أن يحبس دموعه المنسابة ، أو يكفكف عبراته المختلجة .. وفى غمرات الأسى واللوعة لموت عبد البصير افندى كان وجه الباشكاتب يضىء الحجرة بنور عجيب وكان فمه أيضا يبثنا كلمات العزاء بصوت رقيق ، حبيب .

شقاوة عيال

راحت الست زكية وهى تقطف الملوخية تحذر خادمها الا يغيب بالخارج :

ـ هوا يابراهيم .. اياك تتأخر .. الهب بدنك .. المقشة موجودة .. اهو انت عارف .

كانت قد امرته أن ينزل الى تحت ، ليشترى صفارة وقطعة من الشيكولاتة لابنها ميمى . وبمجرد ان قفل ابراهيم وراءه الباب نزل يتدحرج على السلم بظهره ، وعلى بوابة العمارة الضخمة لهفه عم عثمان بأطراف أصابعه السمراء وهو يقعد على دكته القديمة :

ـ يابن العفريتة ! هو انت جن !

وانساب ابراهيم فى الشارع وهو فرحان جدا .. فقد ترك وراءه المطبخ والخيشة والغسيل ، وهوسة سيدته التى تفلق راسه ، ودلع ميمى الثقيل ، فلقد تعود الولد أن يركبه

كالحمار ، حج حجيج وبيت الله ، والكعبة ورسول الله ، والجمال الملح ، وأن يجرى وراءه ، ويأمره بأن يختفى تحت السرير ثم ينطلق ليأتى به وهو يصفعه بيديه الصغيرتين ، وابراهيم ساكت بمنتهى الضيق . قلبه على نار ، فلقد كان فى قدرته ان يغلب ميمى بلغز ما ، أو يأخذه معه الى الشارع ثم يقرصه وهو يهدده بألا يتكلم .

واثناء تلك الخواطر التى اعتلت راسه المحموم اصطدمت قدمه بكرة شراب كان الأطفال يتقاذفونها وهم يصيحون بسرور ، ونهره ولد يريد أن يمنعه من اللعب ، ولكنه أصر وهو يقبض على القروش بيده ان يقذف بالكرة ، وارتفعت الصيحات من كل جانب :

ـ هنا يا ابراهيم .. هنا يا ابراهيم .

وشعر بشيء من الزهو ، فقد أحس ان العيال ينادونه باسمه ، ودار حول نفسه فى حركة خفيفة يتطلع على سيده ربما رآه .. وانبسط وهو يجرى وسط العيال بدون هدف ، يصد الكرة بمنتهى الشطارة وكسر زميلا له وهو يتظاهر بعدم الاهتمام فقد ضربه هذا الولد فى مرة ، وصاح الصغار :

ـ يعيش .. يعيش .. يعيش ..

كانوا فى غاية الضيق من هذا الولد ، وذاب ابراهيم فى اللعب بعد أن نسى الشيكولاتة والصفارة وتحذير سيدته ، واشار على العيال أن يلعبوا فرقة ، وسيقف جون .. وحمى اللعب والقى ابراهيم بالقروش فى فمه لئلا تضيع .. وشمر جلبابه ، فبانت ساقاه الرفيعتان الهزيلتان ، وبين تهليل العيال صد ضربة عنيفة بمهارة نادرة ، وتوقف اللعب ، فقد كانت هناك

عربة تمر ، وفى غمرة التحمس اخرج القروش من فمه ليطمئن عليها ، وفى لخمة سقط منه قرش ، وحالا بحلق فى الأرض وهو يلتقطه ، ونفذ منه جون فى تلك الأثنـاء ، واحس بضيق شـديد فقد جرى نحوه العيال يشتمونه ، وانفلت لسان احدهم :

ـ عاوزين نغير .. الواد ابراهيم بيلعب معاهم .

وفى خفة وسذاجة فك عقدة جلبابه ، ومسح عرقه الحامى ، ولوى راسه الصغير وهو يشهق :

ـ انى مش لاعب .. ستى حتضربنى .. انى اتأخرت ..

وجذبه ولد من جلبابه :

ـ خليك العب باك .. ياد خليك .

وترك ابراهيم اصحابه وهو يجر قدميه المنهكتين ، وعند عربة ترمس شرب حتى يبرد جسده الفاير ، وراح يلتقط أنفاسه بتعب شـديد وتطلع الى قدمه وقد أحس أن شيئا كالنمل يقرص، وكاد يبكى ، فقد راى أصبعه تسيل بالدم ، وقعد على جانب من الطريق يلفها بخرقة قديمة ، وقام وهو يعرج فقد أشـفق على نفسه ، ووصل الى اذنه نداء حبيب الى نفسه :

ـ السخنة عال يا بطاطا .. اللى زى اللوز يا بطاطا ...

وزغورت بطنه ، وقد دارت فى راسـه « فكيرة » .. يشترى بقرش ويقول ضاع منى .. ضاع منك فين .. ؟ طيب وتأخرت ليـه ... ؟

وتذكر صوت سيدته المعروف :

ـ هات المقشة يا ميمى ...

لكن البطاطة حـلوة .. طيب قرش اهـوه . واستحمل العلقة . وتقدم من البائع وهو يقبض على القرش بين أصابعـه بتردد ساذج ، وارتجفت اطرافه حينما زعق فيه الرجل :

ـ عاوز بكام ؟ .. هات بلاش دوشة .

وكن ابراهيم يده وهو يرتعش :

ـ آنى خايف .. آنى خايف .. ستضربنى .. ودفع الرجل عربتـه تاركا ابراهيم وراءه ، واقفـا فى مكانه يمتد بصره يلف البطاطا فى اشتياق زائد والتفت مذعورا ، فقد كادت تصدمه عربة عفريتة ، وعلى الفور استدار الى محـل الحلويات وهو ينهج ، فناول البائع القروش :

ـ ستى . ستى عاوزة شيكولاتة وصفارة .

ورجـع ابراهيم طيران يزعق بالصفـارة فى طول الشـارع وعرضه ، وعند العيال الذين يلعبون بالكرة جرى ابراهيم بجوارهم وهو يصفر بأعلى صـوته ، وحلق عليـه العيال يحـاولون خطف الصفارة ، وارتفع صوت أحدهم وهو يخرج لسانه :

ـ خلينى اصفر شوية ياله ...

ولم يأبه ابراهيم ، بل أفلت ، وقـد خشى على قطعـة الشيكولاتة أن تنكسر ، واغتاظ العيال فراحوا يشيرون بأصابعهم وراءه :

ـ العبيط أهوه .. العبيط أهوه ...

وتحسس ابراهيم الشيكولاتة ، فقد عرقت يده عليهـا ، فمسحها بجلبابه ورفعها الى عينيـه .. كانت كقطعـة اللبن . وبسهولة نزع الغلاف وفى انبساط راح يلحسها ، وكادت تنبرى ،

لولا أن ادخلها فى غلافها الذى اصبح واسعا عليها . وراح يقفز على أنغام الصفارة الحبيبة ..

ــ تربت تيت .. تربت تتى ..

وحينما قرب من البيت هـدأ تماما وهو يمسح الصفارة ويضعها فى جيبه ، وتردد فى طرق الباب ، فقد سمع سـيدته بالداخل تلعنه ، وحينما اراد أن يفلت بجسـده ، كانت الست زكية قد رفعته من اذنه كالأرنب وانزلته ، ثم رفعته مرة ثانيـة فى حركة عصبية وهى تشتمه :

ــ ورحمة خالتى ما انت بايت فيها .. لازم أرميلك هدومك م الشباك .. ياللا اطلع بره .. ياللا ..

وزعقت فى ميمى ان يحضر المقشـة . وفى تردد جرى ميمى نحو المطبخ وهو يفكر فى شىء ما ..

ماما بتضربيه ليه .. هو عمل ايه ؟ وابراهيم صاحبى .. بنلعب سوا ..

وفى خوف رمى بالمقشة من النافذة .. لقد صعب عليـه ابراهيم .. وعاد الى والدته وهو يخفى مشاعره :

ــ مش لاقيها يا ماما ..

واستعانت الست زكيـة بيديها تلطم الولد من هنـا ومن هنا .. وتركته بعد ما هتفت به :

ــ ايدى وجعتنى يا كلب .. لمـا ييجى سـيدك يكمـل عليـك .

وانخرط أبراهيم فى شهقات باكية :

ـ آه يانى يامه .. آه يانى يابويا .. انت فين يامه .. تعالى لى يا بابا ..

وتحسس اصبع قدمه ، فقد فك الرباط فسالت بالدم مرة اخرى .

ودخلت الست زكيـة الحمـام تأخذ دشا فقد احست ان جسدها ينتفض بالحرارة .. وتلفت ابراهيم حوله ليطمئن .. ولكنه وجد ميمى يقف كما هو مذهولا مضطربا .. وتقابلت عيناه المحمرتان مع عينى ميمى اللتين سال منهما الدمع .. وفى لحظة تقدم ميمى منه فى خطوات متعثرة يمسح دموعه ويتحايل عليه :

ـ معلهش يا ابراهيم .. معلهش ياله .. خد حته آه ..

واخذ ابراهيم قطعة الشيكولاتة من يد ميمى وهو يرمقـه بحنان عظيم .

الترابيزة

لا يدرى عبد السلام كيف فقد حماسه فى لحظة واحدة كهذه ، كان كالنحلة فى نشاطه طوال السنة ، حضر من البلد وفى قلبه يعيش دكتور بأكمله ، بالسماعة ، والبالطو الأبيض والنظارتين السميكتين والكلمات الانجليزية التى ينطقها بخفة وسهولة ، وكتاب التشريح الضخم ، وبعض اللوازم الأخرى التى لابد للدكتور منها . وفى كل يوم يذهب فيه عبد السلام الى الكلية ، وخلال كل محاضرة او جلسة مع الأصدقاء تتمثل له صورة الدكتور ، فهو قد رحل من البلد ذات يوم تاركا اباه وامه واهله من الفلاحين، وعلى « حلزونة » الحاج محمود المقاول وضع سريره السفرى القديم ، وكرسيه الحيلة ذا الرجل الكسيحة ، وبراد الشاى ، وقدرة الجبن ، ومشنة العيش وحلة الأرز المعمر بالأرنب المحمر ، واشياء أخرى عديدة لفتها له أمه وضعتها سرا وهى توصيه بالاجتهاد والصبر .

لا يدرى عبد السلام وهو يسترخى فى سريره بحجرته المتواضعة فوق السطح كيف فقد حماسه الملتهب فجأة وبدون

مقدمات . وكان فى كل يوم يصحو من النجمة محتضنا كتاب التشريح المشهور ، والقلم الرصاص الدقيق بين أنامله ، وهات يا مذاكرة ، وهات يا حفظ ، يبدأ عادة بصوت عال يبلغ صداه الجيران ، خاصة عندما تستعصى عليه لهجات الانجليز الصعبة ، فيكرر ويزيد بل ربما سرح فى أشياء لا تمت الى المذاكرة بصلة ما ، قد يصل عبد السلام فى أحلامه الى البلد ويقابل أهله وأصدقاءه ويسلم عليهم واحدا بعد الآخر ، ويبثهم حنينه واشتياقه ولوعته للغربة التى قذفت به الى مصر والتى كادت ان تفقده عقله ، فالأمانة شحيحة والأخلاق ليست على ما يرام ، ولا مودة .

يسرح عبد السلام فى ذكرى أيام مثل الورد ، قضاها بدون مسئوليات ، لا يحمل هم شراء الفول كل صباح ، ولا التهاب قدميه من السلم الطويل الملتوى . ويفيق من أحلامه العزيزة ليجد أنه لم يفارق نفس السطر الذى بدأه منذ ربع ساعة ، فيجرى الى الحنفية ليلقى برأسه تحتها وليطرد الكسل الذى حط عليه . ومع فترات الضيق كان عبد السلام يقاوم ، فقد اعتبر نفسه فى مهمة طويلة ، فغدا ستفرج وستتعدل الأحوال ، وسيتخرج دكتورا محترما ذا شأن . ما كان يهمه الأكل ولا الشرب ولا الذهاب الى السينما ولا التعرف على مباهج القاهرة ، فحين يتخرج يفعل ما يريد ، ويشرب السجائر مثلا ، ويتزوج ، ويسهر ويكسب ويحب ، بل ويشرب الخمر ان كان هناك داع .

ولكن عبد السلام اليوم كان يعانى احساسا فاترا هزيلا افقده حيويته ونشاطه الدائبين ، رقد فى سريره يتأمل حجرته المتواضعة ، لم يلمس كتاب التشريح الضخم ، ولا ذهب الى الحنفية ليلقى برأسه تحتها ، ولا سرح فى أحوال البلد ، كان يتأمل

حجرتـه لأول مرة منذ اتى الى مصر .. وكان قلبـه يخفق من أجلها ، فهى المـأوى وهى الملاذ . وهى كل ما له فى القـاهرة الواسعة الرحيبة التى تكاد تبتلع الناس جميعا بما لهم من عظمة وجاه وسـلطان . نظر عبد السلام الى بدلته المعلقـة على الجدار وخلفها احدى الجرائد القديمة التى كان قد اشتراها فى صباح حضور العفش من البلد ، واجتاحه الحزن المفاجىء حين احس بقميصـه الأبيض الباهت المتغضن ، وجوربيه الراقدين بجوار حذائه فى ذلة ومسـكنة ، ومشنة العيش الخـاوية التى تحتوى على فتافيت الخبز ، واناء الغاز الخاوى الذى انقلب على فوهته فبان كأنه يبدى استياءه من الحياة والعيشة وقسوتها ، وكتبه التى اشتراها بدم قلبه وهى مرصـوصة على الأرض لا تعرف لها مأوى ولا فراشا ، ولا ترابيزة تحتضنها وتدفئها . واستقر بصر عبد السلام عند الكتب والكرسى ذى القدم الكسيح .

واشتعلت فى داخله ثورة عارمة ، عزت عليه الكتب ، وصعب عليه الكرسى الوحيد الذى يطلب انيسا له فى وحشته . قـام عبد السلام وجلس على الكرسى دون ما سبب وشعر بلذة لم يحسها من قبل وعـاد فاسترخى على السرير وهو يتأمل فـكرة حـلوة لذيذة ، مرت امامه سهلة جميلة اخاذة لم يتوان فى تصـورها .. لو جلس يذاكر وأمامه ترابيزة تحمل كتبه .. ولكن ما العمل .. يشتريها .. ياريت ، المسألة على الله . وسرح عبد السلام يتخيل حجرته من جديد .. لو عنده دولاب يلم بدلته الحيرانة يرفـع راسه فى كل صباح ليراه وهـذا الدولاب لمـاع أخاذ له مفـاتيح فضية كالتى يحملها أستاذه فى الجامعة . وآه لو عنده سجادة معتبرة كالتى فى حجرة العميد .. لكانت قد جلبت عليه الدفء ووفرت عليـه الذهـاب الى مستشفى الجامعـة ليطلب الدواء للروماتيزم .. آه ولو عاد من كليته فوجد غداءه جاهزا فى اطباق

من الصينى ، والملاحة فى وسطه ، والجرجير والسلطة على حافة مائدة الغداء تعطيهـا رونقا ونظاما ، ولو صحا من النوم ليضـع فى قدمه شبشبا من الجلد بدل هـذا القبقاب الذى يدق جلدته كل ثلاثة أيام .. وياســلام لو كانت له زوجة بنت حلال تقوم على خدمته وتخصـه بعنايتها ورعايتها وحبها وتتمخطر فى وسط الحجرة .

وتوسع عبد السلام فى احلامه فلم يكتف بالحجرة ، ورسـم حجرة اخرى .. حجرة للنوم بها مرآة كبيرة .. وسرير رحيب وسجادة ايضا . وتقلصت هـذه الأحلام فى نظره وهو يتأمل فكرة الترابيزة التى راحت تدق راسـه بقوة ، فيكفى ان تكون له الآن هذه الترابيزة لتساعده فقط فى المذاكرة وهو لا يريدها انيقة ، لها ثلاث ارجل وعليها طفاية سجاير ، ولا طويلة ولا عريضـة كالتى يحلم بها فى المستقبل حين يتزوج ، الذى يهمه الآن ترابيزة صغيرة محندقة ، تحمل كتبه ويضـع عليها طبق الفول وهو يفطر ، ثم زجاجة المـاء حتى لا يخرج فى الليل ليشرب فيجتاز السطح كله فى عز البرد .

وقام عبد السلام وضرب جدار حجرته البغدادلى الرقيق ، وفجأة سقط لوح من الخشب لم يكن يتوقعـه ، فأرجعـه الى مكانه فى رفق ، ولكن اللوح سقط مرة اخرى ، وحاول أن يلصقه بكل الطرق وفشلت محاولاته ، وبجوار رفاقه وضعه ، ففى كل يوم كان يسقط لوح من جـدار حجرته او سقفها .. يسقط من الريح أو الاهتزاز أو من تلقـاء نفسـه بدون سبب . واشرقت الفكرة فى راس عبد السـلام فى وضـوح . فرفع بعض الألواح وحاول كسرها على ركبته فلم تنكسر وتعجب لمـاذا تسقط اذن بهذه السهولة ، انها متينة متماسكة صلبة .. ورسم الترابيزة

فى ذهنـه .. أولا سيلحم لوحين عريضـين ببعضهما بشنبر من الصفيح .. ولكن من أين له بالمسامير . سيخلعها من السطوح .. فما فائدتها له ، طيب سيحاول . المشكلة فى ارجل الترابيزة فهو يريدها مستديرة ومستقيمة لتستطيع ان تعيش وتتحمل .

وفجأة جرى الى السـطح لينفذ المشروع ورأى مسـمارا واحدا ، فرفع حجرا من الأرض وخلعه ولف على السطوح ليخرج بعشرة مسامير .. جلس ليعدل من اعوجاجها . ودخل الى الغرفة وهو فرحان جدا . لف الشنبر على اللوحين العريضـين وثبت احد المسامير فيه ، ولكنـه افلت ، بل شق طريقه الى غير ما يريد، ورفع عبد السلام راسه وهو يمسح عرقه الذى تساقط دون ان يدرى . وثنى المسمار من الناحية الأخرى فتماسـك مع الشنبر. ودق مسمارا آخر فأخذ طريقه سليما . وواحدا بعد الآخر التحم اللوحان وبدا سطح الترابيزة امامه متواضعـا ملقى على الأرض . ورفع عبد السلام قامته وهو يلحس أصبعه فقد جرح . وجلس على الكرسى ليستريح وهو يتصـور الترابيزة أمامـه ، فاليوم سيكملها .. وغدا يرى الكتب عليها ، وسر فى داخله جدا وهو يتحسس اللوحين الملتحمين . وقاس طولهما بالنظر حتى يتساوى مع طول الكرسى . وخـرج الى السـطح مرة ثانيـة يبحث عن الأرجل .. وقرب طاولة الغسيل فحص كتل الأخشاب القديمة التى تخللتهـا الصراصير والعنكبوت المعشش وكاد أن يطير من الفرح . لقد عثر على رجلين لكرسى قديم لا يعرف تاريخهمـا ولا أيامهما السابقة ، وانتزعهما بسرور بالغ وفى الداخل جربهما ، كانا على المقاس بالتمام . لكن المشكلة فى لحمهما بسطح الترابيزة. فكر عبد السلام لو معه شـاكوش الآن لساعده فى عمله هـذا . وذهب ليشرب فقد جف حلقه من العطش وعاد لينهى الموضوع الذى عذبه ، وفتر حماسـه فقد فشل فى تثبيت الرجلين .

وفكر مرة أخرى .. لماذا لا يستعين بالألواح ، فهي من الضروري أن تحمل الترابيزة اربع أرجل ككل الترابيزات .. ان ترابيزته وحيدة وفريدة فى نوعها .. وهو لا يريدها للزينة أو العياقة او التباهى .. يريدها فقط لتؤدى مهمتها . ورفع لوحين طويلين وعلى جانب الشنبر أحكم وضعهما ، ودق فيهما المسامير العاصية ، ورفعت الترابيزة قامتها أمامه لأول مرة .. ولكنها سرعان ما انكفأت على وجهها دفعة واحدة . واصيب عبد السلام بخيبة أمل كبيرة ، فماذا يفعل .. وليس في يده شيء يصنعه .. يذهب الى الست صاحبة البيت ويطلب منها شاكوشا. ولكنه لم يدفع الأجرة ، لو لمحته لفتحت معه تحقيقا ، ورفعت صوتها المرعب يعكر عليه نهاره يذهب الى النجدى أفندى جاره الموظف بوزارة الزراعة .. فربما وجد عنده الشاكوش ، ولكنه خرج الى شغله فى الصباح وما ذهب عمره الى شقة النجدى أفندى فى غيابه ولا فى حضوره .. وما تقول عنه زوجته وهو المؤدب الخجول الذى يضرب به المثل .. فحين تفرش عائلة النجدى على السطوح فى الشمس لا يخرج عبد السلام من حجرته ، بل ينكس رأسه فى الأرض ويسير فى طريقه لا يرفع قامته ، ولكنه اليوم فى أشد الحاجة الى الشاكوش وفى جراة نقر على باب النجدى أفندى وردت عليه زوجته من الداخل :

ــ مين ؟

ــ انا عبد السلام يا خالتى .

ــ أيوه يا عبد السلام .. عاوز حاجة ؟

وسكت عبد السلام .. ففتحت زوجة النجدى أفندى الباب وفى حياء همس عبد السلام :

ــ انا عاوز شاكوش بس وارجعه حالا .

ودخلت المراة وهى تقول :

ـ ادور ياخويا .. مش فاكرة .. كان عندنا زمان .

وخرجت وهى تبدى أسفها :

ـ والنبى يابنى مالقيت .. تاخد ايد الهون .. اهه تنفع ، احنا بندق بيها كتير .

وتناول عبد السلام ايد الهون وهو يلاحظ قوام المراة فى كثير من الشغف .. وحالا قفز الى حجرته وامسك بالترابيزة فى حجره ، وثبتها على الأرض وراح يخلع المسامير ويعدلها ويثبتها من جديد فى قوة .

ومسح عرق جبهته بجلبابه ، وقام وهو يضع الترابيزة امامه وفى هذه المرة وقفت امامه ، فلم تقع ولكنها وقفت كليلة ، هزيلة ضعيفة كالمسخ ، تشكو من جنبها الأيسر ، فقد بدا قصيرا نوعا ما . وجعلها بجانب السرير فبدت اعلى منه قليلا ، ووضعها أمام الكرسى فبدت مرتفعة عنه قليلا . ولكن قصر جنبها الأيسر توازى مع عرج الكرسى الوحيد . واتى عبد السلام بكتاب التشريح ، وتمنى لو حملته . بل وفتحه على الصفحة التى وقف عندها . ورفع صوته يذاكر ، واحس بقدرة عجيبة على المذاكرة لم يحسها فى الصباح حينما استولى عليه الفتور والكسل . وفى رفق قام عبد السلام تاركا الترابيزة وهو يرنو اليها فى حب وخوف .

القمــــح

كان الليل قد هبط الى القرية مثل الراهب العجوز يبشر الفلاحين بالراحـــة والسكون .. ولفها الظـلام كأنه رداء قديم مقدس ، وانتثرت النجوم فى السماء تضفى عليها جمالا ورهبـة كأنها تحتفـل بعرس ابدى خـالد ، وابتدأت أصـوات الكلاب ترتفع . وترتفع .. وتتمزق نتفا عالية مبحوحة ، وانقطعت الأرجل من الطرقات ، وأرسلت الصراصير صفيرا ملحا وحادا كما لو كانت تشكو حياتها الذليلة ، وجاء نقيق الضفادع متشنجا كتشنجات نساء الزار ، ولم يسمع الفلاحون وهم يتحشرون فى القاعات الضيقة السمراء ســوى صوت السكون وهو يئن ويتوجع كمريض به عاهة قديمة مزمنة ، وصـــوت عبد النبى الخفير وهو يكح ويتنحنح ويرتفع بصـــوته الى أعلى من آن لآخر ويرمى بكلمـة لا يقدر على حبسها « يارب » .

كان عبد النبى قطعة سوداء .. وهو وحده الذى يعيش وسط هـــذا السواد وتلك الوحـدة الغريبة وتشمم على أحد يقضى معه الليل فلم يجد ويئس تماما حين لم يعثر على الحـاج

عبد الخالق الذى يقضى معظم الليل بالمصلى الذى يرقد على حافة الترعة .. فأخذ يخبط الأرض بحذائه الميرى ويجرب زناد بندقيته ويشعل القش ليعمل الشاى ، ولكن ذلك كله ما كان يكفيه على ان يجد انيسا فى تلك الليلة المنحوسة التى يتعجب منها ، والتى قلب الأرض على انسان ليلقى عليه السلام فقط .. حتى ابن علوان ، الذى كان يضايقه فى كل ليلة ، لم يلمح وجهه الكالح الكئيب . وبينما يحاول عبد النبى أن ينتزع نفسه من هذه الدهشة المظلمة تسللت الى سمعه اصوات مكتومة جدا وصلت اليه من خلال الجدران وكان لا يستطيع تمييزها بسهولة ، فارتكن على البندقية وغرز اذنه فى الحائط وراح يلتقط الكلام ، كان شحاته يصرخ فى زوجته :

ـ وآنى حعمل ايه يا ولية .. اتمسى وانقلبى نامى ..

وتحقد عليه زوجته فتعلو بصوتها :

ـ والله مانى نايمه .. دا العيال صحيين وآنى حعملهم ايه .. حطبطب عليهم . يا راجل اختشى .

وسمع عبد النبى طرقات عنيفة ، ترك شحاتة بعدها البيت واندفع للخارج ووجهه منعقد الف تعقيدة .. وفوجىء بعبد النبى يقف امامه فأرسل له التحية كالسهم :

ـ مساء الخير يا عبد النبى .

ـ مساء الخير يا شحاتة .

وتجاهل أنه سمع شيئا فقال :

ـ يعنى مش عادة يا شحاتة انك تطلع فى الوقت المتأخر ده .. خير ؟

وتجهم شحاتة واحس انه فى مأزق حرج ، ولكنه استدرك بتلعثم :

ـ أصلى .. أصلى .. رايح ابات عند الساقية يا عم عبد النبى .

وانفصل الرجلان كل منهما فى طريقه . ومضى الليل يزحف بطيئا مملا على انفاس القرية الوديعة ، وسقطت نجمة تتدفع فى الفضاء سهم الله فى عدو الذين تنزل على القوم الكافرين ، وانخفض نباح الكلاب حتى ابتدات تتثاءب .. وفى نفس الوقت من هذه الليلة ــ ككل الليالى السابقة ــ مزق السكون نهيق حمارة الجمال ، ولم تجز على عبد النبى هذه الحيلة التى اختلقها شحاتة ، وابتدأ الفار يلعب فى عبه ، ولكنه يعرف لصوص البلد كلهم .. واحدا واحدا ويعرف متى يجيئون وعلى أين يسطون .. يعرفهم بأوصافهم واشكالهم . ويعرف السيم الذى يتفقون عليه . ولكنه الآن امام مشكلة .. فهو يعرف أن شحاتة ابن حلال .. ابوه صديقه من زمان .. وامه صالحة تصلى الأوقات بأوقاتها .. وجده له مقام لايزال الناس يتبركون به .. اما شحاتة نفسه فهو كما كان يراه ، من الحقل الى الدار ، ولكن الأيام جارت عليه ، ولقد نفض يده من الأرض بعد ما خسر جلده فيها . وفضل ان يعمل أجيرا ، ومع ذلك فلن يخسر شيئا فى مراقبته فى تلك الليلة .. وأراد أن يرى شحاته لئلا يفلت من يده .. فبحلق بعينيه الضعيفتين فى الظلام ، ولكنه لم ير شيئا ، فخلع حذاءه الميرى لئلا تضرب معه لخمة .. وعمر بندقيته واستعد ، وذهب النوم عن جفونه ، واستطاع ان يجد فى هذا العمل لذة ومتعة ، وأخذته النشوة فضرب عيارا فى الهواء ورد عليه الخفراء من أركان القرى المجاورة ، وشعر أن له سلطة..

وأن معه بندقية يستطيع أن يعمل بها العجب ، وبينما هو منهمك فى ترتيباته لمتابعة شحاتة والعثور عليه ، كان شحاته نفسه يلبد فى المصلى تنهشه اكثر من فكرة ، وتلفعه فكرة وحيدة ومريحة جدا .. انه ينام على نفسه ، ويود أن يلقى بجسده فى أى مكان لينام ولكنه لا يستطيع ذلك فالدنيا برد ، وهربت هذه الفكرة من ذهنه المشتت وارسل تنهيدة قلقة باردة ، ثم كبس طاقيته على أذنيه لتشعرا بالدفء ، وهرش صدره فى ضيق وحيرة .. وشد شعيرات من شعره الكثيف .. رماها على الأرض ، وأخيرا فرد طوله وطقطق عظامه ، ومشى فى حزم وثقة ، ولقد لاك هذه الفكرة التى تدور فى راسه الآن ورتبها كالأعداد . ولكنه قد يتعرف على تقدير يقشط تقديرا ، وتهبط فكرة لتصعد اخرى على حسابها ، ولكنه عندما وصل الى بيت الحاج الفولى ، تذكر الزريبة التى يختزن بها القمح من السنة الماضية والذى حصده بيده ، كان قد تصور نفسه قد اعتلى الجدار بمهارة وحذر ، وقفز فى وسط القمح وملأ ربع جوال قذف به فى حرص واحتياط .. ثم نزل وراءه وجرجره الى بيته بعد أن يكون عبد النبى الخفير قد غط فى نوم عميق وعلا شخيره الى الفضاء ، وبينما هو يضع هذه الفكرة اللذيذة على مهل ، لمحه عبد النبى ولم يهمس بشىء فهو يريد أن يمسكه بداخل الزريبة كالفأر الذى دخل المصيدة ، وركز على ركبتيه وانتفض قلبه يرتعش وجهز البندقية .. وانتظر .. كمن كان يشبع هواية فى نفسه .. هواية قديمة احبها .. ويستعيد ذكرياته أيام زمان حين عين بالخفر وضبط سلامة ابو خليل متلبسا بجناية قتل ، وبدأ يسترجع التعليمات بصوت خفيض جدا .. اذا كنت امام لص فلا تضرب فى المليان بل اضرب عيارا للارهاب فى الهواء .. ثم عيارا فى الساق .. واضرب بعيدا عن التليفونات والأسلاك

الكهربائية والأماكن العمومية .. ولا تجعل اللص يفر هاربا والا كان عقابك شديدا .

كان عبد النبى يسترجع هذه التعليمات فى اللحظات المهمة من حياته كخفير وصاحب ضبط وربط .. وكان يتلفت حواليه فلا يجد تليفونات ولا أسلاكا كهربائية ولا يعرف ما هى الأماكن العمومية .. ولكن الذى يحوط الكون من حوله فضاء فسيح وظلام رهيب .. وفى هذه الأثناء كان شحاتة قد قفز كالعرسة الى أعلى الجدار وما زال عبد النبى يعيد التعليمات والأوامر ليطبقها بحذافيرها .. وانحدر شحاتة الى داخل الزريبة وبدأ يتحسس المكان ولكنه داس على ذيل الكلب المستغرق فى نوم لذيذ ، فتمزق السكون وارسل الكلب نباحا عاليا متوهجا .. واستيقظ النائمون وارتفعت الأصوات من كل مكان .. حرامى ياولاد .. حرامى ياولاد .

وما كان القادمون يسألون .. فهم يسمعون من بعيد حشرجة عالية تتصاعد الى عنان السماء :

ـ حرامى ياولاد .

وارتفعت أصوات تتلهف على عبد النبى .. واين كان ساعة الحادث . واشعلت اكثر من فلاحة الساروخ وجاءت تتأمل اللص ، ولم يكن غريبا عنهم ، انه شحاتة بن زايد ، رآه الناس وقد احمر وجهه وتعرت رأسه وتمزق جلبابه ، راوه وقد ماتت اصابع الحاج الفولى على رقبته ، وتقززت نفوسهم حينما بصق فى وجهه ، ولم يستطيعوا ان يروا الحاج وهو يخلع بلفته وينزل بها على أم رأسه ، وتقدم اكثر من رجل يطلب العفو والسماح ، ولكن الحاج الفولى تشبث وتحمس ومسك شاربه وحلف الايمان

المغلظة انه لن يتركه الا فى المركز ، وارتفعت الأصوات مرة أخرى تسال عن عبد النبى وكان قد وصل واسنانه تصطك مختضنا حذاءه الميرى ولعابه يسـيل من فمه ومازال يكرر التعليمات والأوامر ، ودهش الناس حينما أصر ان يضرب عيارا فى الهواء . وآخر فى ساق شحاتة ابن الحرام وان يكون هذا بعيدا عن التليفونات و .. و .. وتقدم واحد طويل وعريض يهدىء خاطره وينزع منه البندقية .. ولم يسكت عبد النبى بل اخذ يهذى ويقسم انه راى شحاتة وهو يصعد الجدار ويقفز الى الزريبة .. وسرى همس سكتت له الألسن واندست الهمهمات تتدحرج من فم الى فم .. العمدة جاى .. العمدة جاى .. وسكتت الضجة.. وارتفع صوت العمدة وكان لايزال به أثر النوم :

ـ بس يا واد انت وهو :

وقال موجها الكلام للحاج الفولى :

ـ سيبه يا حاج .

وتلكأ الحاج الفولى قبل أن يتأثىء :

ـ بث .. بث انا عاوز أثلمه للمركز .. يا حضرة العمدة .

ورد العمدة فى ثقة واتزان :

ـ مش ولابد .. نفضها من هنا أفضل .. نعمل مجلس أحسن وأسرع .

وتفرق الجمع ، وعلت حسرات النساء تولول على حظ شحاتة العاثر ، ومشت مع الراحلين موجات من الاستنكار وموجات من الاعجاب ايضا .. واستنكر بعضهم هذا العمل الفاضح من ولد لا يعرف مقداره ، ولا مقدار أهله الصالحين .. واستنكر آخرون هذا العمل لأنه سيجعلهم يسيرون فى القرى

المجاورة ، ووجوههم فى الأرض .. فكيف يسرق شحاتة أهل قريتـه .. واعجب آخرون بشجاعة شحاتـة وابتدأ يرتفع فى نظرهم .. انه أصبح ابن ليل وجدع .. بل تحمس أحدهم ووصفه بأنه ابن جنية !

وزجع آخرون وهم يضحكون من الهزة التى عملها شحاتة .. واعجبهم هـذا النشاط الذى يسرى بالقرية وما كان ليسرى فيها لولا شحتة العتر !

ونام الفلاحون بعد ما شعروا بلذة ما بعدها لذة .. وقد استيقظوا فى هـذه الساعة من الليل ، وصمم الشباب أن يستمروا الى الصـباح .. فقد طار النوم من عيونهم وبدءوا يلعبون .. ويزعقون .. ويجرون فى ضوء القمر وكان قد بدأ ينير الدنيـا المظلمة العابسة ، وأشرقت الشمس ، وابتدأ الأطفـال يحكون قصة الحرامى ، ويحلو لهم ان يذهبوا الى بيت شحاتة نفسـه ليروه ، انهم لا يتصـورونه انسانا .. رغم انهم يرونه كل يوم . يتصورونه عملاقا له أصابع حديدية .. وعينان تشعان بوهج نارى أحمر .

وانحدرت الشمس فى الفضـاء الرحيب وانعقد المجلس ، وتصدره العمدة .. وراح الحكام يفدون فى ملابسهم الفضفاضة ووجوههم التى كاللبن الحليب ! .. لم يكن هؤلاء الحكام ككل من فى القرية .. بل كان لهم سطوة وجبروت . وما كان أحد يستطيع ان يمر أمامهم وهو يركب دابة .. كان هؤلاء ممن يمتلكون الطين وما كان احد يثنى على كلمتهم فهي الأولى والأخيرة .. وخلع كل منهم حذاءه وتربع ودارت القهوة على الموجودين .. وأرتشف العمدة رشفتين وقد احمر وجهه ولم يستطع حبس الكلمات بفمه

فتمتم : الحكاية بسيطة . آنى عاوز انهيها بسرعة ، عندى مشوار فى المركز ..

وارتفعت الابتسامات التقليدية على شفاه الجميع علامة الموافقة .. ولكن العمدة ما كاد يمد ساقه ويحملق فى المكان كأنه يفكر فى أمر عويص حتى عرف الموجودون ما يريد أن يقوله.. فقد قاله فى مناسبات عديدة :

ــ لكن لابد الواد ياخد جزاءه .. لابد يتادب .

وما كاد العمدة يتم هــذه الكلمة حتى شرخ صوت عبد النبى الهواء كأن به مس من الجن .

ــ آنى شفته .. والله شفته .. وهو فوق الحيطة .

وأخذ يحلف بشرف العمدة وشرف الحــاضرين وراس ابيه ورحمة أمه انه راى شحاتة وهو يتسلق الجدار .. ولم يستطع احد ان يسكته أو يثنيه عن زعيقه المزعج ، كان العمدة ينظر اليه شزرا وهو يتوعده بأشد العقاب .. وابتدأ يشرح المسألة ويؤكد انها بسيطة ومن رايه الا يكبرها لئلا تكبر فى راس الولد شحاتــة ويتعود على السرقة ، وفى هــذه الأثناء كان شحاتة يقف على أطراف قدميه ويضــع يديه على ساقيه فى ادب وخجل ، كان يفكر فى مصيره ، وهو يعرف أن العمدة قاس ، وأن الشيخ الفولى يصلى ويصوم ولكن يده لا تفلت المليم الواحد .. وفكر فى أن يتكلم ، ولكنــه احتقر نفسه وفضل أن يسكت ، ولمعت عينــاه ببريق قوى ، ودارت القهوة مرة اخرى ، واخرج العمدة ساعته الكبيرة ونظر فيها وهو يستحث نفسه على القيــام ومد ســاقه وقــال :

ـ الواد شحاتة يدفع خمسة جنيه ..

ثم صمت قليـلا :

ـ ولا ايه رايكم يا رجاله .. تكلموا ..

ولم يتكلم واحد منهم .. بل اسهموا كانهم يشتركون فى الموافقة وانطلقت حناجرهم البالية فى آن واحد :

ـ كلام العمدة ماشى ..

وانطلق صوت الحاج الفولى أخيرا يؤمن على هذا الحكم .. ويبدو أنه لم يعجبـه .. ولكن شحاتة شوح بيده فى الهواء وقد تخلى عن خجله وادبه وراح يزعق مرات عديدة :

ـ منين أجيب الخمســة جنيــه يا ناس .. منين اجيبهم يا ناس .

ولم يستطع احد ان يجيبه ، فقد هب العمدة من مجلســه وهم يتسمون ويتبادلون النكات .. وحينمـا تركوا المكان كان عبد النبى الخفير يهرول وقد سابت قدماه فقد أشار له العمدة بطرف اصبعه ليتبعه الى الدوار ..

الطريقـة القديمة

كنا فى بيتنا قد أوشكنا أن نتشـابك ، ويقف كل منا فى جانب انا وامى واختى واخى وبقية الأفراد ، كانت الألسن تحتدم وتتراشق مدافعة عن راى صاحبها ، والأيدى تتطوح وتشـوح بحدة تكاد لا تنطفىء ، ولم يكن نصيبى من المعركة سهلا ولا صغيرا فقد كنت أنا بطلها ، فالموضـوع موضوعى ، والفرح فرحى ، ولو سمحوا لى أن أعبر عن رأيى لوفرت عليهم التعب والزعيق ولتمت الترتيبات فى هدوء ، لكنى لم أستطع وقد هاص بيتنا تماما ، وتاه كلامى المحبوس فى الزحمـة ، وبعد ما علت الأصوات من داخله الى الخـارج كالصواريخ . كانت عائلتى تريد أن تفرح بى كعريس ، يقدم شبكته فى ذلك المساء ، ولم تكن ذاقت الفرح من يوم أن تزوج اخى الأكبر ، بل لقد أترعت الأحزان الفائضـة قلبها ، مات أبى وبعنا أرضنا ،ومرضت أمى ، وتركتنا أختنـا الكبيرة التى تزوجت بالصعيد .

الذى سبب هـذه الأزمة التى ذهبت بعقولنا هو نسيبى المحترم ، فقد تحدث معى على الطريقـة التى سأقدم بها الشبكة

وكانت معلوماتى ضئيلة قاصرة فى هذه الموضــوعات ، ولم يكن عندى أى اعتراض على اقتراحه ، وقــد خمنى بأن عرض على طريقتين ، ثم اختار احداهما وفضلها ، ولم امانع لأننى فى الحقيقة ما كنت اهتم بأى شيء ســوى اعتراف الناس بخطوبتى هــذه ، وليقترح هو ما يشاء ، وسأوافق على طول ، وعلى العين والراس، ومادام قد قبلنى فألف شكر ، فليس من شيء يعرقل الموضــوع وينهيه ، ويعطل سير الحوادث . عرض على نسيبى المبجل طريقتين لتقديم الشبكة : احداهما قديمة والأخرى حديثة ، ولكل منهمــا ميزة ، فالأولى تتم فى الستر وبدون ضوضــاء لا احد يدرى ولا أحد يعلم . أم العريس واخته فقط همــا اللتــان تحضران لتلبسا العروسة الشبكة ، اما البقية حتى العريس نفسه فسيأتى فى اليوم الثانى مع بعض الأقارب ان اراد ، المهم التكتم الشديد ، والحذر والحيطة ، وبشرط الا يختلط الأقارب والأهل والخلان ، ويفلت الأمر فيصبح سلطة ، لا راد لهم ولا رادع ، وتلك طريقة توفر المشقة والجهــد ، وستتعرف العائلتان على بعضهمــا فى المستقبل البعيد .

عرض علي نسيبي هذه الطريقة ، فكدت اصعق واضرب كفا بكف ، لكنني تماسكت وابتسمت ابتسامة مريرة مفككة لم يظهر لها اي أثر على تقاطيع وجهي ، ومع هــذا لم استطع ان اخالفه فقلت له في تخاذل :

ـ اللى تشوفه يمشى ..

وسكت نسيبى كأنه يأخذ موافقتى ويرضينى بعد ما اشعرنى بأن الطريقــة الأولى هى المثلى والصحيحــة ، ولم تكن لى حيلة ابدا ، وقد سكت وهو ينظر الى في شفقة ، ولكنى بحلقت فيه ، فلم يتمالك لسانــه وراح يعرض على الطريقــة الحديثــة وهي

المشهورة ، أن يحضر اهل العريس واقاربه ، امه واخوته ، وخاله مثلا او عمه ، وسيأتى هو طبعا فى هـذه الحالة وساكون موجودا انا فى ساعة تقديم الشبكة . انتهى نسيبى من هـذا العرض الشيق الطريف وانا لا املك الا الموافقة على القديمة فقد احسست انه يريدها ، وكنت أتجمل كل شىء فى سبيل خطيبتى ، فما دمنا متفاهمين ويحب كل منا الآخر فلتكن اى طريقة ، المهم أن عائلتى صلبت راسها ، انا اعرض عليهم الطريقة القديمة وهم يصرون على الحديثـة ، وحـدث الاشـكال الضخم الذى لا منفـذ منه ولا خلاص ، جلست امى لا تبدى رايها لأنها تعلم انها ذاهبـة فى كلتا الحالتين ، وايضا سكتت أختى ، لكن اخى الكبير الثائر ، المفوار ، هو الذى ثار وهاج وماج ، فكيف لا يذهب وهو الكبير الذى يحوط العائلة بعنايتـه ورعايته وحاولت ان اهـدىء من خواطره ، لكنى فشلت خاصة بعد ما اقسم انه ان لم يذهب مع أختي وامى فليست له اية صلة بزواجى ، وحاولت ان اهمس له مرات :

ـ انا نفسى مش رايح يا محمود .. بكرة نروح انا وانت يا اخى ..

ورانت على قلبى غصة مكلومة ، متحسرة عندما توتر الجو هكذا وبدون ان أستطيع تخفيفه ، وضربت الموضوع فى راسى جيدا ، وضربتنى الخواطر القويـة ، صحيح لمـاذا لا يذهب معى أخى الأكبر بل لمـاذا لا تذهب زوجته وأولاده الصغار ، وحالا بحمـاس لا ادرى سببه اصـدرت الأوامر وكلى فرح وبهجة ، ولكنى كنت أعلى انى مقدم على حماقة كبيرة سبحان من يخلصنى منها ، وحالا وجدت الهدوء قد ساد ، وراحة البال قد دغدغت العـائلة ، والاشراقة السعيدة بعد التجهم الكئيب قد علت الوجوه ، وتحركت

الأرجل تبحث عن الأحذية العالية ، وجلست أمى تنفض البالطو الأسود العتيق ، وطار الأطفال فى البيت كالعصافير ونزلت أختى من على السلم ، وما كانت تصدق أنها ستذهب ، ولفت الجميع فرحة ما بعدها فرحة ، فرحة كفرحة العيد أو احسن كنت الاحظ ان عائلتى تريد أن تفرح وما عندها الوسائل لهذا الفرح ، فقد ظهر بالطو أمى الأسود عليها واسعا بعد مرضها ، وبان حذاء أختى الكبيرة فى قدمها ضيقا ، ما كان مستعدا منا الا أخى الذى فاحت رائحة العطر من ملابسه ، وأشرت الا نأخذ العيال ، ونضحك عليهم بأن الفرح بكره مثلا ، لكنى لاحظت التكشيرة التى رفعتها زوجة أخى ، فسكت على الفور ، ما كنت اصدق ان ينتهى الموضوع ، وخرج الموكب العظيم ، المهيب ، المتردد ، يلبس ملابسه كلشن كان وقبل أن نبرح الباب كان العيال يتعثرون فى أرجلنا كالكتاكيت ، فأسكتهم بقرش بمبون ، لكنهم كانوا يصرخون ويضربون الأرض بأرجلهم الصغيرة ونحن نبتعد شيئا فشيئا ، وسألت ونحن فى الطريق :

ــ هيه الشبكة مع مين ؟ ..

فردت أمى وهى تقترب منى فى حنان :

ــ معاى يابنى فى الشنطة اهه .. لفاها فى المنديل ...

وفجأة وبدون أن احسب حسابا لتصرفاتى ، ناديت على تاكسى كان يمرق من أمامنا كالنحلة ، ووقف التاكسى وركبنا وأنا أهتف للسائق :

ــ على شارع ... يا ريس ...

وتلوى التاكسى فى الشوارع ونحن معه ، مبسوطين جدا ، وابتدانا نتكلم وندردش ونحكى ، والعائلة فى واد وأنا فى واد آخر

فكيف أدخل بيت نسيبى وقد غيرت الطريقة ، وقلبت النظام ، وبهدلت الدنيا ؛ وقلت فى سرى والخوف مع الجراة يستوليان على داخلى :

ـ ايه اللى حيحصل .. طريقة قديمة .. حديثة .. كله ماشى ..

وفى الشارع ركنت العربة بجوار البيت تماما ، وطلعنا جميعا . وبالصدفة كان نسيبى يغادر البيت ، فقد كان اتفاقنا الا يحضر أحد ولا حتى انا ، لا يحضر الا الحريم ، وسيحضر الرجال فى اليوم التالى للتهنئة فقط ، وتقابلنا ، وكان يبدو عاديا لا شىء يقلقه ، لكن عينه حين وقعت علينا هكذا تصلبت أقدامه على السلم ، وفى لحظة مباغتة مد يده الى كل منا يصافحه . وتخفيفا للموقف هتفت انا أقدم له العائلة ، وبصرف النظر عن مصيرى :

ـ اختى صفية جت من الصعيد امبارح .. أخويا .. زوجة أخويا ..

وادار نسيبى ظهره راجعا معنا ، وانقلبت الخطة فى لحظة خاطفة ، تم كل هذا امامى ، وانا ليس هنا ، لا اصدق ما يدور حولى . وفى داخل البيت جلسنا ، ولم تكن الكراسى كافية ، لأنه لم يكن هناك استعداد طبعا ، فتحشرنا ، الذى ساعد الكنبة الطويلة المستطيلة التى رحبت بأكبر عدد منا . لم يكن هناك مناقشة ولا تفاهم ، كان كل شىء يمشى كيفما اتفق وحسب الظروف ، وسكتنا لحظات ونسيبى وحماتى يرحبان بنا ، ويمران علينا بالشربات . وعلى سهوة فقعت أمى زغرودة عالية ، حياتى ، هزت الأركان ، ورايتها تحتضننى بسذاجة الكبار ، الطيبين :

ـ مبروك يابنى .. عقبال أولادك .

وكان أخى يبحلق فى محتويـات البيت ، ولم اكن أعـرف ما الذى يشغله عنا ، وهو الذى كان فى منتهى الحماس . وفى رقة تهادت خطيبتى بوجهها الحبيب الذى كان يلازمنى أيامى ولحظاتى، خرجت « منى » وقد لاحظت قلب الخطة ، وابتسمت ابتسامة حلوة رائعة انتزعت كل متاعبى طيلة اليوم الشاق . وكانت تعرف راسى جيدا فاذا ما صممت على أمر فعلته ، وليكن ما يكون ، ولقد تناقشنا معا ، أنا وهى فى تقديم الشبكة ، ولكننا لم نصل الى حل برغم الضيق الذى كان يخالجنا من الطريقـة القديمة ، لكننا كنا نسكت فقد ألبسنا بعضنا الدبل عنـدما ذهبنـا معـا لنشتريها ثم خلعناها مؤقتا لنلبسها أمامهم ، وجلست « منى » بجوارى كالقطة الأليفة ، ولم أتمالك نفسى فكنت فى بعض اللحظات امثل دور العريس الجـاد ، المتزن وفى لحظات أخرى وبمجرد أن ارفع عينى الى وجه عروستى الحبيبة تبهت أمامى كل الصور ، واستغرق فى صور أخرى مرت بنا نحن الاثنين ، كيف اتفقنا على الزواج ، وكيف اختلط كل منا بالآخر ، وكيف تقاربت أمزجتنا بعد عشرة أيام ، وكيف اشتركنـا معا فى عمـل واحد ، تتراءى كل هذه الصور امامى وانا اذكر صورة واحدة فقط ، تزهو وتشرق دائما ، فحين تعرفت بزميلتى « منى » فى العمل ، كنت أصحبها الى قرب بيتها ، وازدادت صلاتنا محبة ومودة احببنا بعضنا ، وشارك كل منا الآخر حياته ، فى أحزانه وافراحه اذكر صـورة واحدة فى بدء علاقتى بحبيبتى الساذجة « منى » فحين سألتنى عن مرتبى أحسست بصـدقها لمشاركتى حياتى ، وحين شاركتنى عواطفى الفياضـة نحوها احسست بنجاحى فى حبى ، اذكر اننى كنت اصطحبها فى امسية شاتيـة ، ونزل علينـا المطر ونحن فى الشارع فانحرفنا نتفادى المياه ، ورفعت حبيبتى على رأسى احدى

الجرائد لتقينى المطر ، ورفعت انا جريدتى أيضـا على راسـها الصغير ، ثم سرنا بعد ما انقشعت موجة الميـاه ويد كل منا فى يد الآخر ، وهمست فى اذنها :

ــ احنا لازم نتخطب لبعض يا منى .. احنا مستنيين ايه .

واومأت لى « منى » براسها موافقة وهى تقول :

ــ بس قدام شوية .

تذكرت ليلة الشتاء هذه وكلمة الشرف التى اتفقنا عليها ، وتطلعت الى نسيبى وهو يرمقنى مندهشا لأنى لم أنفذ تعليماته بالنسبة للطريقة القديمة ، فلم يكن بد من حضور أخى ولا أختى الصغيرة ولا زوجة اخى ، كان يكفى أمى واختى الكبيرة فقط ، وفى غمرة هذه الهيصة ، امسكت أصابع « منى » ووضعت الدبلة فى اصبع يدها اليمنى ، والاسورة فى يدها اليسرى ، واحتويتها كلها فى عواطفى وانا وعائلتى نغادر المكان عائدين الى بيتنا ونسيبى يضغط على يدى مودعا وقـد ارتفعت على شـفتيه ابتسامـة مستسلمة طيبة .

الدرملى

ما كادت العربة تسترجع انفاسها من المشوار الطويل الذى سلكته ، حتى نهضت من جديد تعتزم مواصلة الرحلة الشاقة ، كانت قد ركنت فى ميدان العتبة لتستريح قليلا ولتثبت حضورها وقيامها وحالتها . ما كادت تستكن حتى نادى السائق على الكمسارى وهو يرتشف آخر رشفات الشاى من كوبه بيده اليسرى بينما احتضن الدركسيون بذراعه اليمنى :

ــ ياللا يا زكى .. احسن ميعادنا سبعة وتلاتة تمام .

وقفز زكى فى العربة وهو يكمل ساندوتشا فى يده أيضا ، ماسحا كفه فى شنبه ؛ كانت العربة قد لفت طريقها هذا عشرات المرات وكما لو كانت تلعب لعبة الأطفال المشهورة « دوخينى يا لمونة » وهى تستعد الآن لتستقبل الراكبين لتوصلهم فى طريقها من العتبة الى امبابة وبالعكس . ولو سارت كعادتها ، وطيبتها ككل مرة لما حدث شىء . ستخرج من ميدان العتبة مخترقة شارع فؤاد على أبو العلا على الزمالك على امبابة وأخيرا تلفظ

انفاسها فى مدينـة العمـال ثم سرعان ما تعتزم العودة حالا .
ولو ازدحمت براكبيها وحدثت المشادات العادية بين الراكبين على السـلم والكمسـارى ووصل الأمر الى الزعيق ما حدث شىء أيضا . فمن الممكن أن ينتهى الموضوع بكلمة أو كلمتين يقولهما أولاد الحلال . ولو هوت عجلة أمامية من عجل العربة فركنت على جانب وارسـلت الشركة لترسـل لها العون ونزل الراكبون ليلحقـوا بعربة أخرى لهان الأمر أيضا .

الذى حدث فى هذا الدور شىء غريب حقا مهد له السكون الذى سبقه ، ففى احدى الاشارات كان قد قفز على السلم شاب نحيف ، يلبس جلبابا مخططا ، يضغط على أسنانه فى صـمت ، ويطوح براسه فى كثير من اللامبالاة وعدم الاهتمام . فى مرات عديدة يحدث مثلا أن يعرف السائق احد الراكبين فيلقى اليه بالتحية ، فيردها وهو ملخوم فى القيادة ، لكن هـذا الشاب كان وبمجرد أن وضع قدمه على سلم العربة قد هتف فى سخرية يشوبها المرح الظريف :

ــ مساء التماسى .

ولم يرد عليه السائق بحماس يذكر فقد ضغط رده فى نظرة مستفسرة ليعرف الحكاية .. وكرر الشاب أمسياته :

ــ يا سيدى بنمسى . احنا مش عجبين ولا ايه .

وفى سرعة دلف الى الدرجة الثانيـة وهو يلقى بجسـده المكدود على أحد الكراسى منتزعا صوته المشروخ :

ــ يا سلام يا ولاد .

وفى كل محطة كانت العربـة تستضيف ركابا جددا . طلع

شيخ معمم ، وبنتان تضحكان بكركعة ، وامراة بأولادها الثلاثة وافندى معتبر ، وناس آخرون .

وقرب ابو العلا شم الركاب رائحة تفوح ، لم تكن غريبة عليهم ، ربما جربها معظمهم ، فى الليل او فى النهار ، فى المناسبات ، او فى غير المناسبات ، ذاقوها حين تتأزم بهم الحيلة وتظلم الدنيا فى وجوههم ، فلا يجدون غير الهرب . شم الناس الرائحة فهمس احدهم فى خبث وتريقة :

ـ سكران .

وانتقلت الكلمة تتدحرج على شفاه الجميع :

ـ سكران .. سكران .. سكران .

وسمع الشاب هذه الكلمات فهمس فى سره :

ـ انا الدرمللى على سن ورمح .. سكران .. سكران وايه يعنى .

وسكت فربما سكتوا هم ايضا فتمر الحكاية وينزل فى امان الله وستره . جاءه الكمسارى فأعطاه الأجرة . واحتك بأحد الراكبين فاعتذر له ليتفادى الخناق . كان يبدو خائفا تطن فى راسه فكرة ان يبهدله احد ، وصهين عن اشياء يمكن أن يحدث من ورائها جر شكل . صهين عن تعليق لأحد الراكبين :

ـ ياخوى انا مش فاهم .. الناس اللى بتسكر دول فاهمين ايه . وييجو كمان يتحشروا فى الأتوبيسات .

كانت رأس الدرمللى توش كما لو كان بها خلية نحل فى منتهى النشاط ، تتصارع فيها أفكار نشطة يقظانة . كل حياته معروضة امامه وهو مسرور منتش لهذا الاستعراض الهادىء

رغم انه يتعبه ويضنيه . فمناه ان يزعق ويضرب ويهرج ويرمى بنفسه من نافذة العربة ويفعل اشياء لم يفعلها الملك فى زمانه .. ورفع عينيه فى الواقفين حوله .. ونكسها بعد ما أحس أن العيون متجهة له .. وضحك الدرمللى دون أن يعرف لضحكه سببا ، لماذا يضحك وعلى أى شىء ؟ طلعت فى راسه أن يضحك والسلام .. فضحك وساد جو من السكون تبعه لحظات من الاستياء والتمتمات . وسرعان ما انفرجت الأزمة حين حول الدرمللى نظره الى افندى عجوز زاعقا :

ــ آل لابس طربوش آل . حد بيلبس طرابيش الأيام دى يا اخى .. دا انت انتيكه اوى .

وبهت الناس .. ففى اعماقهم تتحفز رغباتهم بالضحك ، لكنهم وعلامة على الاحترام والأدب والذوق يريدون أن يردوا الاهانة على الأفندى ، فحقيقة لا يلبس الأفندية طرابيش وكلمة فى كلمة من فم الدرمللى لم يتمالكوا انفسهم فضحكوا ، واحس الدرمللى بشىء صغير يسرى فى أعماقه يعطيه الثقة والتمادى فاسترسل :

ــ ما تنطق يافندى .. لابس طربوش ليه .. هو انت تركى . ؟ انا مش فاهم الأيام دى محدش عارف يكلم حد ليه كل واحد فارد بوزه شبرين قدامه .

ويبدو أن الدرمللى كان القى بكلماته الأخيرة ليخفف من حدة كلماته الأولى . وليستعطف الناس ، وفعلا خفت موجة الضحك ، وقفلت الأفواه المفتوحة . حدث كل هذا فى الدرجة الثانية بينما صمت ركاب الدرجة الأولى مكتفين بابداء استيائهم بتأففاتهم

وتنعساتهم المتضـايقة . وانفجر الدرملى فجـأة فى البـكاء . وتعجب الناس فراح كل أثر للضحك . كان يترنم بأغنيـة من اغانى الغرام ويحكى قصته مع خديجة :

ـ كده يا خديجـة .. تسيبينى كده يا خديجـة .. مش عيب .. هو انا عملت حاجة .. آه يا خديجة ياختى .. اشوفك فين وأجيبك منين .

وبحلق الدرملى فى لا شىء وهو يتحسر :

ـ آه يا خديجة يا سبب شقاى .

وغرق الراكبون فى الصمت . بينما احست بنات الدرجة الأولى بحرج شديد . فقد كانت احداهن تشهق فى رافة هادئة :

ـ مسـكين .

وقام الدرملى يجرى وسط العربة مصطدما بالراكبين هاتفا فيهم فى استعطاف :

ـ سيبونى خلونى اجرى فى العربية ، والنبى تسيبونى ..

وقام من على الكرسى ، وتنطط وامسك بيده فى السقف ، وتمكن من حفظ توازنه ، فأكد رغبته الخائفة المذعورة .

ـ والله لازم أجرى .. ايه يعنى انتوا ايه يعنى .. عملين جدعـان ؟

وجرى الدرملى فى العربة ، والدموع تتقاطر من عينيـه حنونة باردة عزيزة تريد أن تخفف من ضيقه ، وجسـده المكدود يتطوح فى ضعف وخور ، وارتفع صوته باكيا متشنجا . منهارا :

ـ اعمل ايه بس يا ناس .

وقرب امبابة كان الراكبون قد تعرفوا بالدرمللى ، يضحكون عليه ويعطفون على مأساة حبه . ولو كان أى سكران آخر لأنزلوه حالا ، لكنــه هو بظرفه وخفة دمه واستنارته العجيبة استحوذ على اهتمامهم ، فلم يستطع أحد أن يمســه ولو بكلمة .

كان يغنى بصــوته الأجش الردىء فيحس المنكوبون معــه بحياتهم ومآسيهم الخاصــة . وكان يضحك فيضحك معه الناس، ويبكى فتهتز الأعمــاق ، فقد كان يبكى من قسوة الحياة وضيقها وعذابهــا ، لو اى ســكران آخر ما تجــاوبت معــه العواطف والأحاسيس بمثل هذه الطريقة .

ومع الضحك والبكاء والجرى والتعليقــات كانت العربــة تنهب مشوارها ، لا تهتم بشىء ســوى ميعادهــا الذى حددته الشركة والرؤساء وكان من الممكن أن ينتهى الموضــوع عند هــذا الحد ، وتصل العربة وينزل الراكبون ويحصل الكمسارى الايراد فى امان .

حقيقة كان دورا ممتعا جدا ، مسليا .. الذى قلب الحكاية وجلب الغم ، سيادة المفتش المفاجىء الذى طلع الى العربة وكله رئاســة وعنطزة وكبرياء فهو الرئيس وفى يده الأمر وفى وجهــه الصرامة والجد ، طلع المفتش والناس يضحكون والدرمللى يغنى ويضحك ويبكى . واخذ العربة من الدرجة الأولى وهو يصطنع الأدب :

ــ تذاكر يا حضرات .

وبمجرد ان التقطت اذنه صوت الدرمللى تقلص فى نفســه وهو يقبض على المنافستو وكأنه لا يهتم بما يدور حوله . وسار يتناول التذكرة من راكب لآخر الى أن وصــل الى الدرمللى :

ـ تذاكر يا اخينا ...

ويحلق فيه الدرملى وهو يبتسم :

ـ ما كانت معاى .. انا عارف راحت فين .. اصلى كنت بجرى فى العربية .

واستشاط المفتش المفاجىء من الغيظ وهو يضرب المسألة فى راسه . كان يحسبه مجرد سكران عادى يستطيع ان يأمره بالنزول فينزل :

ـ طب انزل ياخوى بلاش قرف .. انا عارف خمرة آيه اللى بتشربوها دى .

وفى عناد تصلب الدرملى فى الكرسى ، رافعا بصره الى المفتش قائلا :

ـ انزل..حلوة دى..انزل ايه يا جناب المفتش المحترم..

وتحايل الناس على المفتش أن يتركه ، شاهدين مع الدرملى ان التذكرة كانت معه فعلا الى وقت قريب ، ولكنه لم يقتنع طبعا ـ فالشغل شغل ـ ومهمته البحث عن الأخطاء ، فلماذا يقبض ماهيته ؟ لم يستطع الناس ان يقنعوه ، وبحث الدرملى عن التذكرة فى كل جيوبه وبحلق فى الأرض بذهول ، ولكنه لم يجد شيئا فأراد ان يحولها الى نكتة :

ـ آل مفتش مفاجىء آل .. ايه الفرق بين المفتش والمفتش المفاجىء ؟

وفى وسط الزحمة كان يقف عسكرى يتنمر ويتحفز ، ولاحظ المفتش انه تورط فاستعان بالعسكرى :

ـ امسك يا سيدى البلوة دى .

وتململ العسكرى ، فلم يكن يتصور أن يمســك الدرمللى وقــد كان يضحك معه الى وقت قريب . وهو جـدع غلبـان ومرجل ، لكنه شد القايش وتخلى عن الضحك ، وانقلب يمثل الرزانة ، وكان الدرمللى يتمادى فى استهتاره ومرحه قائلا :

ـ طب مش نازل ...

وقرب مركز امبابة احتدم الموقف ، ووقف الناس مبهوتين فقد قلبت الحكاية بغم ، وانطلقت ألسنتهم تدافع عن الدرمللى وهى تستعطف ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هــذا الحد *لكن الدرمللى ما اراد ان ينهيه ، فقد تشنج بحدة فى هذه المرة* وتصلب وحاول الناس أن يفضوا الموضوع ويتحايلوا عليه نفسه لكنهم ما اسـتطاعوا . طبطبوا عليه ولأجـل خـاطرنا ، والنبى يا درمللى انت عاقل وابن حلال ، لكن راسه ما كانت تلين .

وفجأة وأمام باب المركز هدات العربة ، والعسكرى يمسك الدرمللى من يده فى عطف ، والدرمللى يدق سقف العربة فى عنف والناس ينزلون ليأخذوا عربة أخرى ، وعيونهم الحانية تمتد الى الدرمللى والعسكرى يقبض عليه .

حفنة تراب

كان الطريق موحشا غريبا كئيبا تحوطه أشجار الكازورين العالية الرهيبة . والأرض تكاد تلتهب من الحر الشديد . والذباب يطن فى اصرار وجنون . وثمة غراب يحلق فى السماء على ارتفاع شاهق يزعق بصوته الأشأم الرفيع ، ومياه الترعة على الطريق قد وجمت هى الأخرى وكأنها تبكى وتنتحب من الرهبة التى تشملها . ونهيق حمار أجش خشن يشق المسافات قادما الينا من الحقول البعيدة .. كل الكائنات قد سكنت سكونا حزينا مترعا بالخيبة واليأس والانهيار . كانت الدنيا كلها تتخلص فى عينى فى تلك اللحظات الهامة التعيسة . كان أبى قد مات ، ورجال قريتنا يحملونه على الأعناق فى هذا النعش الأصفر العتيق ، وحين أرجع بذاكرتى الى الوراء لأرى أين شاهدت هذا النعش الخشبى الكئيب .. أتذكر عندما كنا صغارا لم نصبح رجالا بعد .. وتقسم بعضنا فرقا بلعب الاستغماية حول القرية ويختبىء كل منا فى مكان .. فى مرة من هذه المرات اختبأ واحد منا بجوار النعش والغسالة .. وتعجبنا ليلتها من هذا الولد .. فقد

كان النعش والغسالة ملقيان وراء قريتنا لا يقربهما احد ابدا الا حين يموت احد .. وكنا ننسج الأساطير حول من يقترب منهما .. فيأكله العفريت ، أو يطلع له شبح يمزق جسده وينهشه .. وكانت أمى تغير طريقها حين تخرج فى الصباح فلا تسير من وراء القرية بجوارهما ، فلو سارت لكان يوما مشئوما كله هم ونكد .. اما الآن فلم يعد الأمر عجبا ولا شؤما وانما أصبح حقيقة واقعة . فاننى احس الآن بقوة خارقة وانا أحمل ابى على كتفى . بل أحس بفخر واعتزاز لأن أبى مات وخلف وراءه أولادا . واشعر حين أتمسك بساق النعش انى اتمسك بساق ابى او قدمه .. أسير وراءه ورجال قريتنا بهياكلهم الجافة واصواتهم المتعبة يرددون كلمات التوحيد والذكر وهم قانطون تستولى عليهم حمى من التبتل والورع ، تتحشرج حناجرهم فى عزم لا يلين :

ــ لا اله الا الله ... محمد رسول الله ...

وبين الحين والآخر يلحق بنا رجل ليمشى فى الجنازة .. قد يكون فى الحقل او فى بيته .. ولكنه بمجرد ان يسمع ان هناك جنازة .. يجرى الى جلبابه فيلبسه ثم يتعمم ويلحق بالجنازة.. كل الناس يتساوون ولا فرق بينهم فى هذه الحالة ، بل كثيرا ما نشأت المنازعات بيننا فى القرية..بين أبى وبين أحد الفلاحين.. ولكنى الآن اشاهد كل الناس .. الذين كانوا يحبون ابى والذين كانوا يكرهونه . الذين كانوا يضايقونه فى كل وقت .. والذين كانوا يأتنسون بمجلسه الطيب .. اشاهد عم عليوة أبو ابراهيم، وعكر سالم ، ومحمد أبو شحاتة ، وسليمان ابو الخير وناسا آخرين كثيرين اشاهدهم وقد لسعت الرمال الملتهبة اقدامهم فلا يتأوهون، فهم فى تماسك تام تتلاقى أرواحهم فى ذهول عجيب ، انهم ما زالوا يذكرون أبى فى جلسته تحت التوتة فى كل عصرية فيلتمون حوله ،

وهو الوحيد الذى يعرف القراءة والكتابة ويكتب لهم الايجارات والايصالات والخطابات الخاصة .

كان يجلس فى وسطهم فى كل عصر تحت التوتة على الترعة ويقرأ لهم الأخبار : هتلر دخل تشـ ... تشكفولاتشيكوسلافيـا يا ولاد ... دا النهاردة بيهدد بولندا ...

ومات أبى . وها هم يحملون نعشه على أعناقهم . فمن بعده سيقرأ لهم الجرنال ؟ ومن بعده سيكتب الخطابات ؟

كان الطريق الى القبور طويلا وملتويا ينحدر الى أسفل ، ثم سرعان ما يرتفع الى أعلى ، والشمس فوقنـا تسقط غضبها ونقمتها ، والأرض من تحتنا تلهب أقدامنـا . والغبار فى وجوهنا يقذفنا بالقذى على الدوام . ولا شيء يمكن ان يفكر فيه الانسان الا الله .. والآخرة والتوبة والحساب واليوم الآخر ، ورغم طول الطريق وعنائه ـ فقد أصر الجميع على المشى خاصـة الكبار منهم ، فلم أكن أدرى من أين جاءوا بقوتهم هـذه .. فكلما كلت أقدامهم تخلفوا قليلا عن الجنـازة ثم سرعان ما يلحقون بنا وقلوبهم تكاد تقف فى صـدورهم .. ومع هذا يصرون على السـير .. فمن يعرف .. فاليوم مات محمود افندى وغدا من يدرى ربما واحد منهم . كان كل منهم يفكر هكذا .. فالدنيـا فانية ، ولا شيء يرجى منها الا التقوى وكلمـة المعروف والكسب الحلال .. كان الرجال يلهثون ويكادون يفقدون أنفاسهم من وطأة الحر وسـوء الطريق ، يصرون على تأدية واجب الحيـاة . يرتلون آيات التوحيد والصلاة ويستغفرون الله ويتوبون اليه . وكنت كلمـا تطلعت الى وجوههم تعترينى الدهشـة ، فليس هنـاك منفذ لكلمة ولا حتى لحرف واحد .. كلهم مشغولون فى الجرى والدعاء وكأن وراءهم سوطا طويلا يرهب ابدانهم ، ولم أكن أستطيع فى تلك اللحظات ان أبكى ، فقد جفت الدموع فى عينى واستولى على الذهول المفاجيء الكئيب

الذى لا اعرف متى حط على .. كنت أريد أن أبكى واعتصر نفسى فربما ارتاحت نفسى بعض الشيء ولكنى لم أستطع .. لم اكن اصدق ان ابى قد مات وانتهى ، وانى اشيع جنازته الآن وسط هؤلاء الرجال .. كانت صورته لا تزال نابضة حية لاصقة فى روحى ودمى .. لم اصبح ذكرى أو مجرد شيء مضى .. كان هو بدمه وروحة .. وطوله وعرضـــه يقف امامى واكلمه واضحك معه ويربت على كتفى ويســـألنى عن أمى وعن اخواتى .. كان يربض امامى كالعملاق ، ليس ميتا وليس محمولا فى هـــذا النعش الأصفر الباهت .. فما زلت أذكر مجلســـه بالأمس تحت التوتة وهو يأمرنى أن احضر له القلة ليشرب الجالسون .. وما زالت نظرته تشرق امامى فى حب غامر وهو يفتخر به امام اصدقائه :

ـ محمد ده لازم اطلعه دكتور ولا مهنـــدس دا واد زكى وكويس بس ربنا يحيينى لمـــا أربيه .

ما زلت أتصوره وهو فى بيتنا فى الليل يرسلنى الى الحاجة نبوية لأشترى له علبة سجاير « ونجز » وبقرش حلاوة طحينية وبقرش قرفة ، ثم يجلس ليأكل الحلاوة ثم يشرب القرفة و ... واخيرا يمسك السيجارة بيده ، ويبدأ فى تدخينهـــا على مهـــل وروية . ان ابى لم يكمل سيجارة واحدة فى حياته ، كان فى كل مرة يدخن ثلاثة ارباعها ثم يعطينى الربع الباقى .. وكنت صغيرا والدخان يلســـع حلقى وحنجرتى ويخـــرج من انفى صدفـــة ، فأظل اكح واعطس .. ومع ذلك فقد كان ابى يصر على اعطـــائى ربع السيجارة ويهتف فى أمى حين تعترض :

ـ ياستى كل واحد برزقه بكره يتوظف ويكسب ويشرب سجـــاير ويهيص .. يعنى انتى حيلتـــك ايه عشان تمنعى عنه السجاير كمان ...

وكبرت واصبحت موظفا ، وما زال ابى يعطينى بقية السيجارة بالأمس لم أكن موجودا بالمنزل وسأل عنى أبى فلم يجدنى فأطفأ السيجارة وادخر ربعها الى حين حضورى .. ولكنه مات .. وذهبت أنا الى فراشه .. لاحظت أشياء كثيرة ، البطانيتين القديمتين اللتين يستدفىء بهما ، والمرتبة التى يفترشها على الأرض بلا سرير وبدون تكلف ولا ملاية .. وجرنالين قديمين بينهما خطابان مكتوبان بالخط الرقعة الأنيق .. وعصاته الغليظة أم عكفة مبززة والحديدة الأخيرة فى طرفها من اسفل والشمسية الراقدة على الجدار وكأنها فى انتظاره حين يفتحها فى الصباح فيصل الى الحقل ليلاحظ الأنفار .. وحذاءه الأصفر ذا الرقبة الطويلة . وربع السيجارة الخالدة الذى وجدته فى علبه السجاير الـ « ونجز » حين فتحتها .

ما زالت مشاكسات ابى مع امى ماثلة أمامى كالعيان . فمنذ اسبوع واحد فقط رايت ابى قادما من عند التوتة ومعه رجلان وعندما التقى بأمى هتف فيها بسرعة مخطوفة :

ـ ياللا يا وليه حضرى العشا .

ولكن امى تغافلت وكأنها لم تسمع وزعقت فى وجهه :

ـ عشا ايه يا راجل انت !

وهنا نشبت الخناقة المعتادة . فقد كان أبى فى معظم الأوقات لا يعود من عند التوتة قرب المغرب الا ومعه نفران أو ثلاثة فيتعشى معهم . اتذكر هـذه الخناقة وأبى يهمس فى اذن امى بحنان وحب ليهدئها :

ـ يا ولية مش كده .. اى حاجـة .. لقمة ببصلة تكفى .

بيضتين ، حتة جبنة قديمة ، اى حاجة ، أصلهم دول مش من هنا ، دول من عزبة برادة .

استعيد كل هذه الصور وانا مذهول ، اريد أن أبكى ولا تطاوعنى عيناى .. كان الحدث أكبر من ان ابكى من اجله ، أو أن أحاول ان أبكى .. فقد عزت الدموع وعز الألم ، انما شملتنى حسرة كبيرة لفت كيانى كله ، واعترانى جمود غريب لا أدرى سببه . وفى وسط الناس والغراب الذى كان يحوم فى وسط السماء قد هبط قريبا منا جدا .. واقدامنا جميعا قد استسلمت للسعة الأرض ، ورءوسنا لوهج الشمس ، وحناجرنا تردد فى آلية تامة : « لا اله الا الله محمد رسول الله ». فى وسط هذا الجو كنا نقترب من القبور ، وثمة بوادر جديدة ابتدأنا نلاحظها ، فقد تخلف منا بعض الرجال الذين لم يستطيعوا أن يواصلوا الرحلة الشاقة وآخرون قد كفوا عن الترديد ، ففتحوا حلوقهم ثم صمتوا تماما . وانحدر الطريق بنا ناحية حقل للذرة ، واستنشقنا أنفاسنا المرهقة .. فقد اعطانا هذا الحقل الأمل الأخضر . كانت هناك بعض النسمات التى هبت على وجوهنا ، وقناة صغيرة من المياه .

أوقفنا ركبنا ، ثم نزل معظمنا ليشرب ويستشهد ويحمد الله على كرمه ، وبعد مسافة قصيرة طاولت عيوننا الجزيرة الفسيحة والأرجاء ، كان الشوك يهرى أقدامنا ، والهواء الجاف يلفح وجوهنا ، ومياه السراب نشاهدها عن بعد ، وطيور الجزيرة قد حامت فوق رءوسنا وكأنها تستقبلنا فى حزن وأسى ، ونبات بنت العنزة تهرسه أقدامنا فنحس بلذة كبيرة للمياه التى تنفجر منه . ودقات ماكينة الطحين تصلنا وهى تئن وتستغيث ، وليس ثمة انس ولا جان فى هذا المكان الخاوى ، سوى أسراب الناموس

البرى الذى ينتشر فى حلقات .. حلقات .. وقبور الموتى راقدة رقادها الأخير الأبدى فى استكانة ، ودعة ، لا يزعجها شيء من أمور الدنيا ، فكل أوقاتها سواء . ليلها كنهارها . ظلامها كضوئها لا مشاكل ولا حركة ولا اهتمام . تنقلب قريتنا من أولها الى آخرها وكأنها ليست هنا . يولد الأطفال ثم يكبرون ويتزوجون وينجبون وقبور قريتنا لا تحس ولا تعى ، يزرع الفلاحون حقولهم وينمو النبات ثم يكبر ويحصد .. وهكذا عشرات المرات وقبور قريتنا ليست هنا .. ساكتة كالتمثال الأبدى الجامد الذى يبثنا اليأس وعدم الثقة على الدوام .. فمهما ولد الأطفال وكبروا فمصيرهم الى الموت . ومهما زرع الفلاحون وكبر الزرع فمصيره الى الزوال أيضا .

كانت انظارنا تتجه الى قبر معين قد أعده الحفار الذى كان فى انتظارنا هناك .. وفى ترفق بدأت أصوات الرجال الخشنة الرتيبة تنخفض فى الدعاء والتراتيل . وبدا على الجمع الكبير وجوم ما بعده وجوم .. وانزلوا نعش أبى وفى حنان حملوه وهو فى كسوته البيضاء الأخيرة ثم نزل اثنان منهم معه الى القبر ووسدا رأسه حفنة من الرمال ، ورأيت أبى مسجى بهذه الطريقة ، فلم أتمالك نفسى فانحرفت بعينى بعيدا كيلا أرى ولكنى لم أستطع . فأعدت بصرى فوجدتهم يهيلون التراب .. وارتعش كيانى .. وانجرفت الدموع من عينى كالبحر الغزير .. واهتز قلبى فى صدرى يخفق فى عنف وأنا أبكى بكاء مرا حزينا .. وانهرت على الرمال بجانب القبر وأنا أتشنج .

ــ أبوى .. أبوى .. مات يا ناس مش حشوفه بعد النهارده . مش حشوفه .

ومال على بعض الرجال ليساعدونى على النهوض ، ولكن

جســدى كان مفككا لا رابط له .. وعينى زائغــة تائهة فى قلب الجزيرة الفسيحة .. واشياء ثقيلة تكبس على صدرى لا استطيع منها نفاذا ، هل يمكن أن اعود مع الرجال واترك ابى بمفرده فى هــذا المكان الخاوى ... ؟ واحسست كأن حديدا ثقيلا مربوطا بقدمى . واجتــاحتنى رغبة حــارة ان انزل ولو للحظــة صغيرة لأخطف قبلة من ابى .. قبلة واحدة تخفف عنى وتواسينى .. ولو كنت فى وعيى لأخذتها قبل ذلك بزمان . وقمت وسط الرجال اقول لهم طلبى وانا اندفع نحو القبر الى الداخل وكأن قوة الدنيا كلها فى بدنى .. ولكنهم امســكونى وراحوا يربتون على كتفى وكأنى طفل صغير .. وانا غير مقتنع بل ناقم عليهم لأنهم لايشعرون ولا يحســون .. فيجب عليهم أن يتركــونى لأنزل الى ابى .. وسأخرج ثانية .. ولكن ليتركونى الآن .. وماذا سيحدث ، هل ستنهد الدنيــا ؟ كنت اريد ان اصــل الى ابى بأية وسيلة .. وروحى تسبح معه فى رقدته الوادعة الأليفة .. كنت اريد ان يتمرد وينتفض ويقوم ليعود معى الى البيت وكأن شيئا لم يحدث، ولكنه خذلنى وفى سرعة اندفعت نحو القبر وانا اصطدم بالرجال لكنى سقطت بينهم مغشيا على .. واخيرا مددت يدى وتناولت حفنة من التراب من حافة القبر .. ورحت اقبلهــا وارتــاح ضميرى بعض الشيء ثم قمنا جميعا لنعود بعد ما أهالوا التراب على القبر . وافترقنا .

وعدت انا الى بيتنا . وكان قد تحول الى جنازة صامتة .. كل شيء فيه قد انطبع بطابع الحزن : حركاتنا وكلماتنا وحديثنا . فحين يصيح ديكنا النحيف وهو يعتلى جرة قديمــة يجيئنا صوته وكأن به نواحا مريضــا . وانخفض صوت أمى بعد ما كان عاليا . فأصبح زعيقها همســا خجولا حيا يعتريه الكلال ، وراحت تذرع بيننا كالطــائر الذى فقد أليفه واصبحنا جميعا نطرز احاديثنا

بأن نحلف برحمة أبى . فقد كان يملأ فراغنا وايامنا . ورغم انه كثيرا ما كان يمدني ويلهب أقدامي بالعصا لشقاوتى الا انه سرعان ما يأخذنى فى يده الى سوق السبت ويشترى لى الحلاوة والعيش والطعمية . كان بيتنا يتشح بسواد قاتم يملأ اعماقى بالحسرة والندم .

ومضت الأيام ذليلة ضنينة لا أستطيع خلالها الا ان اواسى أمى وابنها العزيمة .. شيء واحد جديد غير حياتى . فانقلبت راسا على عقب .. لم أعد حزينا .. واشرقت الحياة فى وجهى بعد طول أفول . فعندما دخلت احدى غرف بيتنا العتيقة لاحظت صورة أبى المعلقة على الجدار .. صورة أبى فى مقتبل شبابه بوجهه الأبيض الناصع وعينيه الواسعتين وقامته الطويلة .. وفجاة تطلعت الى صورتى المعلقة بجوارها على الجدار ايضا واعترتنى الدهشة .. فلا تكاد صورة أبى تختلف عن صورتى شيئا .. فصدرى عريض وعيناى واسعتان .. حتى البروز الذى يرقد اسفل جبهتى لاحظته فى صورة ابى .. حتى انفه المدبب الطويل كان ينطبق على أنفى تماما .. وعندئذ سرت فى جسدى راحة مفاجئة عارمة اشعرتنى بالفرحة والأمل .. فأبى لم يمت .. انه يعيش فى كيانى كله .. فى صدرى العريض وعينى الواسعتين وفى البروز الراقد اسفل جبهتى ، بل وفى كل ذرة من دمى .

جاموسة عبد الرسول

كانت كبارى التفتيش وبواباته قد اقفلت باحكام وشدة ، وطرقاته قد اخليت تماما من الناس . ودكاكينه قد كفت عن حركتها ومقهاه الوحيد قد ودعه رواده ، ولم يبق الاصبيه الصغير جالسا أمامه يرتعد من الرطوبة . كان اليوم من أيام الشتاء القاسية التى لا ترحم ، رياحه الهوجاء تكاد تقتلع بيوت الفلاحين المتداعية ومطره ينزل غزيرا مهتاجا ساخطا يلفح قرى التفتيش الشاسعة . وشمسه الخجلى توارت خلف السحب ، فلم تعد لها عين كى تتطلع الى المخلوقات . وكان الوقت قرب الظهر والفلاحون فى حقولهم يندسون وسط الزروع الخضراء . كانوا يكابدون أشياء عديدة تقلق بالهم وتؤرق أوقاتهم على الدوام . فلا اطمئنان ولا هدوء ، ففى كل يوم تواجههم الحياة بوجهها الغاضب المشمئز وعلى ذلك فهم ساكتون قانعون .. لا جديد يمكن ان يحرك هممهم ويخلق لهم حتى لحظات صغيرة توقظ ايامهم ولياليهم المتكررة المستاءة . فى هذا الجو كان مفتش التفتيش مع النظار فى مكاتبهم قد جهزوا كل شىء .. وأصبحوا مطمئنين .. فاليوم سيقومون بحملة واسعة للاستيلاء على بهائم

الفلاحين الذين لم يسددوا الايجـار . ولا احد يستطيع ان يعترض طريقهم أبدا .. وكيف يجرؤ مخلوق على اعتراضهم وهم نظار الخاصة الملكية المحترمون ، والمديرية كلها بين أصابعهم من أول عسـكرى حتى المدير .. وهم لا يخضـعون لأى قـانون ، فلهم حكومتهم المستقلة التى لا تخضع لأحد .. رئيسها البيه المفتش وبوليسها عساكر الهجانة الأقوياء .. انهم الآن فى معزل عن العالم فى تفتيشهم الخـاص بعد ما اقفلوا كباريه واخلوا طرقـاته .. فلا أحـد يستطيع أن يدخل . وأعطيت الاشـارات لكل كوبرى وعساكره .. ممنوع دخول أى نفر .. وفى الداخل استيقظت كل قرية فى ذلك الصباح وهى تجد بجوارها نقطة جديدة للهجانـة بها عشرة أو عشرون من العسـاكر الغـلاظ . وكل منهم يحمل بندقيته وسونكيه ، ومنعت الأرجل من السير والعربات من المرور، حتى الشـمس كانت هى الأخرى تحتجب وراء السحب . اذن فممن يخـافون والفلاحون أنفسهم قد تعودوا على هـذه العملية كل عام .. وهل يمكن لأحدهم أن يفتح فمه .. أو هل يقدر أن يحتج .. والنيابة نفسها لا تستطيع دخول التفتيش . ولو حدث ذلك فكل منهم يعرف مصيره التعس .. سيحبسه الهجانة فى حجرة الجمال ثم يخلعون ملابسه . واخيرا يمدونه على قدميـه بالكرابيج السـودانى المسقية بالزيت ثم يطلقونه فى الصحـراء ليجرى لكيـلا تتورم قدماه ، ثم يعطونه الجردل فيرش منطقـة نقطة الهجانة وضـواحيها . ويامصيبته لو توقف .. فالكرباج وراءه .. لم يفكر أحد فى المقاومة من أول التفتيش الى آخره .. من قرية زكى الى عزبة فريال ؛ كان كل منهم يفـكر ويعصر عقله فى راسه .. كيف يتخلص من هذه الحملة الظالمة .. ربما يقذفون به هو وعائلته وكراكيبه فيما وراء التفتيش .. أيمكن أن يهرب بجاموسته أو ببقرته .. ولكن اين ؟ وكل التفتيش اصبح كالعلبة

الصغيرة المغلقة الضيقة يستحيل على أى مخلوق ان ينفذ منها ..
كان خبر الحملة ينتشر من حقل الى حقل بطريقة تلقائية غير مؤكدة ، بشكل اشاعة مترددة ، فالجبيلى كان يزعق على المدبولى بصوته المسلوخ الأجش :

ـ واد يا مدبولى .. الهجانة جايه هلوجيتى عشان الجواميس ياله .. انت مسمعتش ولا ايه ، وانا بلغنى من محمد ابو أحمد كان بيشترى سجاير ولسه جاى .

ويسكت المدبولى وهو يرفع الفأس مقلبا طين الأرض الجافة :

ـ ياسيدى فاهم كل سنة بيعملوا كده .. ياخى احنا عملنا ايه .. داحنا لو كنا رجالة ...

ويزعق مدبولى لجاره ، ويزعق جاره لجاره وهكذا ...

يحدث هذا فى الحقول وديوان التفتيش قائم على قدم وساق . فالمفتش قد وزع قرى التفتيش على النظار .. فسيختص هاشم أفندى بقرية الرواشدة وأبو هيف والأحمدية.. وسيختص زكى أفندى بفريال والهادى وزيكو .. وسحب كل منهم اربعة عساكر مع احد الخفراء وخولى الزراعة ، كان النظار يجلسون فى مكتب المفتش وهم يحسبون لرحلتهم الف حساب . فربما خبأ لهم القدر شيئا لا يدرونه ، فكيف تسير الخيول فى طريق التفتيش الطويلة الموحلة وكيف يتقون المطر الذى هبط غزيرا لا يستكين ولا يهدأ . وكيف يدخلون حظائر الفلاحين وهم يعرفون انهم ظالمون معتدون . كانت تراود الواحد منهم خواطر دفينة ليؤجل الحملة الى يوم آخر تطلع فيه الشمس وتجف فيه الطرقات ، ولكن البيه المفتش ما كان يجعل هذه الخواطر تستقر

فى اعماقهم ابدا .. فهو يزعق فيهم بلسانه السليط الذى لا يكف عن السب :

ــ انا عاوز كل البهايم النهارده .. فاهمين .. حاكم انــا عارف الفلاحين .. دول ولاد كلب ميخفوش الا بالعين الحمرة .. الخاصة فى مصر طالبة الايجــار .

ولا يملك النظــار الا ان ينكســـوا رءوســـهم فى الأرض ثم يقولوا :

ــ حاضر يا سعادة البيه .

* * *

وتبدأ الحملة .. يركب كل ناظر فرســـه العــالى السريع ذا اللجام المزركش ، والسرج المبطن بالقطيفة الخضراء ، وحدوتيه المتدليتين من كلا جانبيه .. ويبدأ الموكب المهيب .. كل ناظر يركب فرســـه .. ووراءه يقفز اربعة من العساكر الهجانة والخفير وخولى الزراعة .. وتصهل الخيول فى ذعر وضيق .. ثم سرعان ما تتفرق هادئة كل منها تبدأ أولى خطواتها فى وجهتها الخاصة .

* * *

فى الطريق الى عزبة الرواشـــدة ، كان يسير موكب هاشم افندى بجلاله وعساكره شامخا قويا واثقا .. فهو شاب قوى لا يهمه شىء فى الدنيا .. يريد أن يظهر البأس والمهــارة أمام المفتش ، ويلم أكبر عدد من البهائم لكى يحصــل على العــلاوة والترقية .. كان الطريق طويلا موحلا من أثر المطر .. وكانت الرياح تهز الحصــان بالناظر .. وفى الخلف يتأفف العســـاكر وأسنانهم تصطك ، وكلما تخلفوا أو تراجعوا شخط فيهم هاشم افندى بصوته الجهورى :

ـ ايه الحكاية .. مالكم متأخرين ليه .. متمدوا شوية .

وبين الحين والآخر ، تخرج الكلاب من الحقول تعوى من حناجرها الخشنة المترددة ، وقرب القرية ينحرف الركب على احد الحقول ليفك احدى البهائم ويأخذها معه دون اية مقاومة .. فكل الفلاحين قد سكتوا ...

كانت البهائم تسير وراء الركب وهى خائفة تتطلع الى الحقول ولا تعرف مصيرها ، وتتطلع الى أصحابها ولا يمكنها أن تجرى او تفك وثاقها .. فهى جوعى تعبانة .. أخذوها على لحم بطنها قبل ان تأكل وكان البرسيم أمامها أخضر ممتدا تود ان تتمتع به .. وكان الفلاحون يبادلون بهائمهم نفس النظرات .. فمن سيدر لهم اللبن فى كل صباح .. ومن يساعدهم فى الحرث والرى والدرس ؟ كان كل منهم ينظر الى جاموسته أو بقرته ويودعها الوداع الأخير وقلبه مكلوم فى صدره يطويه على الأسى والحسرة والخيبة .. كل الفلاحين قد سكتوا وسلموا أمرهم لله فيما عدا عبد الرسول . ورغم أن الناس لم يسمعوا عنه من قبل .. بل لم تطرا سيرته خلال قعدات عزبة الرواشدة ولياليها ابدا .. ورغم انه رجل طيب وفى حاله لا يعرف الا حقله وبيته وعياله .. وانه لم يشترك فى خناقة فى حياته .. وانه كان كالعصفور المبتل الرقيق .. لا يعتدى على انسان ، ولا يحرك لسانه ليجرح مخلوقا .. ولا يعير اذنه لسماع مكروه ، ولا قدميه فى شر .. رغم هذا كله فقد ارتفع صيت عبد الرسول فجأة وأصبح علما مشهورا .. انتشر اسمه فى أرجاء الرواشدة كلها . من عند الجامع ، الى الترعة الزراعية ، الى دكان الشيخ على ، الى الناس فى الحقول ، الى العجائز داخل البيوت . وتدحرجت سمعته من فم الى فم ، ومن اذن الى اذن ، ومن قعدة الى قعدة .. واهتزت قرية الرواشدة كلها . ولم يعد بها مكان

للسكون . أصبحت كشعلة متقدة من الحيوية والنشاط .
يروحون ويجيئون خلال الدروب ، وشيء واحد يكررونه دائما .
الشباب اخذتهم الهمة المفاجئة التى ما كانوا يتوقعونها .. فراحوا
يجوبون الطرقات الى حقل عبد الرسول . والشيوخ ايضا هزهم
الحادث فانحدروا الى مكانه .. كل النساء والشيوخ والأطفال
قد تكتلوا امام حظيرة عبد الرسول فى حقله ليشاهدوا ما حدث..
وكان ما حدث لايزال حيا نابضا بالحرارة والدفء .

****

فقد كان هاشم افندى الناظر يمر على الحقول ليلم بهائم
الذين لم يدفعوا الايجار . وعندما توقف عند حظيرة عبد الرسول
تأخر هو قليلا كعادته ثم أرسل العساكر ليخرجوا الجاموسة .
كان يحس أن شيئا ما لابد أن يحدث . لهذا فضل أن يتأخر
قليلا ولا يعرض نفسه للفلاحين . وصدق حدسه فعندما دخل
العساكر الحظيرة راعه الزعيق المنبعث من داخلها . كان
عبد الرسول ينادى بأعلى صوته :

ـ والله لايمكن لما اموت عليها .. يستحيل موتونى ..
اضربونى كمان .. موتونى يا أجرام يا أولاد الرفضى .

ويرد عليه العساكر وهم يركلونه بدباشك بنادقهم :

ـ اسكتى يا بنت الكلب .. اسكتى احسن نموتك ..

ولم يتمالك هاشم افندى نفسه ، فقفز من على حصانه جاريا
الى الحظيرة .. واندفع اليها مهدئا العساكر وهو يقول :

ـ اوعى يا عبد المولى .. سيبه انت يا سر الختم .. سيبه
ليه بس ...

ويسكت الهجانة ، وتهدأ الخناقة شيئا ما ، وعبد الرسول مازال يغلى وتفوز اعماقه بالثورة ، وجاموسته تقف امامه وحبلها فى يده صعبت عليه .. فاين ستبيت ومن يعطف عليها .. وهى التى عاشرته مدة طويلة .. انه يتذكر يوم أن اشتراها من سوق الأربعاء وجاء بها الى عزبة الرواشدة وكانت أشبه بالعروسة يومها .. تناقل الفلاحون خبرها يومئذ .. وجاءوا يتفرجون عليها ويخمنون ثمنها عاشرها وهى ما زالت فحلة صغيرة رعناء لا تعى شيئا من حولها . تفك من حبلها وترمح فى الحقول لتأكل من حقول الجيران عاشرها وهى تتوحم فتنزل الى الترعة لتلتهم جواليص الطين ثم وهى تلد واللبن الشرشور يدر فى أثدائها .. ويتيقظ من خواطره والعساكر لا يزالون يقفون أمامه فى تحفز صارخ .. وصدره يعلو ويهبط والدم ينساب من فمه .. وانفاسه تتهدج .. وجاموسته تهش الدباب بذيلها .. حضرة الناظر واقف ينتظر الأحداث وهو مأخوذ لا يعرف ماذا يفعل .. ولم يكن مع عبد الرسول شىء يستطيع أن يدافع به عن نفسه .. لا عصى يضرب بها ولا بندقية ولا حتى مجرد لسان يمكن أن يزعق .. وكانت تجيش بأعماقه فى هذه اللحظات رغبة حارة طالما وأدها فى مرات عديدة .. فلماذا لا يطيح بهؤلاء الكلاب .. ولماذا لا ينقض على الناظر ليريه مقداره .. وهزته الرغبة الجريئة فتراجع من مكانه .. ثم سرعان ما اندفع الى الناظر قافزا اليه وهو يلعن أجداده .. ويلقى به الى جدار الحظيرة ويخبطه على وجهه حالا ويجرى العساكر ليقبضوا على عبد الرسول ويوسعونه لكما :

ــ اوع يا كربوته يا بنت الكلب .. اوع ليموتك يا بنت الكلب ...

ويغمى عليه ، ولا يستطيع أن يتحرك ، وهو لا يترك حبل الجاموســة من يده . وكان صف البهائم الذى يسير وراء الناظر قد انفك من عقاله ، فانطلق يجرى فى الحقول هائما على وجهه ، يبحث عن أصحابه . واتى الفلاحون من كل مكان ، كل منهم يحمل عصـــا غليظـــة .. ومنهم من يحمل بندقيـــة قديمة ولكن بها بقية من حياة .. واندفع الجميـــع وقلوبهم تطير من الفرح ليدافعوا عن عبد الرسول واستولى على الناظر ذعر مفاجىء .. واطلق احد العساكر طلقا فى الهواء .. وتوقفت الخناقة .

ولم يتمالك الناظر نفســـه .. فراح يهرول الى حصـــانه ووراءه العســـاكر خائفين وجلين . وكانت الأمطـــار قد هـــدأت والرياح قد سكنت والشمس قد أشرقت ، فملأت المكان بالضوء الساطع . وعاد الناس الى حقولهم ، ولكنهم كانوا يحكون الحكاية بأسلوبهم الخاص وكل منهم يرويها بلسان يختلف عن الآخر .. يطعمها بخياله ورغباته وأحلامه .. فيروى محيسن انه شـــاهد عبد الرســـول وهو يبصق فى وجه النـــاظر ويبطحه على الأرض ويمسكه من زمارة رقبته ويروى العبسى أنه رأى طربوش الناظر ملقى على الأرض فى الطين .

وتمر الأيام وتنسى هذه التفاصيل . ولكن شيئا ما يظل عالقا بأذهان اهل الرواشـــدة وعواطفهم على مر الأيام حتى الى اليوم وبعد أن استولى الاصلاح الزراعى على التفتيش وفتحت الكبارى والبوابات وأصبح خاضعا للقانون وللنيابة كأية بقعة فى بلدنا .. فاهل الرواشدة يؤرخون بهذا الحادث دائما .

فعندما يحاولون تسنين طفل ما .. او يتذكرون موت شيخ عجوز .. أو زواج شاب .. فانما ينسبون ذلك كله الى اليوم الخالد الذى ضرب فيه عبد الرسول الناظر ...

لقـــــاء

عائلة الحاج حنفى تستعد للسفر الى مصر ككل عــام لزيارة السيدة زينب ، والمرور على الأقارب والأهل . فهى تقصــد محمد افندى الموظف بشركة الأتوبيس بالعتبـة الخضراء ، وستخطف زيارة الى الشيخ زكى المنجد بشارع عماد الدين ، وياريت يقابلهم حسين بك فى مصر فجأة ليعرف أنهم يذهبون اليها مثله .

العائلة ترتب القفص والفطير والرقــاق وثلاث الدجاجات المفرفرة المذبوحة فى الحال . والحــاج يستعجل الست بهيـة والعيال يلحقون بقطار الصباح المبكر ، فسفر الصبحية يســهل الأرزاق ، ويجعل الناس لا ينكشفون على ستر البيوت المدارى ، والبيت الواســع الكبير انقلب على بعضـــه ، الملايات والمراتب والدواليب والست بهية تبحث عن حقيبتها السمراء التى عشش عليها الغبار منذ زمن طويل ، حتى انها تاهت عن طريقة فتحها ، وفى لمح البصر أصبح كل شىء جاهزا ، الحمير متأهبة للتوصيل ، وركب الجميع ، الرجل على الحمار الحصــاوى المتين ، وشمسية فى يده ، والست بهية على الجحشة الهادية الأليفة ، وامامها ولدان

من اولادها ، تهذان فى خوف ووجل ، ويمسك المدبولى المرابع بذيل الجحشة ، موجهـا سيرها تجاه محطة القطار . وفى آخر الركب كانت تسير زينب الخادمة تجر قدمهـا ، لا تريد أن تفارق القرية بأبيها وأمها وأصدقائها ، والنخلة التى تجلس بجانبهـا عندما ينام أسيادها فى وقت الظهر .

وأثناء الطريق كانت الأرض تلسع قدمها ، فلم يكن بهمـا شبشب أو صندل يقيها تلك اللسعات . كل جسـدها يلق فى جلبابها الواسـع ، وعيناها تسرحان فى لا شىء . والحسرة التى تعودت عليها تطفح من أعماقها على صـدرها . فتصـدر شهقة مكتومة ، مجروحة لا يسمعها أحد . كان قوامها كقوام الشاب ، ليس فيه رائحة انوثة حتى نهداها الضامران برزا كشىء لم يكن فى الحسبان كالعلامة التى توحى اليك بأنها انثى فقط . وساقاها الرفيعتان تبدوان كعصـايتين تحملان بدنها النحيل . ومن آن لآخر تلقى زينب نظرة حزينـة مكتئبة على بيت أبيها الذى كان بودها أن تراه قبل سـفرها ، ولكن سـيدها لهفها بكلمتين على الطـاير :

ــ ما انت راجعة تانى يا بنت الـ . . .

وتسرح زينب بأفكارها بعيدا ، وتذكر شقيقها ابراهيم الذى يعمل خادما عند محمد افندى عديل الحـاج حنفى ، وتنتقل هى الى أجواء جديدة ، فسترى ابراهيم وتسلم عليه وتلعب معه ان أمكن ، وسيلف معها شـوارع مصر ، ويشترى لها تربيعة حمراء زاهية . وتسرع بخطاها لتلحق بالحمير اللاهثة ، ويزداد الأمل وضاءة بين جوانحها ويكبر الحلم فى أعطافها ، ويهتز قلبهـا بفرح كبير وتأتيها الذكرى ، حبيبة ، رتيبة ، على مهل ، فهى تذكر أيام جمع القطن زمان ، وكانت هى وابراهيم يأخذان خطا واحدا

ليجمعها لوزاته المتفتحة . وفى آخر النهـار يقبض ابراهيم الأجرة ، ويضعها فى يده بحذر شديد ، ثم يوصلها لأبيه ، وتنظر زينب الى القروش التى عرقت عليها يد ابراهيم ، ومناها فى قرش ، ولكن ابراهيم يهمس اليها :

ــ طيب وابويا يقول ايه ؟

ويصل الركب الى محطة القطار ، ويستجمع الكل شجاعته وتتدفق الأرواح لاستقبال رحلة جديدة تتكرر كل عام ، ويلف الحمالون حول عائلة الحاج حنفى يريدون أن يحملوا الحاجيات ، ويصر الحاج على الرفض وهو يقول :

ــ وليه مدام معانا اللى تنضرب زينب .

وتأتى الصفارة الرهيبـة من بعيد ، ويخترق السريع هذا الازدحام واقفا كالأسـد المنتصر ، حاملا ركابه بمتاعبهم وآلامهم وهو صابر قانع ، ويمسك الحاج حنفى بأولاده مرة ، وبالقفـة مرة أخرى ويزغد امرأته ، حاثا اياها على السرعة ، فلسنا فى الغيط . ويستقر الجميع ، وقد هـدات سواعدهم على الهدايا ، وركن الحاج حنفى شمسيته بجواره قائلا :

ــ وانا كنت جايبك معاى ليه يا مدعوقة .. هو أنا هشيلك فى مصر يعنى ...

ويمر الباعة ولا من مجيب ، وتلح الأصـوات المرهقة ولا من مغيث ، وتتمدد اعناق الصبية نحو الآباء ولا كأنهم هنا . وتجلس زينب على أحد المقاعد البعيدة بعد أن يأمرها سيدها مشيرا اليها بصوته العالى الجاف :

ــ اقعدى .. اقعدى يا بت .. عمـرك مارحتى مصر .. أدنتى عشت وسافرت أهوه .

ويقف القطار فى المراكز ، والحاج حنفى والست بهية تستولى عليهما العظمة ، انهما يركبان القطار السريع .. ويلقى الحاج بعينيه خلال النافذة ليتفرج على الحقول ، وكأنه يراها لأول مرة .

ـ شوفى يا بهية .. الأرض هنا خصبة ازاى .. تجيب عشر ارادب قمح .. امال زى ارضنا الكحيانة .

وتسكت الست بهية ، فهى ملخومة فى العيال الذين ارتفع صراخهم يطلبون الأكل على الدوام ، وتجلس زينب منزوية على احد المقاعد الفارغة ، وعيناها الكابيتان تبحلقان فى بائع الصميط فى ذهول .. وترفع بصرها مستعيدة نشاطها وتتمثل مصر كلها فى ابراهيم ، أملها واخيها الذى عاشرها وهى صغيرة ، ولف معها معظم الغيطان ، وناما معا على فرن واحد ، وقضيا ايام العيد على مرجيحة واحدة .. وتتهادى خواطرها فرحانة ، فمتى تراه وتترك وراءها المحطات وهى مبتهجة ، وتنسى أنها جوعانة ، وتنادى عليها الست بهية فلا تسمع .. انها الآن تتقلص فى لحظة خاطفة قصيرة . ويمر الوقت وعائلة الحاج حنفى تخرج من القفة بعض الفطير والجبن القديم ، وتأكل .. ثم تترع زورها بشرب الكازوزة .. وزينب لا تطيق الأكل ولا الشرب ، ولا تقدر على بلع شىء .. والكمسارى يروح ويجىء مرات عديدة كأن فى قدميه مكوكا لا يهدأ والناس كل واحد فى حاله .. الا اذا حدثت مشادة فهم يشتركون ، فلو دخلت المشادة فى الجد .. سكنت السنتهم .. واقفلت أفواههم .. وأصبح كل واحد فى حاله من جديد . وهكذا تمشى الحياة بتدخل الناس فى البداية ، ثم يتخلون فى النهاية . الناس الضعفاء الذين لا يملكون فى أيديهم حلا .. ففى القطار كان هناك انسان لا يستطيع دفع الأجرة ، وامسك الكمسارى برقبته مسلما اياه الى العسكرى الذى يرافقه . .

وتدخل الجميع ، كل منهم بكلمــة خير وتحمس بعضهم وزعق :

ـ دى مش انسانية .. ازاى يضربوا الراجل بالطريقة دى؟

وتسكت الأصوات ثم تعود تتدخل ، والحاسم فى الموضوع وقوف القطار فى احدى المحطـات وتسليم الانسان المسكين الى ناظر المحطة ليأخذ طريقه الى المركز . وبمجرد ان يتحرك الاكس السريع ينسى النــاس كل حاجــة ، ولا يستطيعون عمــل شىء الا المصمصة بشفاههم الرحيمة .

وتستمر الجلبة تقطع احلام زينب ، وتحاول أن تضــع فى فمها لقمة فطير ، ولكنهــا لا تستطيع مضغهــا .. فقد تراخت اعصابها تماما ، واستسلمت لوجدانها المــاضى هى وابراهيم . واسترسلت فى ذكرياتها .. ففى مرة تأخرت عن البيت ، وامسكها ابوها يريد تأديبها ومدها على رجليها لتتوب ، واثناء ذلك كانت ترى ابراهيم بجوارها يبكى ، ويتحــايل على أبيه أن يسامحهــا فى هذه المرة .

ـ والنبى يابا تسيبها المرادى ...

ويوم ذهبا ليصطادا الســمك من الترعة ، وتعرضت هى للغرق ورات ابراهيم وهو يزعق بأعلى صوته :

ـ الحقــونى .. الحقــونى .. اختى زينب بتغــرق .. بتغــرق ..

ويأتى الفلاحون وينقذونها ، وساعتها رات فى عينيه الدموع لنجاتها ، واحســست بذراعيــه تحتضنانها ، وبراسه تتمسح فيها فى صمت حزين .

ويصل الاكس السريع باب الحديد ويفرغ ضيوفه الى قلب المدينة ، وتلتئم عائلة الحاج حنفى نازلة وقلبهـا يرتجف من الجو الجديد ، ولكنها تتماسـك ضاغطة فى تاكسى محترم وفيه يتصور الحاج حنفي حسن بك حين يمر بالعزبة بعربتـه الملاكى السوداء ، أليس مثله الآن ؟ وما هو الفرق ؟ انه ينجعص مثله بل واحسن منه . فالعائلة تحوطه وكأنها تعودت على العز من زمان . ويبحث فى جيبه عن العنوان فالشك يعكر يقينه ، صحيح أنه يحفظه ، ففى كل سنة يشرف عند محمد أفندى بالجيزة ، ولكنـه الآن يحس بالمسئولية حين يبحث بجيوبه ويسأل الست بهيـة ويتذكر كأحسن واحد ينسى العناوين ، فمن مميزات حسن بك النسيان، ويسأل امرأته :

ـ هو العنوان فين يا بهية ، أظن معاك انت .

ويهتف فى السائق :

ـ طيب .. روح على الجـيزة وبعـدين اشـاورلك على العمـارة .

ولم يكن محمد أفندى يسكن عمارة ولا حاجة ، وانما كان يسكن مع أحد الأقارب فى بيت بدرون .

وشق التاكسى طريقه فى فخر ما بعده فخر ، وكوعت زينب فى الأرضية وكان قلبها يرتجف من الضعف ، وتشرئب من ثنايا باب التاكسى الى خيالات المشـاهد وظلالها . ويخترق التاكسى الشوارع كالمهر الأصيل . ويريد الحاج حنفى أن يسأل السائق عن الشوارع . ولكن العزة تأخذه فيأبى ويستكبر ، ويمسك بالجلدة بدون مبرر ، وينظم جلوس العائلة وهو يهمس فى ثقة :

ـ هه .. قاعـدين كويس .. مش عاوزين حاجـة .. كويس كده ..

والعيال يدوسون زينب بأقدامهم الصغيرة ، والبنت تسكت على ضنى ، وتشرق أمامها صورة ابراهيم من لحظة لأخرى ، فتتحمل كل شيء ، زعيق سيدتها وسيدها واقدام الصغار والجوع والعطش فماذا يعنى كل هذا بجانب رؤية ابراهيم ، وينتظر التاكسى اشارة المرور ، وبرزانة يبدى الحاج حنفى ملاحظاته :

ـ متأخر ليه يا أخينا .. احنا مستعجلين .

وتلوح الجيزة ، ويهتف الحاج حنفى :

ـ عنوان البيت اهوه يا أسطى .. خد خليه فى ايدك انت.

وأمام البيت تنزل العائلة بخادمتها التى كادت تسحب روحها ، ويجرى محمد أفندى من الداخل بالبيجامة ، وتلحقه امراته واولاده ويتلاقى الموكبان ، ويحتضن العديلان بعضهما بالسلامات والقبلات الزائدة ، ومن خلالها يوجه محمد افندى نظره كالصاروخ الى الهدايا والأحمال الثقال ، وتخرج الست بهية وسط الهيصة صيغتها من حقيبتها لتضعها فى يدها ، فقد كانت تخاف عليها من السرقة فى الزحام ، وتصمت ضجة السلامات لتبدأ حملة العتاب :

ـ والله زمان يا اخوانا .. سنة بحالها .. يا نهار ابيض .. اتفضلوا .. كمان اتفضلوا .

وعلى راس زينب كانت تترنح القفة الكبيرة وفى سرعة زعق محمد أفندى الى الداخل :

ـ يا واد يا ابراهيم .. تعا يا وله ...

وبمجرد أن سمعت زينب اسم ابراهيم كادت تهوى بالقفة الى الأرض ، ولكنها قاومت نفسها عندما تقدمها محمد أفندى دالا اياها على الطريق :

ــ من هنا يا بنت ...

وبجوارها كان ابراهيم ينطلق بسرعة ، واعترتها رعشة غريبة حين مر بجوارها . فلم يلاحظها ، وفى صالة الشقة التقى الجميع . العائلتان المحترمتان . وكان وراء كل منهما زينب وابراهيم كان ابراهيم يريد أن يزيح كل شيء أمامه ليسلم على أخته ، وتلاقت عيونهما ، ولكن أيديهما لم تتلاقيا ، وفى انكسار رمشت عينا ابراهيم ، ولكنه رفعهما باصرار فى نظرة طويلة مشتاقة حانية لها معان كبيرة .

تعـــليم ..

كانت هناك فكرة مزمنة تعلب وجدان بسيونى على الدوام ومع انه كان يستطيع ان يقهرهـــا من زمن بعيدا ، الا انه ظـل يتجاهلها وهو مشغول فى الحقل على مر الأيـــام . وكاد يمر به اليوم ككل نهار مر به من قبل . كادت شمسه تنهب الســـماء منحدرة نحو الغرب فى تؤدة وطمأنينـــة . ولكن الذى ضرب رأس بسيونى فى تلك اللحظات كان خاطرا قديما وعجيبـــا : ضرورى يتعلم ركوب العجل ، ومع انه كان يعتبره ضرورة الا انه يعرف نفسه جيدا فأى مشـــوار أو عمل آخر ولو بسيط يمكن أن يلهيه عن اصراره وعزمه . وانتحى بسيونى جدارا متداعيا يفكر فى الأمر كانت لديه مشغوليات عديدة ومهمـــة . فعليه أن ينـــام بجوار الســـاقية فى الليل ليروى الأرض وعليـــه أيضـــا أن يزور أختـــه المتزوجة فى بلد على مسافة بعيدة يقطعها الحمـــار على مهل فى نصف يوم . وان يقوم بذكر الله بعد العشاء . وان يمر على المعارف والأصحاب يسلم عليهم ويجلس ليشرب القهوة ، ثم يهمس بكلمات معروفة طالمـــا رددها فى مثل هذه الأعياد :

ـ كل عام وانتم بخـير .. طيبون .. ازاى الأحوال .. بعودة يا رجال ...

وفى الحقيقة كان بسيونى مشغولا لأذنه ، ولو طاوع نفسه لبقى دون أن ينام . لا يدرى كيف تداعت هـذه الأفكار واحدة بعد الأخرى من راسه التى كانت تطن بها كخلية النحل .

قفزت من اعماقه فكرة قديمة مزمنة وتركزت فى ذهنـه مطمئنـة واثقـة . فكرة مملكة صحيح . لمـاذا لا تتعـلم ركوب « العجل » الآن ؟ ! .. وكادت هذه الفكرة ان تنهزم أمام جيوش المشاغل الجرارة ولكن بسيونى عندما استند بكتفه على الجـدار المتداعى استطالت هذه الفكرة فى راسه وتضخمت ، فأصبحت مضيئة مزهوة قوية وقام ينفض جلبابه الدمور يتحسس محفظته وهو يهزها مخمنا :

ـ يا ترى معاى كام ؟

وشخشخ ما بها . لم تكن كما ارادها ملأى بالنقود . وفتشها فلم يجد بها سـوى ورقة ميلاد ابنه الخامس التى استخرجهـا من عند الحكيم منذ أيام . ثم ثلاثة قروش ماركة السلطان حسين. وسر بسيونى بل اعترته نوبة من الحماقة فلن تهمه حكاية الفلوس. فسيركب العجلة حتى ولو انتزعها من عند العجـلاتى بالقوة . ولكن الأمر الذى حيره حقا ، وتصـوره مهينا لكرامتـه لو لم يتغلب عليه ، هو من الذى سيعلمه ويسنده وهو الرجل الكبير صاحب الأولاد الخمسة ، وهو يعرف أمور المسخرة التى يرتكبها الشباب فى هـذه الأيام . وحتى لو وجد التابع الذى يسنده على العجـلة ، فان نفســه تأبى عليــه . فهـذا شىء لا يهضمـه ولا يستسيغه . وخيل اليه أن الركوب من اسهل ما يمكن وان

الحكاية لا تحتـاج الا لقوة وعزيمة . ومشى الى دكانة العجلاتى عند الجامع . وكان العصر ما يزال فى يده يستطيع أن يخطف ركعاته الأربع حتى يسهلها له الله . وقبل أن ينوى على الصـلاة رأى الأطفال وهم فى ضوضاء عنيدة أمام الدكان . بعضهم يدس فى يده قرشـا وبعضهم يطالب بالبـاقى ومنهم من وقف بعيدا متجهما . منزويا لا يملك شيئا . وخجل بسيونى من نفسـه فهؤلاء الصغار كأولاده فى السن . وكاد أن يرجع أو يكمل سيره الى الجامع ولكنه ألقى السلام بغير اكتراث :

ـ سلامو عليكم يا مليجى .

ـ سلام يا بسيونى اتفضل .

وفى الحال تفضل بسيونى وهو يخفى رغبته التى تلح عليه وتؤرقه ليل نهار ، وتقدم من أحدى العجـلات وهى مستسلمة على الجدار كالمعزة الجربانة . وأدار جرسها ودارت فى رأسـه مع النغم الملسوع زوبعة من العنف والاصرار . وحالا أخرج المحفظة وهو يدس قبضته فيها :

ـ خد يا مليجى .. اجرب حظى .. لفه كده حواليك ...
وكأحسن ركيب همس فى اتزان :

ـ سليمة .. مفيهاش حاجة .. الكادر مضبوط ...

قال يعنى فاهم كل حاجة . وبقى له سنين يركب ، ومد وجله الطويلة عليها كمن كان يمتطى حمـارا . وكنست قدمـاه الأرض فرجع وهو يتظاهر بالضحك :

ـ يا أخى خد ارفع الكرسى .. الواحد صلاة النبى طويل قـوى .

ومر عليه المصلون وهم يخفون سخريتهم فى ضحكات جوفاء لا طعم لها ولا رنين ، وفرد أحدهم كفه لبسيونى وهو يشير اليه فى عتاب :

ـ خبريه يا بسيونى .. خلى الحاجات دى للصغار .. تعالى صلى يا أخى .

وتناثرت حول بسيونى المناقشات . بعضها يصر على انه عبيط وبعضها يتلمس المعاذير فالنهاردة عيد وكله لعب وفلاحون آخرون وقفوا يتأملونه بعجب وهم يودون تشجيعه . وانتزع بسيونى العجلة من يد المليجى ، وهو ينوى على مكان مهجور ليأخذ حريته فى الركوب كما يشاء . وعند السوق وفى رحباته الخاوية شعر بسيونى بنشوة عجيبة . انه بمفرده لا شىء يعوقه . هو والعجلة فقط . وجرى بها ليجربها . وجرت معه المسكينة وهى طيعة صابرة لا تعرف ما ينوى لها فى سره لقد صمم أن يعود وليضرب المليجى اذا احتاج الأمر الى ضرب وعلى راى المثل :

ـ زى ما ترسى دقلها .. وايه اللى حيحصل .

وأوقفها وهو يلمس أجزاءها كالكنز الثمين . واخيرا مد قدمه يضغط على « البدال » فمشت العجلة خطوتين هبط قلب بسيونى بعدهما . فما كان يعى إنها ستحمله بمثل هذه السرعة . وجن جنونه واعتقد المسألة بسيطة . ضغط مرة أخرى وبقوة أشد . فوقع « الجنزير » ولفته فى تلك الأثناء حسرة نادمة وهمس فى ذهول :

ـ الله يخرب بيتك مدعوقة .. والله لما تكونى انتى مين .

ولف البدال بيده على الفـاضى مرات عديدة فلم يفلح فى تركيب الجنزير . واصطدمت رأسه بالكرسى وهو يومىء بها الى اسفل وجاءت المسألة بالبركة وهو يعبث فى احشاء العجلة .

وركب وهو يضرب الجرس فى فهلوة وغرور ، غير انه ضحك من نفسه فما لزومه الآن ، وانبسط فى سره فقد تذكر تعليمات كان يسمعها من الأطفال الذين لم يتعلموا بعد :

بص قدامك .. خلى عينك قدام .. متبصش لرجليك .

ونظر بسيونى امامه . ولكن العجلة لم تتحرك ...

فنظر الى قدميه بعد ان ضغط بهما على البدال بشـدة . فاندفعت بسرعة غريبـة وانقلبت على جنبها الأيمن اخذه معهـا بسيونى وهو يستنجد الله فى خوف ووجل :

ــ بس .. بسم .. بسم الله الرحمن الرحيم .

وراوده الأمل فقد تذكر مثلا كان يسمعه :

ــ الانسـان ما يتعلمش بلاش ..

ضرورى يقع .. يقع مرة واتنين وتلاتة ، وبرر وقوعه هذا. فقام وهو يخلع حمله الثقيل . جلبابـه . والتلفيعـة الصـوف والحذاء الغليظ ، فالعرق قد غمر جسـده الحران . واخرج منديله المحـلاوى يجفف صدره اللاهث المتعب . واستراح يسترد انفاسه كبقرة مذبوحة ، واخرج من جيبه نصف كعكة سـمراء قرشها بأسنانه الحـادة وبسمل فى سره ثم هبط على العجـلة

بجسده الذى أصبح أكثر مرونة معها . وساقهـا ومشت معه طيعة لا اتجاه لها ولا ارادة . وانما راحت تتلوى كالحية فى فضاء السوق المهجور . وغمرت بسيونى فى تلك اللحظات مشاعر جميلة جدا .. طغى عليــه الفرح ، وشــعر بقدميه وهى تحرك البدال وبيديه وهى تمسك « الجادون » شعر بكل قطعة فى جســمه وهى تتلوى غصبا عنها فى اتجــاه العجلة . واعترته نشوة مفرطة عارمة حقا ، والعجلة تهبط وتعلو فى المرتفعات وبعدها . وكاد بسيونى أن يترنم بأغنيته اليتيمة التى يرددها فى كل مناسبة :

ــ عجبتنى بنت بيضة دقة على صدرها جامع .

كاد ان يترنم بتلك الأغنية ، لولا أنه افاق على نفســه وهو يدخل فى احدى الأشجار مصطدما بها .

وحالا تربس قدميه الأرض . فلم يكن بالعجلة فرامل .

ومد ساقيه ليتفادى الشجرة الملعونة . ونزل وقد تسلخت قدماه من الأحجار الصغيرة التى زحفت عليها .

وراح يفجر « البقابيش » التى تكونت فى كفيه المحمرتين . ومع هــذا قام وكأنه لا يشــعر بشىء ، قام يهز العجلة فى ضيق يختلط بالثقة :

ــ والله يا بنت الكلب مانى سيبك النهاردة .

وبلغ الغرور ببسيونى حده . حتى ان أفكاره كانت تراوده ان يلعب عليها بعض الحركات فقد تعلم الركوب خلاص . ورغم احساسه بأنه يخدع نفسه ، الا انه استمر فى ألعابه الجريئة . فقفز عليها وهو يجرى ازاءها . وقبل أن يستقر عليها كانت آذانه

تحاول أن تدفع صوتا عنيفا يطرقع ، وذهل بسيونى على التو فقد « طق » الكاوتش واستند على طارة العجلة فسمعها تسلم أنفاسها الأخيرة .

ولم يفكر فى المليجى ولا فى الخناقة التى تنتظره . بل ظلت فكرة الركوب مستحوذة عليه فى قوة وجمود .

وهتف لنفسه :

ـ اركبها على الحديدة واسكت يا ولاد .

ولكنــه طرد الشيطان وهو يسحب العجـلة راجعـا الى المليجى يغمره احساس بفرحة عظيمة لم تتم .

نظريـة الهندسـة

كانت لجنة الزقازيق الثانوية قد انعقدت ، وشملها هدوء رهيب كل الطلبـة قد استكانوا وصمتوا ، فلم يعد هناك مجال للكلام ، راحوا يستعيدون فى خيالهم الصفحات التى حفظوها فى سرعة خاطفة كما لو كانوا يستعرضون شريطا سينمائيا عاجلا . كانوا قبل دقائق يملأون فناء اللجنة بالثرثرة والمناقشات التى لا تنتهى ويتراهنون ، ويتحدون بعضهم البعض ثم يلجـأون الى الكتب فى آخر لحظة . اما الآن فلا كتب ولا ثرثرة ولا مناقشـة . كفت الألسن وسكتت الأصوات ، كل منهم يستغرق فى نفسـه ، يتملكه احسـاس بالخوف والاضطراب ، فمهما كان متأكدا من معلوماته ، فهو يحسب حسـاب المجهول دواما .. فمن يدرى فربما جاء الامتحان فى احدى المعضـلات التى استعصت عليه .. كانت القـاعد والمناضـد الصغيرة مرصوصـة فى صفوف طويلة لا حد لها .. وراح كل واحد منهم يجلس على كرسـيه ويخرج ادواته .. المسطرة والبرجل والمنقلة والمثلث والقلم الرصـاص ذو السن الرفيع الحـاد . فاليوم امتحان الهندسـة ولابد من أن

يكون الطالب دقيقا فى كل شىء ، فالنقطة محسوبة عليه ، والغلطة فى المليمتر تؤثر فى الامتحان . لم يكن هنـاك شىء فى رءوس الطلبة أثناء تلك اللحظات الا الأضـلاع والزوايا والفروض والبراهين والمثلثات والمربعات . كل الطلبة قد ظهرت عليهم علامات المذاكرة والارهاق ، فوجوههم شاحبـة ضامرة وسواعـدهم مرتخيـة ، وعيونهم زائغة مذعورة ، وكلماتهم هزيلة متقطعة يعتريها الكلال ، وأرواحهم قلقة معذبة فى منتهى الضيق ، وأمانى عزيزة تضطرم فى أعماقهم ، تستولى على صـدورهم فتبثهم الأمل والعزيمة ، ويمتـد شريط أحـلامهم طويلا منسابا سـهلا فهم يؤدون الآن امتحان الثقافة وسينجحون الى التوجيهيـة وبعدهـا سيقدمون أوراقهم الى الجامعة ، وهناك لن يتقيدوا بمواعيد كالتى ترهق أعصابهم فى المدرسة ، وسيصبحون رجالا لهم مركز ، وسيختلطون بالبنات ، فلا فرق بين الطلبة والطالبات فى الجامعـة وسيجلسون فى البوفيه ليشربوا الشاى وليأكلوا السندوتشات . سينتقلون من الزقازيق بشوارعها التى داستها أقـدامهم آلاف المرات الى القاهرة ذات الشـوارع الفسيحة الرحبة ، والحدائق الواسعة. كل الطلبة لهم أمان ورغبات وأشواق وأحلام ، وجميعها متواضعة حبيبة يمكن أن يحققوها بالعمل والصبر والمثابرة ، ما عدا شعبان فالغرور يركب رأسه ، وجنون العظمة يحرك كوامنه الدفينة . فهو كبير لا تقف أمانيه عند حد هذه الأشياء التافهة ، فهو الزعيم المشهور الذى يعيش على ماضيه الخصيب ، وهو الذى يحرك المدرسة باشارة واحدة من يده ، ويقودها فى الشـوارع رافعـا صوته الجهورى خفاقا يهز المدينة . وهو المنتشى الفرحان كلمـا تذكر موقفه وجرأته المتناهيـة فى ذلك اليوم .. فلقد حلت رموز الدنيا أمامه من يومها ، فأصبح لا يخـاف شيئا ولا يرهب أى مخلوق . لقد صار كلامه زعيقا عاليا خفاقا .. ولازمت المسبحة

الصغيرة يده على الدوام وعلبة السجاير الكبيرة جيبه ، والحكاية ببساطة أن شعبان قد أخرج المدرسة فى احدى المظاهرات .. ولم يكن يعنى ذلك اطلاقا بل جاء الأمر مصادفة ، ففى صباح يوم من الأيام التأم الطلبــة فى حشد هائل يريدون أن يخرجوا فى مظاهرة الى الشارع .. وكانوا فى غاية الضيق ، فقد افتقدوا زعيمهم فجأة وبدون توقع ، كانوا يريدون أى طالب ليبدأ بالهتاف ثم يرددونه وراءه فى حمــاس ، ولكنهم لم يجدوه ، كانــوا يلتأمون وقلوبهم تتحرق لرؤية من يصعد الســلم ويرفع صوته هاتفــا بالنداء الخالد : لبيك وادى النيل لبيك ..

وما وجدوا .. تتأرجح أحلامهم ويتزايد الأمل فى حضــور الزعيم ثم سرعان ما يتضاءل .. فى هذا الجو كانت تراود شعبان فكرة عجيبة ، فلماذا لا يطلع الى السلم ويهتف وماذا سيحدث ؟؟

حقيقة أنه لم يخطب قبل الآن ، ولم يكن لديه فكرة عن اضراب اليوم ولا اضرابات الأيام السابقة ، فقد كان فى كل اضراب سابق يأخذ بعضه وعلى القهوة ، يشرب الجوزة ويدخن السجاير ويعود الى حجرته فوق السطوح .. وكثيرا ما اشتاقت نفســه أن يلف مع الطلبة فى مرة كاملة حول المدينــة ، ولكنه كان عندما يمر على القهوة يترك المظاهرة وينتقى أحد الكراسى ويجلس يتأمل الناس الرائحين والغادين .. أما اليوم فهو فى غاية الحمــاس أن يعتلى السلم ويهتف وفعلا همس لبعض الطلبة الذين يقفون بجواره :

ـ أهتف يا ولاد وتردوا على ؟

وتحمس الطلبة ، بل حملوه على أعناقهم واندفع هو بصوته الخائف الوجل المتردد :

ـ لبيك وادى النيل لبيك .

واخذته الدهشة ، فلقد رد حشد الطلبة وراءه الهتاف .. واندفعت المظاهرة الى الشوارع تجوب المدينة .. وشعبان من يومها واحس انه بطل وانه زعيم .. ومن يومها والغرور يركب راسه ، والمسبحة لا تفارق يده .

يتذكر شعبان هذا الموقف الخالد فلا يهمه الامتحان بمن فيه.لا الطلبة ولا المراقبين، ولا اللجنة كلها ، فهو يتكىء على كرسيه الى الوراء باستهتار شديد ، لم يزل يحلم بالأيام الماضية ويعيش فيها ، لقد وزعت الأسئلة ، واشرابت اعناق الطلبة ليتسلموها وهم مرتعشون وعلت الثرثرة وشعبان صامت هادىء رزين كأن على راسه الطير أخرج قلمه وبرجله ووضعهما أمامه وراح يتأمل ورقة الأسئلة فى برود شديد ، انه رتب نفسه جيدا ، فهو فى غاية الاستعداد ، صحيح أنه لم يذاكر ولم يفتح كتابا ولكنه معذور ، فقد أكلت المقاهى وقته ولكنه لابد أن ينجح . فمن يقف فى طريقه ، وكما نجح فى السنوات السابقة سينجح فى هذه السنة .. ان اللجنة كلها فى يده من رئيسها الى فراشها ، ليتفرج اولا على الطلبة المنهمكين ويرثى لهم .. فلماذا يخافون دائما ؟ وعلى اى شيء ؟ فكلها تحصل بعضها ، لقد تعبوا وسهروا ومرضت عيونهم ومازالوا مضطربين جبناء .. اما هو فقد حل المسألة فى منتهى البساطة ، فبالأمس جلس فى حجرته واغلق بابها ومنع دخول اى انسان فيها ، وفرش امامه فرخا من الورق الشفاف الرقيق ، وبالمسطرة قطع منه شريطا طويلا رفيعا ، وقسمه الى اربعة وعشرين قسما ، وعلى كل قسم كان يرسم احدى النظريات الهندسية ، وفى الخلف يكتب فرضها ومطلوبها ونتيجتها ، وطبق الشريط الطويل ، ووضعه فى كفه ليجربه فلم يظهر منه شيء ،

واستراح وها هو الآن يخفيه تحت جلدة ساعته مطمئنا اليه .. يعرف مكان النظرية التى جاءت .. فسيقلب الشريط خمس مرات ليعثر على نظرية فيثاغورث المشهورة ، اما التمارين ، فسيحاول فيها بقدر المستطاع ، فيكفيه الأربع درجات لينجح وبعدها يعوض فى الجبر المهم اعتراه نشاط مفاجىء وهزه الشوق لأن يفعل اى شىء ، فصفق بيديه فى ثقة تامة ازعجت من حوله الذين كانوا يستغرقون فى الاجابة ورءوسهم مكفية على الأوراق يحلقون فيها ، صفق فجأة فجاءه المراقب مسرعا :

ـ عاوز ايه يا ٨٢٥ ؟

وكانت هذه النمرة هى رقم جلوسه فى الامتحان ، فرد عليه شعبان بصوته الحاد الواثق :

ـ عاوز كباية شاى ..

وأخرج علبة السجاير واشعل سيجارة ، فاستفزت هذه الحركة المراقب ، وكان شيخا متداعيا يمسك بيده مسبحة وعلى عينيه نظارة رقيقة ، ومع ذلك فقد همس له فى ود وطيبة متناهية :

ـ يابنى السجاير ممنوعة .. انت عاوز رئيس اللجنة يضرنا .

ولم يلتفت شعبان لكلامه ، واستمر فى جذب أنفاس السيجارة فى لذة ونهم .. وكادت تحدث مشادة لولا أن شعبان استخار الله واستشار عقله وأطفأ السيجارة ليستطيع ان يخرج البطارية من تحت جلدة الساعة لينقلها وينفض ، كان طلبه الشاى واشعاله السيجارة مقدمات رعناء لما يضطرب فى داخله من ضيق واستياء يخنقان روحه المستاءة ، فقد كان ينظر الى

ورقة الأسئلة امامه وكأنها ملساء لا يرى فيها شيئا ، فسؤال النظرية طلسم كبير لا يستطيع حله والتمارين حجارة صماء لا يستطيع فكها والتغلب عليها ، وكان الزمن ساعة ونصف ساعة، فماذا يفعل أثناءه ؟ ولم يمض الا نصف ساعة وجاءه الشاى ، فراح يرتشفه وعينه فى الورقة وكأنه فى غاية الانهماك والاستغراق وكان المراقب يتمشى خلال الصفوف سارحا فى أفكاره الخاصة ، وانتهز شعبان هذه الفرصة ومد اصبعه الى كم الجاكتة تحت الساعة ، ولمست يده شريط الورق الشفاف ، واعترته رعشة من الفرح المفاجىء ، فالنظرية ترقد تحت ساعته ، لو كان يستطيع اخراجها ، ولو تركه هذا المراقب العجوز الذى يحوم حوله كالشبح الكئيب ، وحاول أن يكتب اى شىء فى ورقة الاجابة فخط بحروف كبيرة واضحة فى أعلى الصفحة وبتصميم زخرفى أنيق بسم الله الرحمن الرحيم وبعد ذلك بصفحة واحدة رسم بخط واضح جميل الاجابة عن السؤال الأول .. وفى هذه الأثناء كانت هناك حركة غير عادية .. فقط نشط المراقبون ، وارتفعت رءوس الطلبة عن أوراقهم لتعرف الحكاية ، وساد جو من التحفز والترقب ، وبعد مدة ظهر رجل طويل وعريض تكسو وجهه رهبة عجيبة ، وتتقلص ملامحه فى صلابة حادة يتمخطر فى موكبه فى جلال شامل كالطاووس المتكبر ، يحوطه المراقبون كلما وقف فى مكان معين ، كان هذا هو رئيس اللجنة ، وعندما جاء بالقرب من شعبان كان قد انهار ساحبا يده من تحت ساعته .. واعتدل فى جلسته منتصبا وأمسك بالبرجل وكأنه يرسم احدى الدوائر المطلوبة ، وبعد لحظات اختفى موكب الرئيس ومعه انصرف المراقب العجوز وفى حركة خاطفة جذب شعبان الشريط الشفاف من تحت ساعته ، وكومه فى كفه الأيسر ، وانتظر ليرى الظروف حوله ، كان الطلبة كما يبدو قد قطعوا شوطا كبيرا فى اجاباتهم ،

لقد انتهوا من اجابة النظرية وابتدءوا يتفننون فى الاجابة على مهل، وبين الحين والآخر يسود هدوء عجيب هامس ثم سرعان ما تعلو الضجة العالية .. كل هـذا وشعبان غارق فى عالمـه الخاص يريد أن يفتح شريط الورق الشـفاف قلب كفـه الأيسر ورأى الحروف التى سجلها فى الليل ، كانت أشبه بالكنز الذى سيحل ازمته التى أطالت ، وقلب الشريط خمس مرات الى أن وقف على النظرية الخامسة ولحظتها لم يقدر أن يرى النظرية فقد أعمت الفرحة بصره ، واطمئن جدا ، وسكت قليـلا ثم طلب قهوة ، فأحضرت له ، وجهز شكل الاجابة التقليدى لئلا تضرب معه لخمة فى اللحظـة المناسـبة ، ومن بعيـد كان المراقب العجوز يفتح جريدته ويقرأ فيها ، ولكن شعبان لم يطمئن فقد كانت الوساوس تون فى راسه ، وقلبـه يأكله ، ويحس بأن حدثا غير عادى ينتظره، ارجأ نقل النظرية ريثما يتأكد من أن نظرات العجوز لا تحوم حوله، وسرح خاطره فى الرمال الحمراء المفروشـة على الأرض والخيمة الرحيبة التى تضم اللجنة وصوت الميكروفون الذى يذكره فى كل آن بالوقت الذى مضى والوقت الذى تبقى .. وتطلع شـعبان الى حشد الطلبة الهائل المستكن وتعجب .. اليسوا هم اخوانه طوال العام الذين كانوا يخرجون من المدرسـة باشارة من يده وبمجرد أن يقف على أحد السلالم ؟ ما لهم الآن وقد تخلوا عنه مستغرقين فى اجاباتهم وكأن لا علاقة بينه وبينهم ، وطافت على صدره سحابة أسى حزينة للفخ الذى وقع فيه ، فهو كالفـأر الذى دخل المصيدة ما يستطيع الفكاك منها .

وقبل أن يسرقه الوقت كان قد حدد المسـألة ، لابد أن ينقل النظرية ، وحالا فرد الورقة أمامه وقراها للمرة العشرين ، وقلب كفه الأيسر ، وفى روية القى ببصره على شريط الشـفاف الرقيق ، وشاهد رسم النظرية بالتقريب وطبقـه ثانيـة ، ثم

امسك بالمسطرة والبرجل والمنقلة واستعد للعمل ، غير ان المراقب العجوز كان قد لمحه فألقى بالجريدة جانبا ، وجرى اليه مسرعا هائجا يزعق فيه بأعلى صوته :

ـ انت بتغش .. هيـة فوضى .. هيـة زريبة .. هيـة وكـالة ..

واطبق بيده الخشنة على كفه وبها شريط الشفاف .. وحاول شعبان أن ينتزع يده من يد المراقب ولكن عبثا حاول ، فقد طار النبأ الى ارجاء اللجنة جميعها . وانتهز الطلبة هـذه الفرصة فأخذوا يتحدثون فى سرعة ويسـألون بعضهم البعض ويستفسرون عن حلول التمارين .

والتأمت حول شعبان شلة كبيرة من المراقبين ، وهو مذهول يحاول الخلاص ، ولكن بدون جدوى ، فقد جاء العسكرى وأمسك بكفه التى تقبض على ورقة الغش ، وهاصت اللجنـة من أولها الى آخرهـا .

وزغده العسكرى فى صدره ليعطيه ورقة الشفاف ، واستمات شعبان وهى فى يده . حاول ان يبتلعها لكى لا يثبت عليه الغش ، ولكن العسكرى كان يتماوت على يده ، ولكزه مرة اخرى فى فمه ، ولم يتحمل شـعبان ، فانفجر مرتعشا فى نشيج مرتفع ، وسال الدم من انفـه ، وامتقع وجهه بحمرة باهتة زرقـاء ، وتصلبت عضلاته ، وراح يهذى ويشتم ويسب ويخطب ، كما لو كان قديما يقود مظاهرة . رشوا وجهه بالكولونيا وضمخوا صدره بالعطر النفاذ ، وكانوا يهفون عليه بصفحات الجرائد ليستطيع التنفس . ولكنه كان يزداد فى النشيج والهيجان والزعيق ، ويده تستميت على الورقة الشفافة فى كفه ، وجرس تسليم الأوراق يدق فى ألم وتعاسة باكيتين .

خنـــاقة

ــ اختشى يا جبالى .. انت اهبل .. دا عمك عبد المجيد . يخرب بيتك ولد .. اسكت يا مغفل ..

والتأمت الأفواه نحو الجبالى تؤنبه وتسقيه الكلمات كالسم البارد . وامتدت الصــدور لتحجزه بقامته الطويلة الفارعة عن الشيخ عبد المجيد الذى ظل صامتا .. سابلا عينيه فى الهواء فى ثقة تامة .. كان الجبالى يتأرجح ويهتز بعصبية وضيق واضحين:

ــ سيبونى عليه .. سيبونى عليه .. دا راجل ضلالى .

ــ ضلالى ايه يا واد اثبت .. انت بهيم .

هدأ الجبالى لحظات ، واعتقد الناس خلالها انه استرجع عقله وبصيرته .. وكادت الحكاية أن تنتهى عند هــذا الحد ويعود كل واحد الى حاله ، لولا أن الجبالى انتفض وهو يأخذ الجمع امامه فى قوة وصلابة عنيدتين :

ــ وشرفى لابد اهزقه .. اضربه .. يا ناس .. دانى ساكت على نار ..

ـ تضربه . لا دانت زودتها قوى .. طب خد ..

واخذت الضربات تتساقط على الجبـالى من أكف عديدة كانت تتنمر له لتشبع فيه بالضرب .. واحاطته الأيدى بشـدة من كل جانب كالأرنب المسلوخ . وتسلقت بعض الأرجل سيقان اشـجار الكافـور تبحث عن العصى .. وعلت الزيطـة وارتفع الصراخ ..

ـ خناقة ياولاد ..

وزحفت الأقدام من كل مكان ، من عند دكان السيد محمود، ومن قهوة عدلى ومن الحقول القريبة ، ومن عند الجامع ، واتسع المشهد ، فتمدد فى حلقة واسعة يتناثر حولها النساء والأطفال .. وتتابعت التعليقات :

ـ الواد ده مجرم .. سيبوهم يهروا بدنه ..

ـ حد يتجرأ ويتفزع على الشيخ عبد المجيد ..

ـ معدش اللا ابن عامر راخو .. عاملى فنط .. عجـايب يا ناس .. الواد عامل ديك ماحدش عارف يسكته .

ـ آه أصله طالع بز زى اللى خلفه ..

لم تقف هذه التعليقات الا حين ارتفع صوت مأخوذ :

ـ يا اخواتى الواد سورق .. سيبوه لحسن سورق ..

ـ سورق .. سورق .. شمموه شوية نشادر ولا بصـلة وهو يقوم زى الفحل ..

وانحنى بعض الرجال على الجبالى يرشون المـاه على وجهه ويتشـهدون ..

لم تكن هذه الصدور بقادرة على أن تظهر عطفها على الجبالى وسط هذا السخط الذى انصب عليه ، كانت قلوبهم تفور بالحقد ، ولكن ما باليد حيلة . ان أيديهم تأكلهم وقبضاتهم تتحفز . بيد أنهم يحسون بقوة الجانب الآخر وبطشه . كانوا يشعرون بالانعطاف نحو الجبالى .. الا ان الأفكار التى كانت تدور فى رءوسهم كانت تعوقهم عن أن يفعلوا له شيئا .. وباقى الخلق والمحاسيب قد تصلبت أفكارهم مع الشيخ عبد المجيد .. وراحوا يستعيدون ايامه ولياليه ..

ففى مأتم قرية الرواشدة حيث يسود الوجوم ، وتخيم الكآبة ، وتهتز القلوب بذكر الله والنار واليوم الآخر ، وحين تخفت الأصوات ، ويستولى على الخلق صمت حزين يجعلهم يطرقون برءوسهم فى الأرض ، وحين يرتفع صوت الفقيه يرتل الآيات البينات فى تؤدة وطمأنينة .. فى هذه المناسبات يلوى الشيخ عبد المجيد رقبته نحو المقرىء ويرجوه أن يعيد كلام الله وينغمه لهم بالسبعة . كان هو الوحيد الذى يقضى له طلباته ، يتعجل له القرفة والينسون والحلبة الريانى . وكان هو الوحيد أيضا الذى وكل له الفلاحون أمور موتاهم ، وحين تأتى أيام مولد النبى يخرج الشيخ عبد المجيد الى الزفة بعمامته الخضراء وقفطانه الزاهى تحت الجبة ، يمشى على أعناق صبية البلد وقد اتكأوا بحلوقهم على السيوف القديمة الصدئة .. يتوقف موكبه أمام كل بيت ليسرع اليه صاحبه بما فيه القسمة التى لا تقل فى معظم الأحوال عن « الحتة بعشرة » ويمتد الركب بأعلامه التى تناطح أشجار الجزورين العالية . وبدفوفه التى تخفق أنغاما وقورة تناسب المقام ، والتى تجمع حوله ذيلا طويلا من الأطفال الذين ملوا طول الطريق ، وفى الليل ينعقد الذكر .. وتتهافت عليه « الذكيرة » ، وتنتفض أعمال الشيخ عبد المجيد خلال

الحلقات وبين الأيدى التى تتطوح فى الهواء ، والظهور التى تلتحم مع الصدور . والأنفـاس الحمقاء . تنتفض أعماقه بالمدد لسيدنا الحسين ، والمدد للسيدة زينب والمدد لسيدى أحمد الرفاعى .. كانت جميع هـذه الصور تدور فى أذهان الناس وهم يذكرون معها أن الشيخ عبد المجيد رجـل له مهابة وقدسـية .. أخذ العهد البيومى من زمان .. بل أصبح يعطيه للشباب والرجـال الذين لم يهدهم ربهم بعد .. يذكر الناس كل هـذا ، ومازال الشيخ عبد المجيد أمامهم يداعب « شراشيب » مسبحته اليسر ، ويمسح على شاربه النظيف بيديه ويفتله .. يذكرون ذلك وقد افاق الجبالى من اغماءته بسبب الخناقة .. والذى حدث .. ولمـاذا تهجم على الشيخ بكل تلك الجراة ؟ ولا يستطيع الجبالى وهو يسترد أنفاسـه المحبوسة الا أن يغمغم فى تأزم مكبوت :

ــ طيب معلش .. عاملين ربطية عليه .. يضربنى محمد وحسين والسيد وعلى . طيب معلش .. طيب معلش ..

وشعرت النفوس بالفراغ يستولى عليها ، فراحت تتسرب من جو الخناقة ، والجبالى والشيخ عبد المجيد الى أجواء اخرى تخص الحقل والمحصـول والرى والايجـار ، وابتدأ الأطفـال يقتربون شيئا فشيئا .. وهم يغافلون الكبار ليتفرجوا .. وكاد الشيخ عبد المجيد أن يلملم جبته الفضفاضة ويحبك عمته ويكوم مسبحته فى جيبه ويمشى .. كاد كل شيء أن ينتهى بعد أن أخذ الجبـالى نصيبه من الأدب . لولا انه انتفض يطوح بذراعيـه فى الهـواء :

ــ وشرفى لابد أبطحه .

وبهت الناس ، وانقضـوا على الجبـالى يأخذهم الضيق

لوقاحته التى لا تعرف اليأس ، ولكن الشيخ عبد المجيد اشار اليهم فى هذه المرة :

ـ سيبوه .. سيبوه آنى مسامحه ..

لم يهدأ الجبالى ، بل رفع أحد الأحجـار من الأرض وهو يزعـق :

ـ مسامحنى .. هو آنى عبيط .. والله ما انت متلايم من ايدى ولا على مليم ، وآنى معاك يلا نروح على المركز سوا .

ولاحظت الجماعة ان وجه الشيخ عبد المجيد قد تزمت بدم ازرق باهت محقون . وأن شفتيه تعلوان بتسابيح وترنيمـات يعرفونه بها وقت الغضب .. لاحظت الجماعة أن حالة الشيخ عبد المجيد أصبحت صعبة .. فهمت تستحثه على القيام وتصفية الموضوع بعد ذلك .. ولم تهدأ خواطر الجبالى وثورته الا بعد أن قبض على جبة الشيخ عبد المجيد وراح يستجمع شجاعته وهو يقول :

ـ انت راجل ضـلالى .. عاملى سنى ومربى دقنـك .. وبتطلع فلوس بالربا .. والله لازم أفضحك ..

وهنا علت سحابة قاتمة على وجوه القوم .. ومرت طيوف ذاهلة لا تصـدق الصوت الذى انبثق بعد أمد طويل .. وتعثرت الألسن فى الأفواه بالكلام :

ـ حاجة عجيبة ! الشيخ عبد المجيد بيطلع فلوس بالربا ياولاد !!

وابتدات الأعين تأخذ طريقها الى الجبـالى لترى انفعـاله المتوهج .. وتنخفض عند الشيخ الذى تسمر فى مكانه كالشجرة

التى بجواره .. لم يكذب الجبالى .. لم يرفع فيه عينا ، وانما لفته حسرة شاملة كئيبة أراد ان يتخلص منها .. لكنه فوجىء بالورطة تحتويه وتخنق رقبتـه كالكماشـة .. وتطايرت من فمه نتف اللعاب وهو يرتل الآيات المنجيات .. وانسحبت من حوله التأييدات ذاهبة الى الجبالى تسترضيه وتستفسر عن الحكاية .

والرواية باختصار .. ان الجبـالى كان فى حاجة شديدة الى قرشين ليفوت أيام العيد ، فأولاده يلحون عليه « بالعيدية » ليركبوا المراجيـح وليشتروا علب البخت والصـــواريخ وحبش ايطاليا .. يتحلب ريقهم لمصمصة الكرملة وعصابة على أفندى .. وامراته التى تسحب له ناعم فى هـذه الأيام من أجـل جلابيـة « كريب تيبس » أو شبشب بوردة ، لم يجد الجبالى غير الشيخ عبد المجيد يفك ضيقته ويجعل من بعد عسره يسرا ، وفى نهـار الوقفة خرم عليه وهو يلقى السـلام ويطلع الكريمة ويتفاهم فى كلمتين :

ــ بس اسـمع يا جبـالى . بعد الدرة على طول تجيب الفـلوس .

ــ ان شاء الله يا سيدنا .. ان شاء الله .

وجاءت أيام الذرة ووقع فى يد الجبالى نصف جنيه طار به الى الشيخ قبل ان يصرفه .. ولكنه تصاب . فلابد من المبلغ كله وعلى بعضه .. الجنيه حتة واحدة .. لا يزيد مليم ولا ينقص

مليم . وعبثا حاول الجبالى أن يقنعه ويسترضيه بالمحايلة واللين . لكن يستحيل .. فلو انه رضى بأن يأخذ الخمسين قرشا .. فلربما راح عليه المكسب الذى جاءه من فيض الكريم .

وتمددت هذه الرواية فى القرية تصحبها الشكوك والوساوس انتشر الخبر على كراسى قهوة عدلى ولكنها لم تلتفت اليه ، فقد كانت تعرف أكثر من هذا عن الشيخ عبد المجيد . كان مسلم يقرش اسنانه الصفرا ويقول :

ـ طب وايه يعنى .. هو كده بس .. دا اكبر افيونجى فى البلد .. كل يوم له حتة بعشرة منى ..

وعلى بساط الجامع كان الشيخ سالم يحاول تجاهل كل شىء ، فقد أشاح بوجهه بعد صلاة المغرب عن كل الوجوه التى ارادت أن تجره فى الكلام عن الموضوع .

وتجمع ابناء الشيخ عبد المجيد فى الطريق يستنكرون الخبر من اصله .. يستدفئون بكرامته وبركته ، ويستشعرون بالخجل والناس يتهامسون من حولهم فى تلميح مكشوف .. الا أن هناك اثنين ما كان يهمهما الخبر فى حد ذاته ، سواء كان الشيخ عبد المجيد حراميا ، أو مرابيا ، او رجلا طيبا .. وسواء كان الجبالى صادقا أو كاذبا .. لقد تعود مغاورى ونوح أن ينتهزا مثل هذه الظروف ليعملا من الحبة قبة ، فهما قد لفا فى الدروب وبين المزارع وفى وسط المجالس بسرعة فائقة يحملان الخبر بتفصيلاته التى تزيد فى بعض الأحيان بذيل من عندهما .. فالشيخ

عبد المجيد ضربه الجبالى ومرمط بعمته الأرض ، وبهدل مقامه..
وضحك عليه الخلق .. والتى تختلق فى أحيــان اخرى ، فالشيخ
عبد المجيد مسكوه على مرة فى الدرة ياولاد . ابصر مرات مين ..
بكره نشوف . كله يبان .. نهايته ، مالناش دعوة بحد .

* * *

وتمر الأيام بقرية الرواشد ، تتقدم بطيئة كالزرع ، عليلة
كأجساد الفلاحين وتعود البلبلة حول هذا الموضــوع فى فترات
متعاقبة ، ثم تتضح من وقت لآخر حقيقة لا يستطيع احد تكذيبها
بسهولة ، فالشيخ عبد المجيد يهرب من طريق الجبالى على الدوام،
فــاذا فاجــأه والتقى به صــدفة غير اتجاهــه ، ثم بصــق على
الأرض .

دنيـــا

لا يدرى احد كيف غطس عم علام من الشارع فجـأة هكذا وبدون مقدمات ؟ وقد كان الى يوم امس فقط يملؤه بالحيويـة والنشاط يقفز فى طوله وعرضـــه مهللا بيديه ، رافعا ذيل جلبابه الواسع الفضفاض ، ملبيا طلبات الزبائن وحاجياتهم من كل نوع ، لا يصدق الناس عيونهم وهم يشاهدون دكان عم علام الصغيرة خاوية كالخرابـة لاشيء فيهـا ولا بضـاعة ، وكانت الى امس تتعاجب بمحتوياتها وبضائعها ، وهى وان كانت شحيحة الا انها كانت مزدحمة والسلام ، يتحسر الأطفـال وهم يقبضـون على القروش والملاليم فى أيديهم على عم عـلام ، فمن غيره سيعطيهم اللب والبونبون والحبش وايطاليا والسواريخ وعفريت النسوان ؟ يحيط الناس بالدكانة الصغيرة المحشـورة بين مبنى شركة البنزين وبقالة الوزارة الجديدة ، وتأخذهم أرجلهم الى البقالة الجديدة ، ولكنهم يمتنعون ، فقد أبت عواطفهم الا أن يطمئنوا على الرجـل أولا ، وبعدين حكاية الشراء يحلها حلال ، يحسون بالوحشـة والغربة القاسية لفقد الرجل هكذا وبلا أسباب .

وكان عم علام قلب الشارع الحنون الأليف ، وكانت حياته تغمر الجميع وبلا مقابل ، فهو يلبى طلبات الكل ، تناديه ستات البيوت المستكنات ليأخذ باله من بائعة الطماطم .. فيقول :
ـ حاضر لما تمر أبعتها على العين والراس .

ويسعف العيال الصغار باللعب ، يرضى خاطرهم ويطبطب عليهم بل يصالحهم على بعض فى بعض الأحيان . حقيقة أنه كان بينه وبين نفسه يفتعل السلام مع بعض الموظفين ليكونوا زبائن له ، ولكنه سرعان ما ينسى الدكانة والبيع والشراء ويصبح صديقا للموظفين يصبحون عليه فى الصباح ويمسون عليه فى المساء ، يقف الناس أمام الدكانة والذباب يطن خلالها ، وصورة احدى الممثلات تتطوح على الحائط مقهورة ، تطير فى الهواء ، وتجرى على الأرض أوراق علب المعسل حسن كيف .

كان عم علام كالدينمو الحى الذى لا يهدأ ولا يستقر ابدا ، له أصدقاء وله تجارب وله تاريخه الخاص الذى ينفرد به ويتميز به عن كل الخلق .

انه يحكيه فى معظم المناسبات ، وفى آخر الليل حينما يحلو الجو وتستكن المخلوقات ويشرب نفسين ، ويمر عليه زبون معرفة، ويجر عم علام الكلمة وراء الكلمة والضحكة وراء الضحكة ثم يسكت يومىء برأسه كأنه يستعيد الماضى البعيد ، ويرتب الأفكار فى ذهنه ويلقى بيده اليمنى وعليها كم الجلبية البلدى المغبرة ، وينتزع صوته الأجش الذى تفاعل فيه حزنه مع اتزانه مع شيخوخته ، فأصبح كصوت الديك العجوز المريض الذى يستعيد ماضيه .

يتم كل هذا والزبون يقف ويده على البنك الصغير جدا ،

ويقف وهو مبسوط يشوقه هذا الصـدق الذى ينبعث من صدر عم علام وحركاته ، ويطلب منه قبل أن يتكلم مرة واتنين ، أن يقول له حكمة أو مثلا ، أو يحكى له عن أيام زمان . ويتبغدد عم علام ويزيح طاقيته التى يتعمم عليها الى الوراء قليلا ، وتخرج الكلمات من فمه بطيئة متأنية مع انفاس سيجارته العربى الممتاز :

ـ شوف يا عم . من غير مؤاخذة الحتة دى .. يعنى عندك كده من وراء الوزارة بحوالى عشرين متر لغاية ميدان الدقى ، وخد عندك كمان شـارع سليمان جوهر وشارع عبـاس يوسف وشارع محمد أحمد ، وكل الشوارع الكبيرة دى للنهـاردة .. ويسكت عم علام مطوحا ببصره فى سـقف الدكان ، ويستحثه الزبون قائلا :

ـ مالها الشوارع دى يا عم علام ؟

ويرد عم علام بلهجة مفاجئة :

ـ دى كانت كلها برك يا ابنى ، بركة كبيرة واسـعة فيها السمك للركب ، كانت ريحتها وحشة وكانت عزبتنا احنا اسمها اولاد علام جنب البركة دى تمام .. هنـاك على الطرطوفة القبلية، المهم وبعدين رحت أنا الجيش قعدت تلات سنين وطلعت ، وقدمت اوراقى فى وزارة الزراعة واشتغلت جناينى فنى .

ويدخل عم علام ليلبى طلب الزبون الذى لاحظ عليه القلق انه يريد أن يذهب ، ولكنه يلهفه بكلمتين قبل أن يودعه :
ـ شوف يا ابنى الدنيا دى غرورة فانية ، والانسان مش حياخد منها الا المعروف والكلمـة الحلوة ومحبة الناس والمودة . بشرف النبى انا عاشرت ناس زى الرمل ، مطلعتش بحاجة أبدا غير الصحوبية والانسانية وكلمة الخير .

كان عم علام بعد هـذا كله قد خرج من الوزارة يحمـل أثقال عمره على كفه ، وليس فى صحته الا بقية هزيلة ، ولا فى ذراعيه الشغيلتين قوة يعتد بها ، لم يكن فى جعبتـه الا مكافأتـه التى داخ الى ان استلمها من الوزارة بعد ما حفيت قدماه من اللف من مكتب الى مكتب ، ومن ديوان الى آخر ومن موظف الى زميل ، وكان فى بعض الأحيان يدخل لأحد المديرين ويهتف فيه المدير قبل ان يسترسل فى حكاية مشكلته :

ــ مسألتك مش عندى .. شوف يمكن زكى بيه يعرف يحلهـا ..

ولا يحلها زكى بيه ولا نجيب بيه ولا الأسـتاذ حسنين ، وانما تحل من تلقاء نفسها بمرور الزمن الطويل الذى عذب عم علام وأرهق حواسـه . ويعود عم علام طويلا بمفرده بعد ما فقد امراته التى كانت توده وتملأ حياته رغم مشقتها وعذابهـا ، كانت السلوى والطمأنينـة فى أيامه ولكن ماذا يفعل والموت أقوى منه ؟ وتحمل راسـه فكرة تنضـج رويدا .. رويدا .. لمـاذا لا يفتح دكانة صـغيرة قرب الوزارة وبحـكم معارفه السابقـة سيساعده الموظفون ولو لم يساعدوه فى قبض المكافأة .

وبين مبنى شركة البنزين واحدى ورش تصليح السيارات ، يحط رحاله ويختـار مسكنه ويفتح الله عليه ، ويقبل عليه الجميع من كل لون العيال والموظفون والرائحون والغادون فى الشارع . واصبحت دكانه الصغيرة المحندقة كالعروسـة فى أولى أيامهـا يحب الناس رؤيتها والتمتع بها . وهكذا كانت دكانة عم عـلام ، صغيرة جميلة دمها خفيف تحتوى بين أضلعها الطلبـات العديدة ، اللب والحمص واللعب وأنواع المثلجات . المهم أنها شقت طريقهـا

بسهولة ، وأكرمها الناس بالالتفـاف حولها فى كل الأوقـات ، وانبسط عم علام واحس بالارتياح الذى افتقده بعد تركه الوزارة بل أخذه الغرور الطيب ، فأحضر فى يوم ما صندوقا للبيرة ووضعه فى الثلاجة ، وجاءه السهيرة فى الليل وراح الصندوق فى هـذه الليـلة .

وفى الليلة التى بعدها ، أحضر صندوقين ، لكنه ذاق طعم ثلاث زجاجات وصلت الى أربع فى المناسبات التى تمر به ، وتطورت المسألة الى أن أصبحت له قعدة ومجلس مع زملائه واصدقائه تكون البيرة هى سيدتها .

واحس عم علام انه مرهق ، ولكن أى لذة تعادل لذة البيرة واى لذة تعادل السيجارة بعد البيرة ؟ وسرقته الأيام يوما بعد يوم ، وسرقه الأصدقاء بظرفهم وحواديتهم ولياليهم الملاح . سرقه عم حسين الجزار والشيخ محمدى ريس الجناينية وصديقه القديم . وصحيح أنهم كانوا يدفعون ، ولكن الشكك هو الذى قصم ظهره ، فعلى جدار الدكان يرقم الطلبات الشكك ، وعلى علب المعســل الفارغة يكتب بخطه الكليل الحساب . ومع هـذا ما كان يهمه الشكك ولا جلسات الأصـدقاء ، فالانسان لا يأخذ من الدنيا الا الكلمة الحلوة والمعروف والمودة والعشرة الطيبة .

الذى كسر ظهر عم علام وجعله يفقد روحه ، وتطوف على وجهه سحابة حزن منكسرة لا يعرف لها حلا ، الذى أفقد عم علام صوته الجهورى الفرح هى هذه الدكانة الجديدة ، بقـالة الوزارة الجديدة .

ففى أحد الأيام أحس بالحركة تسرى فى الدكانة المجـاورة . فلقد نقلت ورشة السيارات الى مكان آخر ، وبعد أيام رأى عم

علام الحمولة الكبيرة التى حلت فى الدكان ، حمولة ضخمة من البقالة واصناف البضائع الأخرى . واحس بغصة ، ولكنه لم يتكلم وأصبح اهل العمارات يلقون عليه التحية فقط ولا يقتربون منه ، وكان يحس أن هذه التحية أشبه ما تكون بكلمة العزاء التى لابد منها ، وأى شيء فى يده يستطيع أن يفعله الا أن يتوه فى الصداقات والضحك والمرح . وامتدت جلسات الأصدقاء الى الصباح ، وامتد قلب عم علام سعة ومحبة ، لكنه كان يعيش فى واد آخر . لقد جرب التجارة .. وها هى تذوى امامه البضاعة التى يشتريها وتخلص لا يشترى بدلا منها .. القرشين الشكك يحتار لكى يلمهم من أيادى الناس . ثم ماذا ؟ .. أيستطيع أن يعيش ويده تتقلص شيئا فشيئا ؟ وتحمل عواطفه فكرة جديدة تنمو بسرعة فائقة .

لقد ضاقت الحياة هكذا ، ولو استمر لحدثت مصيبة لا يستطيع ردها ، وماذا اخذ من المدينة ؟ وتعود عواطفه الى القرية ، الحصيرة والمسند المفروشين فى الخلاء ، وقلة الماء تحوطهما وأهل قرية أولاد علام ؟ قرية جدوده وأقاربه يستشيرونه فى أمورهم فهو الرجل الذى لف وتوعك وجرب ؟ ونساء البلد وهن يعرضن عليه مشاكلهن .

لقد جرب هذه الحياة وقتا قصيرا قبل أن يفتح الدكانة ، وياريت يعود اليها . وما هو المانع ؟ الدكانة لا تحتوى على شيء يذكر . والليل هو الستر الذى يخبى المتدارى .

ويلم عم علام كل شيء ويرحل الى القرية ، ويلقى بنظراته المتحسرة على الدكانة فى ضوء الليل الباهت العليل . ويمتد الليل وعم علام يوغل فى السير الى القرية ، والمدينة تقذفه بأضوائها تتحداه وتودعه بمزيد من الشفقة ..

وفى الصباح يقف الناس أمام الدكانة ولا يدرى احد كيف غطس عم علام من الشارع فجأة هكذا ؟ وكان الى يوم امس يملؤه بالحيوية والنشاط ؟ ويهلل بيديه رافعا ذيل جلبابه الفضفاض .

دنيا .. ماحدش واخد منها حاجة غير المعروف والعشرة الطيبـة .

دراســة نقديــة

بقـلم

عبد المحســن طه بدر

فاروق منيب ، كاتب شـاب من كتاب هــذا الجيل الذى لم يسمع صوته بعمق كاف بعد . ومن هذه الحقيقة تنبع مسئوليته، وعلى ضوئها يقاس انتاجه الأدبى .

ونحن اذا تأملنا فى ادبنا العربى الحديث ، نواجه بحقيقــة خطيرة وهى ان ذلك الأدب سواء أكان ذلك فى ميــدان القصــة القصيرة أم فى غيرها من الميادين ، لا يعبر عن واقع المرحلة التى يمر بها مجتمعنا العربى المعاصر ، هــذا المجتمع الذى يحــاول الكشف عن كل قواه الدفينة ، وعن العوامل التى تتلاعب بهذه القوى أو تعوق حركتها ، كما ان هذا الأدب لم يعبر عن نفسية هذا الجيل بما فيها من قلق ورغبــة فى الخروج منه ، وضعف ومقاومة لهذا الضعف وتحمل لمسئولية الحياة ، ورغبة فى النهوض بهذه المسئولية .

واذا تأملنا هذه الحقيقة على مستوى القصــة القصيرة ، لوجدنا ان اغلب انتاجنا فى هــذا الميدان يعمد أحيانا الى النظرة السطحية الى الواقع فيقدم الاثارة الجنسية المتعمدة ، أو يهدف الى التشاؤم الفردى ، أو التفاؤل الساذج الذى يدفع بصاحبــه

الى عالم الشعارات والدعاية . كما أن هـذا الانتاج يقدم فى أحيان أخرى عوالم خيالية لا تعيش الا فى رءوس أصحابها ويسيرها القدر والمصادفة والمشاعر الرومانسية .

وليس معنى ذلك أن انتاجنا فى هـذا الميـدان يخـلو من المحاولات الجـادة ، التى تحاول النفوذ الى هـذا الواقع والتعبير عنه ، كمحـاولات يوسـف ادريس والدكتـور شـكرى عيـاد وعبد الرحمن فهمى ــ على قلة انتاجه ــ ولكن هذه المحـاولات بالاضافة الى محـاولات مجموعة أخرى من الشـبان لم تتبلور اتجاهاتهم بعد ــ لا تكفى للتعبير عن هـذا الاتجـاه وانمـا هى علامات على الطريق .

وعلى ذلك فان دور أدبائنا الشبان يتمثل فى أن عليهم أن يواجهوا واقعهم بشجاعة ، وأن يعبروا مخلصـين عن أحاسيسهم بصورة تجعلهم قادرين على الكشف الصادق عن واقعهم وواقع مجتمعهم من غير انحراف الى الاثارة المتعمدة أو الدعاية السطحية أو الهروب الى عالم هلامى من الخيالات والأوهام .

وقد حاول فاروق منيب فى مجموعته القصصية أن يكون مخلصا فى التعبير عن نفسه ، وعن مجتمعه ، فما مدى نجاحـه فى هذه المحـاولة ؟ ان هذه الدراسة فى الواقع ليست الا محـاولة للاجابة على هـذا السؤال .

وقبل أن أجيب على هـذا السـؤال يحسن أن أوضـح للقارىء حقيقة تتصل بمشاعرى وأنا أكتب هـذه الدراسـة . فأنا لا أستطيع أن أنكر أن ما يسيطر على مشاعرى لايمكن أن يمت بصلة الى مشاعر الناقد الكبير الذى يقدم كاتبـا جديدا

الى القراء متعاطفا معه متجـاوزا عن اخطائه . فالواقع انني لا استطيع ان أزعم لنفسي هذه المكانة وذلك لأنني بكل بسـاطة ما زلت كاتبا جديدا يجاهد قدر ما يستطيع كي يكتمل تطوره الأدبي . كما ان اسمي لدى القراء ليس له من التأثير ما يجعل القراء ينقادون لحكمي ويحكمون على انتاج الكاتب من خلالي .

وانما يسيطر على مشاعري احساس آخر ينبع من جو بعض ندواتنا الأدبية التي كانت ـ وما تزال ـ تمنحنا نوعا من العزاء عن انغلاق المجال الأدبي أمام انتاج ادبائنا الشبان ، مما يجعل من هذه الندوات ضرورة ملحة بالنسبة لهم يتناولون فيها انتـاج بعضهم البعض بالتحليل والنقد .

وقد كنا ندرك في مثل هـذه الندوات ، ان الأدب العربي يسعى لمرحلة عليا من مراحل تطوره ، وانه في هـذه المرحلة اشبه بحقل تجارب يتقبل كل شيء ولا يكاد يرفض شيئا ، واننا حين ننظر الى العمل الأدبي بمقياس ما هو كائن فعلا ، فاننا نستطيع ان نعتبر كل انتاج ادبي مرحلة من مراحل هـذا التطور ، وان كاتبه لذلك يستحق التهنئة ، وكفى الله المؤمنين القتال .

أما اذا نظرنا لهذا الانتاج بمقياس ما ينبغي أن يكون ، فان المناقشة في هـذه الحـالة تشتد وتحتدم وتتجـه الى نوع من الصرامة قد تبعث أحيانا على الضيق .

وحين أحاول الاجابة على السؤل الذي عرضته عن مدى نجاح زميلنا فاروق في محاولته فانني سأجيب على هذا السؤال بروح هذه الندوات وسأنظر الى المجموعة بالمنظارين معا . ومن هذا يبدو انني سأحكم على هذه المجموعة حكما تتمثل فيه روح المقال النقدي لا روح المقدمة .

* * *

وبعد .. فان اخلاص فاروق منيب فى محاولته يتمثل أولا فى أن قصصه تدور داخل الاطار الذى عاش فيه الكاتب . فحياته تدور على محورين رئيسيين : حياته فى القرية ، وحياته فى المدينة والصلة التى تربط بين المحورين تتمثل فى ان هذه الحياة لم تكن بالناعمة الميسورة من جهة كما انها من ناحية أخرى ــ ورغم الزوابع العنيفة التى تعرضت لها ــ لم تبلغ من القسوة الى الحد الذى يسحق تماما من يمارسها .

فمن دخل بضعة افدنة عاشت أسرة فاروق الكبيرة العدد نسبيا ، بصورة لا تسمح لأفرادها بالانعزال فى ابراج الارستقراطية فزالت الحواجز بينهم وبين بيئتهم ، واختلطوا بتراب بيئتهم وعرقها وتفتحت نفوسهم على ما فى الريف من بساطة واستقامة رغم ما يزخر به من مآس . وأحسوا بؤس الفلاح الذى يدفع الى الجريمة وانطلقوا فى حوارى القرية الضيقة ولعبوا مع اطفالها .. ولكن وضعهم المادى هيأ لهم الفرصة كى يصيبوا قدرا من الثقافة والوعى يجعلهم يحسون بما فى الريف من مأساة وولد فى نفوسهم وفى نفس كاتبنا الطموح الى حياة افضل سواء بالنسبة لنفسه او بالنسبة لمجتمعه ..

وانتقل فاروق الى المدينة ، وعاش فيها ايضا حياة المكافحين فلم تتح له الحياة الفرصة ليستريح وأحس البؤس والحرمان فى المدينة كما احسه فى الريف . احسه فى نفسه وفى المكافحين من حوله . بل ان بساطته الريفية صدمته بما فى المدنية من تعقيد والتواء يضاف الى ما فيها من بؤس فاحتفظ فى جانب من جوانب نفسه بحنين خفى الى قريته .

وهذا الاحتكاك المستمر بالحياة ، أعطى فاروق منيب

فضيلته الثانية . فهو لم يهرب من الحياة ولم ينعزل ولم ينغلق على آلام نفسه وحدها . ولكن وجد آلامه منعكسة على حياة الآخرين بصورة ربما كانت أشد . فلم يقف فاروق ليتغنى بآلامه واحلامه الذاتية بل انه صور هذه الآلام والأحلام من خلال الآخرين .

ونتيجة لذلك ، فان قصص فاروق منيب تدور على تصوير حياة المكافحين سواء أكان هؤلاء المكافحون يعيشون فى الريف أو فى المدينة تصويرا يكشف فى الوقت نفسه عن آلام الكاتب واحلامه وعن رغبته فى حياة كريمة لهم ولنفسه . واذا كان فاروق كما سبق أن قدمنا لم ينغلق على مأساته الفردية فان ذلك قد ساعده على ان يتخلص من كثير من المعوقات التى تحول بين الأديب وبين التعبير بصدق عن الواقع .

ولأنه مأساته ممثلة فى مأساة الآخرين عبر عن هذه المأساة من خلالهم .

واحس كأنه واحد منهم ، فلم يحاول أن يفرض وجوده عليهم أو ان يتكلم وحده على لسانهم ، ولكنه تركهم يعبرون ببساطة عما فى نفوسهم ويتكلمون لغتهم . كما أن فاروق وبدافع اعطاء الحرية لشخصياتهم ليعبروا عن انفسهم ببساطة لم يلجأ الى الفلسفة التى يفرضها الكتاب على ابطالهم ، كما انه لم يلجأ الى الوعظ والارشاد ولم يلجأ الى الرمزية الا بصورة خفيفة قد لا تحس لأنها لا تطمس الواقع ولا تشل تطوره لصالح الرمز .

واذن فان فضيلة فاروق منيب ببساطة هى محاولته التعبير عن واقعه وأحاسيسه من خلال البيئة التى عاش فيها

والطبقات التى احس بمأساتها تتوحد وتذوب مع مأساته الخاصة . وبذلك يكون قد حاول التعبير عن واقعه وواقع مجتمعنا العربى المعاصر من خلال الاطار الذى عاش فيه . ولكننا نعود من جديد لنتساءل :

الى اى مدى نجح فى هذه المحاولة ؟

* * *

لكل كاتب من الكتاب ــ اذا كان فى الكاتب حياة ــ مراحل تطور لوعيه تتأثر بثقافته وبتجاربه وتعمق احساسه لهذه التجارب . وهذا التطور النفسى للكاتب هو الذى يفرض على الكاتب مضمون قصصه ويؤثر بالتالى على الصياغة الفنية لهذه القصص . اى ان وعى الكاتب من وجهة نظرنا هو الذى يؤثر على مضمونه وصياغته فى شكل حلقات متتابعة تتأثر كل حلقة منها بسابقتها وتؤثر فى التى تليها . وسنحاول أن ننظر من خلال هذه النظرة الى قصص الكاتب مع وعينا بأن مراحل تطور الشخصية الانسانية لا يمكن الفصل بينها بخطوط واضحة ، ولكن طبيعة الدراسة هى التى تدفعنا الى هذا التقسيم .

والمرحلة الأولى من مراحل تطور الكاتب النفسية تمثل المرحلة الأولى من مراحل تفتح وعيه على الحياة ، وهى مرحلة يمكن تشبيهها بمرحلة الطفولة . اذ ينظر الانسان فيها الى مظاهر الحياة فيعجب بحركتها ويدهش لتصرفات البشر فيها ، ويرضى ويغضب وينفعل ويخيل اليه أن أحداث الحياة منفصلة وغير مترابطة وان كل حدث يكمل دورته منفصلا عن الأحداث الأخرى وهو فى هذه المرحلة يدرك الظواهر ولكنه لا يعى تماما الأسباب التى تحركها ولا يدرك الخيوط الخفية التى تربط الأحداث بعضها ببعض ، والتى تجعل لكل حدث من الأحداث ، مهما كان

بسيطا ، دلالته على طبيعة النفس البشرية من ناحيــة ، والظروف التى تحيط بها من ناحية أخرى . والقصاص فى هذه المرحلة من مراحل وعيه يكتفى بنقل الحدث الخــارجى كما هو من غير ان يعطينا من خــلال تصويره للموقف احساســا عاما يربط بين اجزاء الحدث ويجعل حدوثه طبيعيا فى الوقت نفسه . وهو فى هذه الحــالة لا يعطينا قصة قصيرة مكتملة الشروط الفنيــة . ولكنه يعطينا صــورة لحدث من الأحداث . والصــورة لا توحى بالترابط بين أجزائها وهى تعطى الكثير من التفاصيل التى قد تكون لها اهميــة وقد لا تكون ، لأن الرابط والمحور الذى تدور عليه القصــة لا يكون ظاهرا بحيث يربط الجزئيات بهــذا المحور الذى يدور عليه الموقف او الحدث . ومع ذلك فان موهبــة الكاتب تؤثر حتى فى تقديمه للصورة ، فبعض الصور تكون مهلهلة بصورة تخرجها كلية من نطاق الفن وبعضها الآخر يعطينا صورة لا تخلو خلوا كاملا من دلالة ، ولكن هــذه الدلالة تكون مختفية خلف كثير من الحجب ولكنهــا تكون متماســكة نسبيا وتدل على مهــارة الكاتب .

ومجموعة فاروق منيب لا تخــلو من قصص تمثل هــذه المرحلة وابرز هــذه القصص تتمثل فى قصتين هما : « نظريــة الهندسة ، ع الحساب »

فقصة « نظرية الهندسة » تمثل طالبا فاشلا دفعته المصادفة ذات يوم الى تزعم رفاقه فى مظاهرة من المظــاهرات . ومن يومها احس الطــالب احساسا زائفا بأهميتــه ، ولكن غروره هــذا تحطم فى الامتحان حين حاول أن يغش فانتهى الأمر بطرده من اللجنة ، وبرغم ان فاروق وفق فى ابراز الصــورة الا ان القارىء لا يلبث بعد قراءة القصــة أن يتساءل ؟ ما هو الاحساس الذى

يحسه الكاتب نحو الطالب ؟ هل الكاتب يشعر بالشماتة نحو هذا الطالب المغرور الذى تحطم غروره على صخرة الامتحانات ؟ ان هذا الشعور لا يمكن ان يعطينا فنا صادقا تماما ، لأن تعاطف الكاتب مع ابطاله هى سمة رئيسية من سمات الفنان ، واذن فهل يريد فاروق أن يثير فى نفسنا شعورا بأن شروط حياتنا السابقة كانت تساعد على خلق زعامات وهمية ، ولكن هذا التساؤل يجعل القصة محشودة بالكثير من التفاصيل التى لا داعى لها ، كما ان تحطم زعامة الطالب نفسه تجعلنا نشك فى هذا التساؤل ، واخيرا هل أراد فاروق ان يشعرنا بقسوة انظمة الامتحانات ، وانها تسحق نفسيه الطلبة ، الواقع ان هذا الاحتمال يبدو اكثر بعدا ، لأن تصوير الكاتب للموقف كان يشعرنا بأن الطالب يستحق المصير الذى انتهى اليه وهكذا تتركنا القصة فى حيرة ، ولا تشدنا بانفعال عام يشدنا اليها ويربط بين جزائها .

وتشترك قصة « ع الحساب » مع قصة « نظرية الهندسة » فى هذه الحيرة التى تسببها للقارىء ، فهى تقدم صورة مدرس خرج من بيته متفائلا يشعر بجمال الحياة ويحلم حين عودته بأكلة طيبة وبحنان زوجته ، وان كان الكاتب يقحم على هذه الصورة المشرقة صورة كلبة غاضبة ، ويذهب الرجل الى المدرسة وقد عزم على « كروتة » أعماله بها ، ولكنه يفاجأ بأن أحد الطلبة قد شمع له السبورة فتتغير حالته النفسية بصورة سريعة ، وان كان منطق الأحداث يوحى بأن المدرس ما دام متفائلا سينظر الى هذا العمل من جانبه الفكاهى . ثم يدخل المؤلف فى تفاصيل توضح لنا موقف المدرس وهو يشرح درسه للتلاميذ ، ثم لا يلبث أن يكتشف الطالب الذى شمع السبورة فيضربه ويهدده ، ولكنه فى النهاية يتراجع عن هذا التهديد حين يعلم بأن هذا التلميذ هو ابن البقال الذى يتعامل معه المدرس

« ع الحساب » . والقارىء يجد نفسه حائرا ايضا حين يحاول اكتشاف مشاعر المؤلف فى القصة ، فهل القصاص يريد أن يشعرنا بأن الاحتياج المادى أفقد المدرس جزءا من كرامته ، الواقع ان مدرسنا لا يشعرنا بهذا الشعور لأنه لا يبدو مخلصا فى عمله ، فهل يريد المؤلف أن يشعرنا بأن قسوة الحياة المادية تدفع المدرس الى عدم الاخلاص فى عمله ؟ الواقع ان تفاصيل القصة لا تشعر بأن المدرس كان يرغب فى ان يكون مخلصا ؟ الى غير ذلك من الاحتمالات التى تتركنا غير مستقرين ، وتجعلنا نشعر بأن التفاصيل التى أوردها القصاص قد تكون أحيانا غير مبررة ، وهذه طبيعة القصة حين تقدم لنا صورة فهى تقدم لنا أكثر من شعور ، ولكن شعورا منها لم يوضح توضيحا كافيا وهى لا تترك حدا فاصلا بين الصور والجزيئات التى كان ينبغى للقصاص ان يذكرها او ان يتجاوز عنها .

* * *

ولكن فاروق لم يقف طويلا عند هذه المرحلة سواء فى تطوره النفسى أو الفنى ، ولكن أقدامه ما لبثت ان ثبتت ونظرته للحياة ان اتسعت وعمقت ، ولم يعد ينظر الى الحياة نظرة المتأمل الذى يرى الحياة الانسانية كعلاقات منفصلة غير مترابطة ، ولكنه اصبح يرى ما وراء المظاهر ، وكان أول ما تفتحت عليه عينه هوالشقاء . الشقاء الذى لمسه فى كفاحه مع الحياة ، والشقاء الذى يعيش فيه المكافحون فى الريف ، ولكنه لم ينظر الى هذا الشقاء نظرة مجردة وانما احس بأن خلف هذا الشقاء اسبابا دفينة المسئول عنها هم البشر وتصرفاتهم وعلاقة بعضهم ببعض .

ومن الطبيعى ان يكون لهذه المرحلة من مراحل تطور الكاتب

النفسية أثرها على مضمونه وفنية قصصه ، اذ نجد ان دلالات القصص تأخذ فى الوضوح والتبلور ، والنتيجة المنطقية لذلك ان تكون القصص أكثر تماسكا وترابطا واقرب الى النضوج الفنى نتيجة لوعى الكاتب بتجربته . وتتمثل هذه المرحلة بوضوح فى اربع قصص من قصص الكاتب وهى : القمح ، والدرمللى ، ودنيا ولقاء .

وهذه القصص تدور حول البيئة الريفية أو حول أشخاص ريفيين انتقلوا من الريف الى المدينة ، ولكنهم ببساطتهم وطيبتهم لم يستطيعوا التلاؤم مع المدينة وقسوة الحياة فيها وانغلاق أفرادها على انفسهم وتفرغهم للصراع القاسى فى معركة العيش ، وبرغم أن الدرمللى قد يخرج عن هذه القاعدة الا ان المتأمل لشخصيته يدرك ان طبيعته ريفية أو تقرب جدا من أن تكون ريفية .

وبرغم أن هذه القصص تمثل مرحلة واحدة من مراحل التطور النفسى للكاتب ، والتى تتمثل فى احساسه ووعيه بالظروف التى تسبب شقاء الانسان وتعوق انطلاقه ، الا أنها تختلف من حيث درجة نضجها الفنى ، ففى الوقت الذى تبلغ فيه « قصة لقاء » درجة كبيرة من النضج تجد القصص الأخرى لا تعلو الى مستواها .

فقصة « القمح » ـ ولو أنها تصور نموذجا من حياة بعض الناس فى عهد الاقطاع ـ تقدم لنا انسانا ريفيا طيبا من أسرة عريقة فى الطيبة والاستقامة ، دفعه جوعه وجوع أطفاله فى الوقت الذى كان يتكدس فيه القمح فى مخازن طبقة المستغلين البيض الوجوه المنعمين الذين كانوا لا يحسون ببؤس الآخرين من حولهم الى الانحراف والسرقة وتكتشف سرقته ، وتنتهى القصة بسخرية مريرة من الكاتب وفق فيها الى حد كبير ، اذ أن عمدة

القرية قرر أن يحل المشكلة وديا فجمع مجلس القرية المكون من الشخصيات المترفة ، وقرر المجلس فى جلسته الموقرة تغريم السارق خمسة جنيهات . اى أن السارق الذى لم يجد خمسين قرشا ليشترى بها كيلة من الحبوب لأولاده كان عليه ان يقدم لهم الجنيهات الخمسة ، وفى الوقت الذى كان السارق يصرخ فيه بمأساته معلنا عجزه عن دفع قرش من المبلغ كان السادة الموقرون يتفرقون وهم يضحكون ، وكان العمدة مشغولا باثبات أهميته ، وكان من الممكن للقصة أن تؤدى غرضها داخل هذا الاطار لولا أن فاروق اراد أن يقدم لنا تصويرا كاريكاتيريا لشخصية أحد الخفراء كان يحس بالملل ، فتتبع السارق ليقبض عليه ولكنه لم يوفق حتى فى هذا ، وشخصية الغفير فى حد ذاتها شخصية طريفة ، وان كانت لا دور لها فى القصة ، وذلك فى الوقت الذى مر فيه مرورا سريعا جدا على نقطة التحول الرئيسية فى القصة والتى يدور فيها الصراع فى نفسية البطل بين ماضيه وماضى أسرته المشرف وبين رغبته فى اطعام أولاده ، ذلك الصراع الذى انتهى به الى أن يتحول الى سارق .

وتكاد تشترك قصة « الدرمللى » مع قصة القمح فى المميزات والعيوب ، فهى قصة غنية بتجربتها الخصبة . والدرمللى انسان يحس بالوحدة الشديدة فى المدينة وخاصة بعد ان هجرته حبيبته وهو يحس من لامبالاة الناس به كأن جدارا من الثلج يحول بينه وبينهم وهو خائف من وحدته وهو يحس بحاجته الى اذن تنصت لمشكلته ويغرق الدرمللى خوفه ووحدته فى الخمر ، ويستمد من الخمر الشجاعة على تحطيم الجدار الثلجى بينه وبين الآخرين ، ويركب الدرمللى الأتوبيس ويفلح بعد مجهودات فى تحطيم جمود السائق والركاب ويبدأ فى نفض مشكلته أمامهم ، ولكن فاروق وفى هذه اللحظة الحاسمة يتجه بالقصة اتجاها

آخر يصرفنا عن مشكلة الدرمللى الرئيسية الى مشـكلة اخرى فرعيـة بدات بدخول مفتش الى الأتوبيس سـأل الدرمللى عن تذكرته ، ولكن الدرمللى كان قد أضـاع تذكرته . وتنتهى المشكلة بذهابه هو والمفتش الى قسم البوليس .

وقصة « دنيا » لا تختلف عن قصة الدرمللى فى انهـا تقدم الينا نهايـة مزدوجة ، فهى تصـور لنا قصة انسان ريفى بسيط افتتح لنفسـه « دكانا » صغيرا فى حى من أحيـاء « الدقى » واستطاع بطبيعته البسيطة الودودة الخيرة أن يكسب ود جميع سكان الحى برجاله ونسائه واطفـاله . ولكن طبيعتـه الخيرة الكريمة هذه هى التى تسببت له فى الخراب لأنه كان يؤجل الدفع لزبائنه من ناحيـة ولأنه كان من ناحية أخرى اخذ يبيع البيرة اولا ثم أخذ يشربها ، ودفعـه كرمه الريفى لتقديمها لرفاقه وأوشك على الخراب ، فأحس الحنين الى قريتـه حيث يمكن للبساطة والكرم أن يعيشا ، واصبح النـاس فاذا به قد اختفى ، ولكن فاروق لم يقف بقصته عند هذا الحد بل قدم لنا مشكلة اخرى يمكن أن تستغنى عنها ، اذ جعل سبب خراب الرجل افتتـاح دكانـة كبيرة اكثر نظاما وترتيبـا بالقرب منه ، فأخذ زبائنـه ينصرفون اليها .

وتعد قصة لقاء تتويجا لهذه المرحلة من مراحل تطور الكاتب النفسية والفنية وهى قصة ناضجـة من الناحيـة الفنيـة . وتجربتها مكتملة والمحور الذى تدور عليه أحداثها يضم جميـع جزئياتها وهى تصـور لنا فتاة تعمل خادمة عند اسرة من الأسر الريفية الميسورة الحـال وهى فى الوقت الذى تتحمل فيه العمل الشـاق ليس لها نصيب من افراح هـذه الأسرة ، وانسانيتها مهدرة الى حد بعيد ، ويبدو موقف الفتـاة من خلال اعتزام رب

الأسرة زيارة القاهرة والنزول عند أحد أقربائه وكان اخو الفتاة يعمل خادما عند هـذا القريب فى القاهرة وبينما الأسرة تستعد للسفر وتعد أحسن ملابسها لم يفكر أحد فى الخادمة التى كان عليها أن تذهب معهم بمظهرها البائس وقدميها الحـافيتين ولكنهم حين احتاجوا لمن يحمل لهم اثقالهم كان على الخادمة أن تحمل ، وبينما كانت الأسرة كلها سعيدة ومشغولة بالسفر والأب يظهر اهميته بشتى الوســائل لم تكن الخادمة تحس اى شعور بالبهجة وانما كانت تشعر بالحزن الذى يملؤها بالأسى لمغادرتها لقريتهـا واسرتها .

وفى القطار بينما كانت الأم تطعم أبناءها من الطعام الذى حملته كانت الخادمة تنزوى وحيدة لا يسمع أحد صوت رغباتها ، وكان عزاء الخـادمة الوحيـد انها ستلقى اخاها ابراهيـم فى القاهرة . وتمضى القصة مصورة لنا اهتمـام الأسرة بنفسها والشقاء والنفى اللذين تعيش فيهما الخـادمة ، وحين تصـل الأسرة الى بيت أقاربها فى القاهرة يقدم الكاتب لحظـة التنوير التى تسلط على أحداث القصــة كلها وتنيرها ، فبينما تنشغل الأسرتان بمظـاهر الترحيب التقليدية المصطنعة والتى يظهر زيفها من بعض اللمسات البارعة التى أوردها الكاتب فالأم الريفيـة ترد تحية قريبتها ولكنهــا لا تنسى أن تستعرض ثراءها فتخرج مصاغها لتلبسه والمضيف يرحب بقريبه ولكنــه يلقى نظرة حافلة بالمعانى على الهدايا التى حملها ضيفه اليه ، وتقف هـذه الهدايا حائـلا بين زينب وابراهيم اذ تصــدر اليهمـا الأوامر بحملهـا فلا يستطيعان تبادل كلمة وبينما تجتمع الأسرتان فى بيت المضيف تقف زينب وابراهيم يواجهان بعضهما البعض وقد حرمت زينب من عزائها الأخير فى أن تضم شقيقها أو تسمع كلمـة حنان منه ؛ ولكن عيونهما تتبادل نظرة حافلة بالشـوق والأسى واللوعة ،

ونحس نحن بانسانيتهما المهدرة وبحزنهما يقبض على نفوسنا .

* * *

ولكن فاروق لم يقف فى تطوره النفسى عند هذا الحد من الاحساس بالشقاء الانسانى ، والذى تسببه عوامل معينة تعوق انطلاقة الانسان ، وتسبب له هذه الأحزان وتهدر انسانيته وكرامته ولم يستطع أن يستسلم للشعور بالحزن واليأس او أن يقف منهما موقفا سلبيا ، وذلك لأن فاروق يريد أن يعيش حياته ويريد للآخرين أن يعيشوا حياتهم ايضا . وآمن فاروق بأن عليه وعلى الآخرين أن يقاوموا هذا البؤس والشقاء بكل ما يملكون من قوى . وبدأ خيط جديد ينضم الى نفسية فاروق والى قصصه . فالى جانب شعور فاروق بالشقاء الانسانى ظهر شعور جديد هو رغبة فاروق فى مقاومة هذا الشقاء . بدأ هذا الشعور فى نفس فاروق واثر على قصصه وتطور هذا الشعور حتى اكتمل واتضح وتأثرت قصصه بذلك أيضا حتى وصلت الى مرحلة النضج والاكتمال .

وقد بدأ هذا الشعور فى نفس فاروق ولكنه بدأ غامضا هلاميا يحوطه الضباب ، ولم يكن فاروق قد أجاب بعد على كثير من الأسئلة التى لابد للانسان من الاجابة عليها قبل أن يقتنع بالمقاومة اقتناعا حقيقيا . لماذا نقاوم ؟ وفى سبيل من ؟ واذا لم يقدر لنا ان نقطف ثمرات مقاومتنا ، فما جدوى المقاومة ؟ وما الذى يضمن لنا أن هذه المقاومة ستأتى بنتيجة ؟ وما العامل الأساسى الذى نعتمد عليه فى هذه المقاومة ، ولم يكن فاروق قد أجاب بعد على هذه الأسئلة ، فكانت رغبته فى المقاومة شعورا منفصلا لم يجد صداه بعد فى الواقع ، كان هذا الشعور عند فاروق فى اول أمره أشبه بفكرة مجردة .

وتعبر قصة الترابيزة التعبير الصادق عن هذه المرحلة فى انتاج فاروق ، فان هـذه القصة تصور لنا طالبا ريفيا يعيش فى المدينة فى أبأس ظروف ، وهو يعد نفسه كى يكون طبيبـا ويحلم فى حرمانه هذ! بالمتع التى ستتحقق له بعد تخرجه وهو يكاد يكون محروما من كل شىء حتى من منضـدة يذاكر عليها دروسـه ، وذات يوم يشتد شعوره بالحرمان ويتركز هـذا الشعور حول حرمانه من « الترابيزة » فيقرر أن يصنع لنفسه واحدة . وبعد محاولات دون كيشوتية يفلح فى صنعها وترد اليه هذه المحـاولة شـعوره بالاطمئنـان . والقارىء لا يستطيع ان يتقبل قصـة « الترابيزة » الا اذا أعطى القصـة معنى رمزيـا تمثـل فيه « الترابيزة » فكرة مقاومة الطالب لحرمانـه بأية صـورة من من الصـور وتغلبه على هذا الحرمان . وهذه المقاومة فى الحقيقة لا تتجـه نحو هـدف محـدد وانمـا هى أشـبه بمحـاولات « دون كيشوت » لأن الطالب وجه مقاومته فى القصة الى ما يشبه الفراغ ولعل هـذا هو ما جعل الرمز يختلط بالواقع فى القصـة ولذلك تبدو القصة غير مقنعة .

وتجاوز فاروق هذه المرحلة الضبابية الغامضـة ، وبدأت الاجابة على التساؤلات تتضح له من خلال تجاربه بل من خلال ظروفه الخاصـة . ففاروق تزوج وبدأ يمارس الشعور بأبوته التى تحققت واحس ان الخير الذى يمكن أن نحققه بجهـادنا قد لا نتمتع به نحن بل سيتمتع به ابناؤنـا ، وان ما يدفعنـا الى الثقة بنتيجة مقاومتنا هو ما ادركه فاروق من ان كل انسـان يحمل جانبا طيبا وخيرا وان هـذا الجانب الطيب قد يختفى وقد تخلقه الظروف القاسية ولكنه كامن فى نفوسـنا ينتظر اللحظـة المناسـبة .

وقد أعطانا فاروق من خلال شعوره بالأبوة وبالخير الكامن

فى الانسان مجموعة كبيرة من القصص بلغ الكثير منها مرحلة طيبة من مراحل النضج والاكتمال .

ويظهر احساس فاروق بالأبوة متمثلا فى المجموعة فى ثلاث قصص : « حفنة تراب ، والديك الأحمر ، والصورة » .

واذا كانت قصة حفنة تراب مفككة نسبيا فان قصة الديك الأحمر ، وقصة الصورة قد بلغتا درجة كبيرة من الجودة وان كان لنا على كل منهما ملاحظة لا تؤثر عليهما كثيرا ، فنحن كما سبق أن قدمنا فى مرحلة التجربة وما أندر القصة التى لا يجد الناقد ما يلاحظه عليها فى أدبنا .

ويرجع التفكك فى قصة « حفنة تراب » الى انها تصور لنا خواطر انسان يسير فى جنازة والده حتى يدفن الوالد ، وحين يعود الى بيته ينظر الى صورة والده فيشعر بالعزاء لأنه يجد تشابها بين ملامحه وملامح الصورة فيدرك أن حياة والده مستمرة من خلال حياته هو ، وسبب التفكك يرجع الى أن خواطر بطل القصة لا تؤدى بالضرورة الى نهايتها . أى أن القارىء يمكنه أن يختار أكثر من نهاية للقصة غير التى اختارها الكاتب ، ومع ذلك تظل القصة كما هى ، وهذا يكشف عن أن بناء القصة غير مكتمل تماما .

أما قصة الديك الأحمر فتمثل لنا صلابة أم مات زوجها وتركها فى حالة شديدة من الفقر وترك لها ابنا أصرت على أن تعلمه فى المدرسة . ولكن المدرسة تطرده فى يوم من الأيام من أجل المصاريف ، ولا تجد المرأة أمامها سوى أفراخها التى تمثل لديها كل ما تبقى لها من الدنيا . فيدور فى نفسها صراع بين ذهاب ابنها الى المدرسة وبين اعزازها لطيورها التى تقرر فى النهاية

بيعها ويرصد المؤلف رصـــدا موفقا الصراع بين محبتها لطيورها ومحبتها لابنها التى تتغلب دائما ، ولكنهـا تترك فى نفسها شعورا بالضيق ينتهى ببيعها الطيور ، حيث تحصـــل على المصـــاريف ويعود الهدوء النسبى الى نفسها .

وقصة الصورة تشارك قصة الديك الأحمر من ناحيـة الجودة والنضج ودقة التصـــوير ، فهى تصور لنا موظفا بسيطا اراد بعد عشرين عاما ان يلتقط له ولأسرته صورة ، ونحس أن وجود الموظف كله قد اصبح مرتبطا ومركزا على هـــذه الصورة وهو يبذل جهدا جبارا كى يبدو فى مظهر الرجل العظيم ولو مرة فى حياته . والى أن يزيل العبوس الذى رسمته قسوة الأيـــام على ملامح زوجته ولو لحظة الصورة وكأنه بذلك يتحدى حياته كلها ، وافلح فى ذلك أول الأمر ولكنـــه افسد كل ذلك حين انفجر فى وجه المصـــور الذى سمح لنفسه بلمس خد زوجتـــه وهو يعدل من وضعها وانتهى الأمر بأن ظهرت الصورة . ولكن ظهر فيهـــا كالمسخ وظهرت زوجته بعبوسها المعهود ، وكره الصـــورة أول الأمر ولكنه رضي عنها بعد ذلك الرضـــا التام من خـــلال انها تظهر أولاده فى صورة مشرقة . والقصة كما قلنا متطورة الحـــدث مترابطـــة الجزئيات ، ولا ينقصـــها الا كون فاروق لم يشر الى الباعث الذى فجر الرغبة فى التقاط الصـــورة فى نفسية هـــذا الموظف وفى هـــذا اليوم بالذات .

اما ايمـــان فاروق بالخير الذى يكمن فى نفس الانســـان فيتمثل فى قصتين موفقتين ايضـــا وهما : « شـــقاوة عيـــال » و « انسان » . فقصة « شقاوة عيال » تمثل لنا الخير الفريزى فى الانسان فى صورة علاقة بين طفلين . خادم وابن سيدته وترســـل السيدة الخادم لشراء اشياء لسيده الصغير ، ولكنه يتأخر وتصر

سيدته على ضربه وتطلب من طفلها الصغير أن يحضر « المقشة »
ولكن الطفل يذهب ويلقى المقشة من الشباك ، ويزعم لوالدته
انه لم يجدها ، ولكن السيدة تضرب الخادم حتى تمل وتتركه
بعد أن تعبت من ضربه ، ولكن الطفل الصغير يتقدم اليه فيخفف
ألمــه فى حنان طفولى ساذج ولكنـــه مؤثر . والقصة موفقة وان
كان يؤخذ على الكاتب كثرة التفاصيل .

أما قصة « انسان » فتمثل شخصية باشكاتب كان يرعب
الموظفين بقسوته وانذاراته وتهديداته بصـــورة بلغت حدا كبيرا
من التطرف والمبالغة ، ولكن حادثة وقعت اظهرت كل انسانيته
الكامنة . اذ مات أحد موظفى الديوان وهما فى الطريق اليه معـا
وتفجر هـــذه الحادثة كل الانسانية الكامنة خلف مظهر الباشكاتب
القاسى ، فيجتمع الموظفين ويتكلم معهم كلاما رقيقا بينما تتساقط
عبراته . والقصة موفقة فى أغلبها ولا يؤخذ عليهـــا الا ان التحول
فى نفسية الكاتب كان مفاجئا وسريعا لأن الكاتب لم يمهد لهـــذا
التحول أى تمهيد .

وهذا الاتجاه الانسانى عند فاروق يبشر بمرحلة طيبة جدا
فى قصصه وانتاجه وفى أدبنا العربى بصورة عامة . لأن مثل هذا
اللون الانســـانى وان كان يبدو أحيانا متفـــائلا فانه لون نادر
فى أدبنـــا .

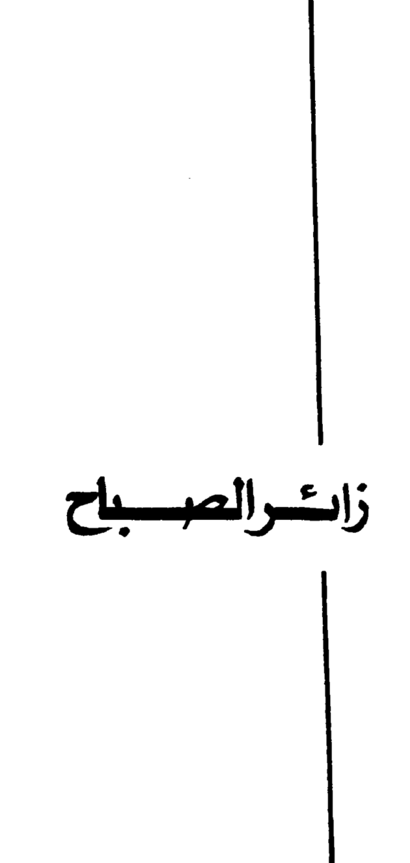
ولا يمكننا قبل أن ننتهى من هذه الدراسة ان نغفل الاشارة
الى قصـــة أخيرة من قصص المقاومـــة وهى قصـــة جاموســـة
عبد الرســـول التى وفق الكاتب فيها الى ابراز عنصر المقاومـــة
المستقر فى أعماق فلاحينا ، ولكنه ينتظر الاشارة أو الزعيم الذى
يكشف له عن الطريق ليندفع معه فى قوة تجرف معه كل طغيان .

وينبغى لنا أن ننبه من جديد الى ان التطور النفسى والفنى للكاتب لا يسير فى خطوط مستقيمة . وأن الكاتب قد يرتد فى لحظة من لحظات حياته الى مرحلة يكون قد تجاوزها من قبل ، وهو مع ذلك يستمر فى تطوره ، ويدفعنا الى التنبيه الى هـذه الملاحظة مرة ثانيـة أن تقسيمنا النفسى والفنى للقصص لا يلزم أن يتطابق تماما مع تاريخ كتابة الكاتب لها .

وبعد ، فان أغلب قصص فاروق تكشف عن ملاحظة دقيقة واعية للحياة فى ريفنا ، وفى الطبقات الشعبية فى مدننا .. وهو لا يستفيد من هذه التجربة فى عرض شخصياته فقط ، ولكن له فضيلته الأخرى فى أسـلوبه ، فهو لا يستخدم العامية بمهـارة فى حواره فقط ولكنـه يدخل الى صلب اللغة العربية بنجاح فى أغلب الأحوال تعابير عامية مصرية تخصب لغته وتغنيها . وهذه الناحية فى فاروق تحتاج الى اهتمام خاص .

وأخيرا فان أملنـا فى فاروق كبير . وذلك أولا لأنه كاتب يعبر عن جيلنا ، وثانيا لأنه يحـاول هذا التعبير مخلصا ، فهو لا يلجأ الى الشعارات ولا الى اللهجة الخطابية ولا الى الاثارة . وثالثا لأنه كاتب متطور يتجه الى الأفضـل بطريقـة مستمرة ومتصلة . وهذا المعنى الأخير يؤكد ثقتنا فيه ويجعلنا ننظر فى أمل ولهفة الى انتاجه المقبل ؟

عبد المحسن طه بدر



زائر الصباح

اهـــــداء

الى روح ابى ..
رمز وفاء وحب ..

جبـال بلا ذكريات

فى شرفة بيته جلس يرتب آخر اوراقه ويلقى ببصره عبر الأفق البعيد .. بعد فترة قصيرة سـوف يترك هذه البلدة . لم يعد هنـاك شيء يبكى من اجله ، ضاقت السبل فى وجهـه . يشعر بالاختناق كلما عاد الى بيته فى الليل محملا بالمشاكل . يريدونه روحا من آلاف الأرواح الصـدئة . النجاح الذى يدفعونه اليه يعتمد على الزحف . عشر سنوات وهو يتحمل .. ويوما بعد يوم يعيش على الأمـل .. دون جـدوى .. لن يموت من الجوع .. العالم مترع بالخيرات .. سـوف يجد اللقمة فى أى مكان .. قبل السـنوات العجاف كان صدره يمتلىء بالحماس.. يضمخ بعطر نافذ .. لكن صدره الآن يفيض بالأسى ، رائحـة العطر تضيع منه شيئا فشيئا .. وتراجع بصره الى الحديقـة الصغيرة امام بيته .. منذ ايام قليلة ملأها بطمى النيل ، وسقاها من مائه العذب .. وها هى عيدان الأذرة تنمو .. من يحنو عليها بعده ؟ .. والنخلة العجوز التى تعطيه التمر فى كل عام .. منذ ان تفتحت عينـاه على الحياة وهو يراها .. قـال له أبوه انه هو الآخر لا يعرف من زرعها .. تذكر ايام الطفولة .. كان الشيخ

يكرر حديث النبى .. اكرموا عمتكم النخلة .. انها الآن ترنو اليه بعطف .. تستحلفه ان يبقى .. اقترب منها قليلا : وربت على جذعها الضامر .. قبل حشفها الخشن .. شعر بسعادة كبيرة .. هى الوحيدة التى تنصت اليه بمودة .. سألها برفق :

ـ صحيح انتى عمتى ؟

ـ آه .. لو كان ابوك عايش كان يقولك .

ـ انتى شفتى ابوى ؟

ـ وجـدك

ـ مش معقول ؟

ـ وجد جدك ..

ـ عمرك كام سنة ؟

ـ ....

وجاءته زوجته تسأله عن موعد قيام الباخرة . لم يرد عليها .. كان يعيش فى احلام يائسة قانطة .. من الصعب انتزاعه منها .. عندما يفارق الانسان ارض وطنه لا يفكر الا فى الأشياء الصغيرة جدا .. تجذبه من اعماق قلبه .. فيتمسك بها الى النهاية . قالت له زوجته :

ـ بقول الباخرة حتقوم الساعة كام ؟

ـ الساعة عشرة اظن

ـ تظن ازاى .. لازم تتأكد

ـ مش عارف والله يا فاطمة .. سيبينى فى حالى دلوقتى .

وطار على جناح الخيال مع وجه زوجته . عاد الى المصادفة

الأولى التى رآها فيها . كانت تجلس الى الآلة الكاتبة تدق حروفها بأصابعها الرقيقة اقترب منها ليعرض عليها خطابا تكتبه توقف فجاة عندما القى نظرة على وجهها السمح اللطيف. نسى الخطاب فى يده . دق جرس التليفون .. قامت لترد .. فرف فى قلبه جسدها الصغير .. كالحمامة الوديعة البيضاء سمعها تتحدث فقط . تصورها فى بيته زوجة له . وتقدم منها ليعطيها الخطاب ، فلاحظ بعض الأوراق المبعثرة امامها . ورفع صفحة من الصفحات .. وقرأ .. كيف يتحقق السلام فى العالم .. ملايين البشر تحلم بأن تعيش فى الرخاء والسعادة .. بأى حق يقتل سفاحو الحروب .. الأطفال والنساء والشيوخ ؟.. نحن الشعب المصرى .. واعترته نوبة خجل ، فخرج من الحجرة مسرعا .

وعاد الى سؤال النخلة من جديد ..

ـ عمرك كام سنة والنبى ؟

ـ متعدش .. آلاف السنين .

ـ يعنى من أيام الفراعنة ؟ .

ـ حاجة زى كده .

ـ طب دانتى عشتى تاريخ مصر كله .

ـ طبعا .

ـ طب ايه رأيك فى .. ؟

ـ متسألنيش فى حاجة أبدا .

ـ ليه .. ؟

ــ سؤال واحد ..

ــ ....

وقفزت اليه ابنته الصغيرة . كانت لا تدرى شيئا مما يجرى حولها . قالت ونغمة الفضول الساذج تدفعها :

ــ احنا رايحين فين يا بابا ؟

ــ حنسافر يا نانا .

ــ فين ؟

ــ ....

ــ فين يا بابا والنبى ؟

ــ ....

ــ وحسيب القطة هنا واللا آخدها معاى ؟ ..

ــ لا .. تاخديها ..

ــ طب والعروسة بتاعتى ؟

ــ برضه حتاخديها ..

ــ آمال صاحبتى ؟

ــ كل حاجة حتاخديها يا نانا . بس روحى لماما تسرحلك شعرك .

وهبت بعض النسمات اللطيفة من شاطىء البحر ، فملأته بحلاوة الاقدام على المغامرة . بعد قليل سوف يكون فى قلب الموج العاتى ، يدفعه الاشتياق للراحة .. يأس .. كل

الذين يقابلونه يقولون « نعم » .. والذين يقولون « لا » متعبون . وتذكر الليلة الكالحة .. كانوا ينتشرون فى ارجاء البلدة ، يزرعون الحقول ويعملون فى المصانع ، ويلعبون مع الأطفال ، ويضحكون .. ثم شب الحريق فوجد البلدة فى الصباح خاوية . ارضها جدباء لا زرع فيها ولا ماء .. والأشجار الحزينة الباقية العجفاء أدارت وجهها للشمس الزائغة .. كفت عن النمو والازدهار .. انه يعرف الذين اشعلوا النار فى بلدته . ولكنه وحيد لا يستطيع الكلام تخنق أنفاسه الرهبة .. تتمدد فى اعماقه رنات الخوف .. لكن الأيام تمر .. وتعود بشائر الخضرة من جديد . ويفيض ماء النيل على الحقول .. فتغرد الأرض فرحا بقدوم المياه .. تريد أن تبل منها ريقها العطشان .. لكن من يدرى ! ربما يشب الحريق مرة أخرى .

وعادت اليه ابنته بعد ان مشطت شعرها . كبرت نانا ذات الأربع سنوات رأى ضفيرتيها الصغيرتين وراء كتفيها ، فاعترته سعادة غامرة . بالأمس بحثت عنها أمها فلم تجدها . دقت صدرها بيديها خوفا عليها . انفجرت ضاحكة عندما رأتها تخرج من حجرة النوم ، تضع « الروج » على شفتيها تقلد الكبار ، وتبتسم .

وازدادت نسمات البحر برودة . فأحس بقشعريرة مفاجئة . هو لا يحب الشتاء .. تملؤه أيامه القارسة بالرعب . لايمكن أن ينسى عودته فى احدى لياليه . كان مهموما وحزينا يفكر فى حادث اليوم المؤسف . البلادة كانت تزحف على روحه . والخوف الراقد فى أعماقه يرعشه . وبركة الزيف التى يعيش فيها تنضح الأقذار على نفسه . يحاول ردها . فى بعض الأحيان ينجح بعد المعاناة الصعبة . وفى أحيان أخرى يشعر باليأس المرير . وتسربت الى اذنه كلمات يوم الشتاء ، قالوا له :

ـ الطريق واضح امامك يجب ان تسير فيه .

قال فى سره :

ـ ليس لى الا طريق واحد لن احيد عنه ....

ثم قال فى العلن :

ـ بالضبط ...

قــالوا :

ـ يجب أن تزيد نشاطك ... الفرصة مفتوحة أمامك ..

قال فى سره :

ـ بئست بها من فرصــة ..

ـ ثم قال فى العلن :

ـ ان شاء الله ...

قــالوا :

ـ نحن ندافع عنك ...

قال فى السر :

ـ كذابــون ...

ثم قال فى العلن :

ـ شــكرا ...

فى تلك الليلة ـ وهو عائد الى بيته ـ تعثرت قدماه فى أحجار الطريق . كانت الأرض مبتلة بمياه المطر . فوقع على الأض .

فجرت اليه الكلاب تنقض عليه . تحـاول تمزيق ملابسه . لم يستطع ان يصرخ . قام منتفضا والطين يلوث ملابسه . وقبل أن يصل الى باب بيته كانت عيناه تسحان دموعا صامتة .. يالها من ذكريات حزينـة .. هى التى تدفعه الآن لترك بلدته ..

وارتد بصره الى عنق النخلة . فوجـده جافا مسودا . كانت تنظر وهى « مأرومة » ، وجهها مكفهر من أثر السنين . عيناها اختفتا الى الداخل لم تعد تستطيع ان تواجه أحدا . همس لها فى خوف :

ـ بيقولوا ان ثورة ١٩ فشلت .

ـ صحيح ...

ـ ليـه ..

ـ كانت طالعة لفوق ..

ـ عى ايه ..

ـ الثـورة ...

ـ يعنى ايه ...

ـ طالعة لفوق وخلاص بقى ...

ـ يعنى لازم تكون الثورة نازلة لتحت ...

ـ ضرورى ...

ـ طب يعنى ايه نازلة لتحت ..

ـ انت زهقان .. عاوز تسافر مش كده ؟ ..

ـ آه ....

ـ طب متخليك شوية .. يمكن .

ـ طالعة لفوق ازاى والنبى .

وسطع فى راسه حادث مؤسف آخر . فى الطريق اليه كان يدرك نفاقه . لكنه يتقرب منه شيئا فشيئا الى أن أصبحا اليفين .. رغم انهما يستحيل ان يلتقيا .. عندما كان يجلس معه يكرر دائما فى سره .. غير مقتنع .. غير مقتنع . الى ان يتخلص منه وينتهى .. لكن التيار جرفه فى تلك المرة .. قابله الآخر بالعناق . فاضطر ان يبادله اياه .. يومها شعر بالامتعاض من نفسه .. أصفى شىء فى حياته هى القبلة .. فكيف يبددها فى لقاء اجوف ؟ ..

واتسعت دائرة الذكريات فى خياله . انه مقدم على سفر طويل . كان يجب أن يزور قبر أبيه . لم يكن رآه قبل أن يموت بأسبوعين . كفنوه ودفنوه دون أن يعلم . كان طالبا صغيرا . وعندما رأى السرادق منصوبا أمام البيت ، أخذه أخوه الكبير فىأحد الأركان ، وقال له :

متزعلش .. احنا قمنا بالواجب بدالك .. الحمد لله اللى فات وراه رجاله ...

هو يحزن الآن لأنه لم يزره مرة واحدة . سوف يترك عظامه الى الأبد . كان يريد أن يزور مقبرة العائلة كلها ، فربما لا يراها بعد اليوم . يجب أن ينقل معه حفنتين من التراب ، حفنة من احد حقول قريته ، والأخرى من قبر أبيه . لكن الوقت مضى .. هو لا يسمع الا صفارة الباخرة فى أذنه . لا يرى سوى صفحة المياه الزرقاء الممتدة .. وهدير البحر الخالد . مرافىء

الأمان تبين له خلال الرحلة الضبابية الشاقة .. ما أقسى الرحيل .. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل .. منذ سنوات ولسانه يتعثر فى ان يقول الصدق .. قلبه يضطرب بين جوانحه .. تارة يخفق بالحب .. وتارة يكف عن النبض الدافق .. قدماه تتوهان فى هجير الخرائب بعد الحريق الهائل .. ضحكته المنطلقة المرحة انقلبت ابتسامة ميتة .. تتشح بالبرود . غشيت عيناه . فأصبح يتحسس الطريق كنصف أعمى تضلله الأضواء الباهتة . يرنو الى منابع المياه حتى اذا وصلها وجدها سرابا .

ورأى ابنته وهى ترتب الفراش لدميتها حتى تنام . عندما سكن هذا البيت كان يشعر بالوحشة والضيق . لكنه الآن يحس كل شىء فيه . شجرة ست الحسن تمددت حتى فرشت شرفاته . وشجرة الموز ازدهرت أوراقها العريضة .. وعانقت الجهنمية بأوراقها الحمراء الزاهية الباب الخارجى . وفى الداخل تعشش رائحة الذكريات .. مكتبه القديم الذى تنقل معه طويلا .. كتبه القديمة المهداة من معارفه .. والمكان الذى ولدت فيه ابنته .. كان يفرح به كلما رآه .. والركن الذى مات فيه ابوه .. يقولون انهم نادوه فى الصباح ، فلم يرد ، لا يدرى أحد فى اية ساعة من ساعات الليل مات .. وجدوا بجواره كوبا مملوءا بالماء وبقايا سيجارة لم يتمها بعد .. انه يحب هذا الركن رغم الأسى . وسرح ببصره عبر النافذة فى الفضاء . شاهد الجبل على مرمى البصر . بالأمس ذهب اليه مع ابنته فى نزهة عصرية . ظلت نانا تقفز فرحة على قمته . جرى وراءها كثيرا فى الخلاء . كانت تكبو ثم تنهض مسرعة تضحك . حملها فوق ذراعيه الى أعلى ولف بها عدة لفات . انزلها . وسار على يديه وساقيه كالحصان . ركبت فوق ظهره ، وظلت تضربه ثم تشده من اللجام ، مثل لها الذئب وهب

فيهـا . زحف على بطنه كالسلحفاة . فضحكت من الأعماق . انه يشتاق لهذا الجبل من جديد . لم يشبع منه بعد . ليته يأخذ منه حفنة تراب . ربما وجد جبالا أجمل منه بكثير ، ولكنها جبال بلا ذكريات . جبل بلاده جرى فوقه هو وابنته . خبـأ الفدائيون أسلحتهم فيه أيام كانوا يحـاربون الانجليز . قتـل اثنان منهم على سفحه . اين استشهاو البطلين ؟ . ربما فى المنطقة التى كانت تلعب فيهـا ابنتـه بالأمس . وانحسرت نظراته وهو حزين . واستيقظت حواســه على صدى كلمات النخلة العجوز :

ـ متخليك شويه ... يمكن ..

وعادت زوجته تسأله عن موعد قيام الباخرة ، وابنته تقفز فى ارجاء انبيت ، تلعب مع قطتها الأليفة ، وهدير البحر يحف فى أذنيه بعض الشىء ، مياهه الزرقاء المتدفقة تختلط برمـال الجبل الصفراء . قبر ابيه يدعوه للزيارة . حزنه العميق يتفتت فى داخله الى احزان صغيرة . قنوطه الصـلد يتكسر فى نهيرات منسابة .. الأمواج الصاخبة تدفع مركبه المضطرب الضعيف .. بصره يمتد عبر الأفق ، باحثا عن شاطىء آمن يستريح اليه .

خيـــال

الوجوه الصغيرة أمامه ، والغيظ المكتوم يكاد ينفجر بداخله.. .. تعب .. خمسـة عشر عاما وهم يسخرون منه .. انت معلم التاريخ ، اجيال المستقبل بين يديك .. ابتسم فى سره .. كم من الوجوه مرت عليه ، ووجهه ثابت فى مكانه .. مواكب الحياة تجرى وراء بعضها . موكبـه صامت حزين فى هـذه الغرفـة البالية .. طلاء جدرانها الأصفر يزغلل عينيه الكليلتين ، طوبها المتسـاقط يضرب رأسـه .. كل يوم شتائم ونكد واحتقار .. صاحب الفم الكئيب لا يسكت ، أوامر .. اوامر ، روحه الجافة تحلق فى سمائه على الدوام .. والآن يجب أن يرفض .. ضميره الحى يستيقظ .. لابد أن يقول لا .. لا .. انى تعبت .. سوف يقفون معك ، حديثك الحلو يجذبهم . انها مرة فى كل عام ، يعود الملل الى قلبك بعدها ، لا يهم . جلس على مقعده ربما لأول مرة يشعر بالثقـة تتسلل الى نفسه . الدرس ليس عاما .. أصبح يمس شغاف حياته .. نفخ الغبار المتراكم فوق المنضدة الكالحة . دق الأرض بقدمه يجرب . نظر الى التلاميذ بتحد ،

ثم بشفقة ، ثم بحنـان تطلعوا اليه صامتين . نادى أحـدهم أمره أن يكتب عنوان الدرس .... مراجعة عامة ، خاف التلميذ وهو يقول :

ـ لسه عصر اسماعيل يافندى ؟

ـ اسـكت ....

جفل عائـدا الى مكانـه . تشجع آخـر ، همهم يقصـد التشويش :

ـ عاوزين نفهم ..

شخط فيه بقوة :

ـ الحصة دى أسئلة ..

مازال يجيب وهو يضع ساقا على ساق ، متخليا عن حماسته التقليدية فى الشرح . يداه ثابتتان بجواره لا يرفعهما . صوته خافت واثق ، يقطع به الكلمات والجمل فى اطمئنان . أول طوبة سقطت من احد أركان الحجرة . ضحك التلاميذ . ظل مستمرا يتجاهل دق الجرس معلنا بدء الدرس . تذكر صـاحب الفم الكئيب . لن يسكت له بعد اليوم . سـوف يختـار الطريقـة التى توافق روحه فى التدريس ، مل طرق الوزارة الثقيلة . شعر بنغمة فخر واعتزاز تزهو بها نفســه . التاريخ أحلى شيء فى الوجود . الناظر يريدنى موظفـا ناجحا أحصـل له على أحسن النتائج . التاريخ يسرى فى دمى . أين الأيام الخـالدة فيه . لم يعد أحد يذكرها ، أصابهـا العطن والنسـيان . انبعث فى الجهـة المقابلة للمدرسـة على ربوة أخرى من أطراف المدينـة هدير زاحف . مصنع النسيج يبدأ يومه هو الآخر .. منذ ان انشئوه وهو يترقب هديره كل صـباح . لا يدرى لمـاذا ..

ربما لانه مل جرس المدرسة وأصوات التلاميذ وأوامر صاحب الفم الكئيب . سأل وملامح وجهه تتشكل باهتمام بالغ :

ــ ما أسباب الثورة العرابية ؟ ..

رفع الجميع الأصابع . كلهم يعرفون . لا داعى لهذا السؤال ، هناك نقطة حاسمة تثير أشجانه على الدوام تملؤه بالأمل ابدا . يحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب . ومن النافذة لمح الشجرة العتيقة تتوسط فناء المدرسة . كانت مخضرة الأوراق ، جذعها ثابت فى الأرض ، وفرعها ممتد فى السماء ، لكنها شائخة عجوز . طالما جلس تحت هذه الشجرة يستعيد الذكريات . عشرات من الزعماء الصغار وقفوا فى كنف ظلالها ينادون بالجلاء والحرية . اصبحوا الآن رجالا . شق كل منهم طريقه فى الحياة . يتصادف أن يقابله أحدهم ، فيعرفه بنفسه، ثم يدعوه للزيارة . داعبت النسمات أوراق الشجرة العتيقة . طافت بخواطره أحداث قديمة . فى العام الماضى صمم على الالتحام بالناظر ، أمضى يوما كاملا بجوارها يستلهم دفئها . تصور انه زعيم صغير يخطب ضد الناظر المستبد . من يومها وهو يسميها شجرة الحرية . فى الليل صورتها المزدهرة تطوف بخياله . عاد هدير مصنع النسيج يرتفع فى أذنيه من جديد . ود من قلبه لو اختبر حياة المصنع الغريبة عنه . ملّ جرس المدرسة . طوبة ثانية تسقط من الجدار المتداعى . أسرع يضرب المنضدة حتى يمنع الضوضاء . هاج التلاميذ ضاحكين . دخل الناظر محتدما . قام من مقعده وجلا . عوج الناظر فمه المتأزم ، ثم قال :

ــ زفت .. زفت ....

اصبحا الآن وجها لوجه .. الذئب المفترس امام الحمل الوديع . سكت يكظم غيظه . لن يستطيع صاحب الفم الكئيب أن يجره للانفعال السريع . ضاقت جدران الحجرة حوله . كادت تخنق أنفاسه . أصبح كالسجين يدرك أنه حر ، لكنه لا يستطيع الخلاص . صهد الصيف يفح من الباب ، ونافذة الغرفة الضيقة العرق يسيل من جبهته وذراعيه ؛ يصل الى ساقيه المرتعشتين الخائفتين .. التلاميذ امامه ينتظرون . شيء ما فى أعماقه ينهار .. يتفتت . وصله هدير مصنع النسيج ، فأحس بالدفء بتيار من الشجاعة يتسرب الى أعماقه .. تحرك .. تحرك .. قل شيئا ، عاد الى سؤاله القديم :

ـ ما اسباب الثورة العرابية ؟ قم ..

ـ اضطهاد الشعب ....

ـ وانت ؟

ـ تدخل الأجانب ...

ـ وانت ؟

ـ المطالبة بتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى .

ـ وآخر واحد على اليمين :

ـ اسقاط الوزارة المستبدة ....

سر فى أعماقه . رأى وجه الناظر مسودا عصبيا . هو يعرف وقع الثورة على نفسه . سوف يستمر فى احكام الخناق حول رقبته . انه اللحظة أشبه بعرابى . هذه الساحة على ضيقها رحبة فسيحة ، يمتطى فيها جواده الأصيل . هؤلاء التلاميذ جنوده الأوفياء المخلصون . سوف يقفون معه . ان

التاريخ يعيد نفسه تماما . امسك قطعة الطباشير ثم كتب على السبورة .. الاستبداد هو السبب الوحيد للثورة العرابية ، أتفهمون . عاد يلقى ببصره عبر النافذة الى فناء المدرسة حيث تمتد شجرة الحرية . التفت ونشاط مفاجىء يهز أعماقه :

اذا الشعب يوما أراد الحياة ....

تقمصته شخصية عرابى مرة اخرى . القى نظرة على صاحب الفم الكئيب . خمسة عشر عاما وانت ذليل بين يديه ، لم تذق طعم الراحة ابدا .. يستعبدك كالحمار ، ليس فى فمه الا كلمة زفت .. زفت .. يلاقيك بها فى الصباح .. يودعك بها فى المساء .. يمنع عنك كل شىء .. حتى نسمات الهواء التى كانت تصلك من خلف الحجرة يا عبد المعطى أغلق النافذة التى تتسرب منها . لو تركوا له الحرية لوضع فى رقبتك الحبل ثم أحكم جذبه حتى يراك ميتا .. يتشفى فيك .. يود أن يمتص رحيق حياتك لآخر نقطة .. عرقك يسيل هنا منذ خمسة عشر عاما يا عبد المعطى .. يداك تعبتا حتى أصبحتا قطعتين من الخشب المشروق . كلت عيناك . الأشياء امامك غائمة حائرة مهتزة . والصوت .. لم يعد صوتك سوى حشرجة بالية .. اصبحت نفاية يا عبد المعطى .. أصبحت نفاية .. وانتقل الى الساحة مرة اخرى .. لكنك تستطيع أن تفيق الآن .. ان تعلن العصيان .. ان تقول لا .. لا .. وسقطت طوبة من جدار الغرفة .. القيظ كائن متصلب يتحدى . الناظر يمسح عرقه بمنديله . التلاميذ ينتظرون . وركب الجواد على جناح الخيال ، امسك سيفه بيده يلوح به فى الهواء وتذكر ، قال الخديو لعرابى يا أولاد ..

ـ ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ ! ....

ـ قال عرابى ....

ـ ....

ان التلاميذ يحفظون أسباب الثورة عن ظهر قلب . اذن فليكمـل :

ـ وماذا كان رد الخديو على مطالب عرابى يا أولاد ؟ ..

حملق الناظر فيه بدهشـة .. لم يعره التفاتا . كان يناضل خوفه بشجاعة . مر العمر وما بقى به الا القليل .. ماذا يستطيع صاحب الفم الكئيب أن يفعل لك ؟ .. خمسة عشر عاما وأنت مستكين خائف جبان .. خسرت الروح والقلب .. وما فى يدك شىء تواجه به ايامك القادمة .. تشجع لا تخف .. المثل الصينى يقول .. ان رحلة طولها الف ميل تبدأ بخطوة واحدة وأنت تقول .. ثورة نفس ابية تبدأ بحركة واحدة .. وضرب الأرض بقدمه ثم قال :

ـ رد الخديو على عرابى يا اولاد .. كل هـذه الطلبـات لا حق لكم فيهـا ، وانا ورثت ملك هـذه البـلاد عن آبـائى واجدادى .. وما انتم الا عبيد احساناتنا .

احتقن الدم فى وجه النـاظر . قـال والرعشـة العصبية تتملكـه :

ـ ما هذا التركيز على الثورة العرابية بالذات ؟ ! ..

ـ لأنها ثورتنا كلنا ...

ـ وعصر اسماعيل .. ؟ ! ..

ـ رمز عارنا ...

ـ يجب أن توزع الأسئلة ...

ـ هذا من شأنى وحدى ...

ـ لا تعجبنى طريقتك فى التدريس ...

ـ انها الوحيدة التى تجذب عقول التلاميذ ...

ـ هل تسير حسب المنهج المحدد ؟ ! ...

ـ ليس هناك منهج .. ما اشرحه اليوم هو منهجى ...

ـ التلاميذ لا يستفيدون من طريقتك ...

ـ اسأل أحدهم ؟ ! ...

قال الناظر ، مشاورا .. باصبعه لتلميذ :

ـ هل فهمت شيئا ؟ ..

قال التلميذ :

ـ الأفندى ساب عصر اسماعيل ...

ـ وانت ؟

ـ لا .. أصل الأفندى بيشرح بالعربى ...

وآخر واحد على الشمال :

ـ لم احفظ غير الشعر ...

وهبطت حماسته الى اقدامه . هؤلاء الاشقياء يخذلونه . فك رباط عنقــه المبلل بالعرق . نطح راســه فى الهواء يفسح لنفسه طريقا . لاحت أشباح الهزيمة .. يا أولاد الكلاب .. هذا جزائى .. انا لا يهمنى الدرس .. تعبت من الشرح والحفظ .. كنت اريدكم اليوم شــجعانا . تقفون معى .. الا تعرفون من

أنا .. وغطت عينيه سحابة ظلام ، لم يعد يرى شيئا . غرق فى تردده ورعشته . سقط السيف من يده . الجنود يهربون من الميدان أمامه . الساحة خاوية ، يريم عليها سكون حزين ، الجدران تضيق حوله وتضيق ، قلبه يضرب فى صدره كالفرس الهارب من المعركة . وجه عرابى لا يفارق خياله رغم الضباب المتكاثف حوله ، انه لم يرد على الخديو بعد . نكس رأسه فى الأرض . غابت نظراته بين عيون التلاميذ الذين خذلوه . ذبلت حلاوة الحماسة فى نفسه . القيظ وأشباح الهزيمة وصاحب الفم الكئيب وهؤلاء الكلاب يتراقصون فى ساحته . انتزعه الناظر من عالمه :

ـ ارجع الى عصر اسماعيل ...

ـ لا استطيع الرجوع الى الفساد ...

ـ انه منهج الوزارة ...

ـ الوزارة مخطئة ...

ـ هل تريد أن تملى رأيك ؟ !

ـ نعم ...

ـ بعد خمسة عشر عاما ؟ ..

ـ نعم ...

ـ وأكل العيش ؟ ..

ـ ....

وعاد مسرعا إلى ساحته . الخراب شملها فى عز المعركة . البوم حوم فيها .. الوحشة قطعت اللحظات الخالدة التى

كان يود أن يعيشها . التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه أبدا . التاريخ يحدث مرة واحدة فقط . عرابى مات يا عبد المعطى .. ولن يلد التاريخ عرابى آخر . خنفس خان عرابى .. وهؤلاء الصغار خانوك . وشملته حسرة عارمة . ايقظت حواسه صفارة مصنع النسيج فى الربوة المقابلة . انحدر اليه الهدير عاليا خفاقا يطغى على جرس المدرسة ، اقدام الرجال الأقوياء تهز الأرض .. الوجوه الصلبة تتحدى المتاعب الصغيرة .. ليته وقف بينهم ، لن يخذلوه مثل هؤلاء الاشقياء الصغار ، ولا مثل الاشقياء الكبار .. كم من مرة أثار الموضوع أمامهم .. ان شجرة الحرية تظل يانعة مخضرة ، ويجب أن نبقى احرارا فى مدرستنا يا زملاء . كان يقابل بالسخرية . فى مرة كشف له عطيه افندى عن جرح قديم فى ساقه أصيب به فى مظاهرات الدستور .. قال له .. انه مناضل قديم ، الأيام جارت عليه ، فاستسلم لها . وحدثه الشيخ حسن عن اشتراكه فى ثورة ١٩١٩ ، فلما فشلت ، عكف على أكل العيش . ولا يدرى لماذا قفزت الى ذهنه كلمة سعد زغلول الشهيرة : « مافيش فايده » .. صاحب الفم الكئيب لايزال أيضا فى الحجرة يتولى عنه الشرح للتلاميذ . ان اصلاحات اسماعيل لاتحصيٍيا أولاد.. نستطيع أن نطلق على عصره العصر الذهبى ، فيه انشئت الترع والمصارف والجسور. كان يريد أن يجعل من مصر قطعة من أوربا .. الذباب يدخل الى الحجرة المعتمة ، القرف يحط على رءوس التلاميذ ، رائحة المجارى ترتفع الى الأنوف . جلس الناظر مستخذيا . قال فى سره : ما أتعسنى .. أردت أن انتقل بهم الى أوربا .. فاذا الذباب والرائحة تخذلنى . دق جرس انتهاء الدرس ، سحب الناظر قدميه وهو يلعن ...

ـ زفت .. زفت ...

لم يلتفت اليه . شدت قدماه الى الأرض . توقف طويلا يفكر . رمق شجرة الحرية من بعيد . لن اجلس تحت ظلالها مرة أخرى . الفروع المخضرة فقدت لونها ، الجذع المتين هش لا يصمد للأحداث ، الجذر الضارب فى الأرض عاجز عن امتصاص الغذاء .. لم أعد استطيع ان أعيش على الذكريات . الفم الجائع لا تسده حكاية حلوة ، العين الكليلة لا تحتاج الى لمبات النيون . القدمان الحافيتان يلسعهما الأسفلت اللامع .. الأذن الصماء لا تتذوق الموسيقى .. أريد شجرة أخرى تطعم الفم ، تسر العين وتنعش الروح الراكدة .. يرتاح بجوارها الجسد المكدود .. يطمئن الى ظلها الحران .. جرس المدرسة يدخل الملل الى نفسى ، هدير المصنع يطربنى .. ولكن لا بأس أن نكرر الى حين ما حرمنا صاحب الفم الكئيب أن نقوله للأولاد . قال عرابى للخديو يا أولاد .. لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا ارثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو أننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .. لا بأس أن نكرر .. أن نكرر ...

عنبـــر

لم يبق امام عنبر الا كلب واحد وينتهى . سوف يغسل يديه بعد قليل ، ويدس مقصـــه فى مخبئه ، ثم يعرج على القهوة . لكن وساوسة الآن تنتشر فى راسه .. كيف يتحـاشى الشارع .. منذ عدة شهور والأطفال يقابلونه بالسخرية ...

ـ حلاق الكلاب اهوه .. حلاق الكلاب اهوه ...

مرت على خواطره ذكرى أبيه . الهتاف نفسه الذى كان يسمعه وهو صغير يسمعه فى هـذه الأيام من أطفال الحـارة الذين كانـوا يزفون أبـاه . قطعت تأمـلاته ارتعاشـة كلب من الكلاب .. قال له والحنان فى قلبـه .. ماذا أستطيع أن افعل لك .. هل من الضرورى أن يربوا كلابا ؟ ! . الكلاب لها الذين يهوونها ويحبونها .. يجب أن أخلص منها قبل أن تجوع .. ليس عندى ما اغطيك به ، حتى جلبـابى القديم بلى مع الزمن وياليت الرحمـة تنفع معكم .. انكم تهبون فى وجهى فى بعض الأحيان .. بأى شىء أؤدبكم ؟ ، لكنى أتحلى بالصبر . لقد علمنى

ابى ان اكون اليفا ووديعا وقنوعا .. وزام كلب فى الوسط على زميل له ، فتقدم اليه ، ثم ربت على ظهره .. اسكت يا مأمون .. سوف تأتى اليك بعد قليل . واستولت على الكلاب جميعا روح من التمرد . يحلقوا فى سـقف الحظيرة المرتفع .. وانتابته هو الآخر موجة من الخوف . انه حديث عهد بالصنعة . ولم يشر له أبوه بوصية عندما تثور الكلاب . يجرب معهـا حيلة تقـديم الطعام . جرى وأحضر بعض كسرات الخبز ، ورماها مبعثرة امامها . لم يتقدم أحد منها . كانت تأنف من هـذه الكسرات المتواضعة . انها تأكل اللحم والخضر والفاكهة فى البيوت . جاءه صوت والده عطوفا محبا .. قال له :

ـ يا عنبر يا ابنى خد بالك من الكلاب ...

رد عليه وهو خائف :

ـ يبدو انها ثائرة يا ابى ...

ـ يا أبى انى أرى وجوهها الغاضبة .. أشـعر بنفوسها الحانقـة ...

ـ يا عنبر الكلاب اخوتك ورفاقك .. فكن عطوفـا عليها ، ودودا اليها ...

واختفى الصوت بعض الوقت . لكن انكشف أمامه وجـه أبيه الحنون . ضحكته نور يضىء حوله المكان . غضـون جبهته مرفأ يستريح اليه بصره .. رأى قدميـه الرفيعتين تنغرسـان فى طين الأرض . استمع اليه وهو يتنفس بصعوبة . كان يضـع يده على قلبه جهـة اليسار ، ويده الأخرى مرفوعة كأنه يوصى بشىء معين . شعاع عينيه يرتمى على ظهور الكلاب . بقى مدة طويلة وهو يرمقها الواحد بعد الآخر . كل واحد منهـا يذكره

بالأيام الماضية ، بذكريات وآلام وافراح . كانت أياما حلوة ، ذاق فيها حلاوة المكسب . انه لا ينسى سنوات حلوان الكريمة . مستقر الباشوات والبكوات . كانوا يعطونه بسخاء ، رغم أنهم يضحكون منه كلما قابلوه . كانوا يقدرون ويعطفون . يستحيل أن ينسى كلب البرنس الكبير يوم أن قص له شعره ، فأعطاه جنيها . ويوم أن قص كلب البرنسيسة . يومان خالدان لايمكن ان يعودا ابدا .. وتطلع الى جدار الحظيرة المشقق . قال والدموع تطفر من عينيه :

ـ عنبر يابنى انت لم تذق طعم خيرات الكلاب زمان ...

ـ لم اعد اقوى على هذه الكلاب يا ابى ..

ـ اسكت يا ولد .. انها حياتك ومستقبلك ...

ـ يتعبوننى يا أبى ...

ـ لم تتعلم اصول الصنعة بعد .

وضحك الابن . فهب فيه الأب .

ـ علام تضحك ؟ .

ـ على أصول الصنعة .

ـ تتمرد على يا عنبر .

ـ لا اتمرد عليك يا أبى

ـ اذن علام تضحك ؟ .

ـ يا أبى ليس قص الكلاب صنعة .

ومرت أمام الابن صورة حلوان الجديدة التى لم يدركها أبوه . فرغت من الباشوات والبكوات وصفصفت ، رحل عنها

البرنسيسات . مداخن مصنع الحديد والصلب تملأ السماء . مئات من عمال الغزل والنسيج استوطنوا البلدة . بقايا الباشوات قبعوا يشكون من العمال وزحفهم . وعاد يخاطب أباه :

ــ الأطفال يسخرون منى فى الشارع يا أبى .

ــ تحملت قبلك سنوات هذه السخرية ثم بمرور الوقت تعودت عليها ...

ــ لست مستعدا لتحمل سخريتهم ...

ــ يا عنبر من أجل أن أكون راضيا عنك تحمل ...

ــ لا ...

ــ قص الكلب بعشرين قرشا يا عنبر ...

ــ لا ...

ــ من أجل أمك واخوتك ...

ــ لا ...

ــ لا تجعلنى الجأ الى العنف ...

ــ وماذا تستطيع أن تفعل ؟ ! .

ورأى أصابع أبيه تضغط على رقبته فقفز بعيدا عنه . ونبحت الكلاب علامة على الخطر . ثارت مرة أخرى . وجلس عنبر على الأرض وحيدا . عيناه تواجهان جدار الحظيرة القديم . ورائحة الكلاب فى أنفه . انفتحت فى عقله كوة من التفكير الحزين .. قال لنفسه .. يريد أن يخنقنى لأنى أحكى له عن متاعبى ، ارفض أن أعيش ذليلا كما عاش .. أنا أحب الكلاب ..

ويحبوننى .. ولكن .. وجاءته امرأة بدينة . جسدها « يفصل » اربع نساء من الحجم المعقول . تمسك باحدى يديها شمسية ملونة ، وباليد الأخرى كلبا كبيرا . قالت له من انفها :

ـ خلاص الكلب يا ... عنبر ...

ـ خلاص ...

ـ طيب انا انا حاخد مأمون واسيب لاكى ...

وساد الصمت بين عنبر والمراة . ثم عادت كوة التفكير الحزين تتسع فى راسه : هذه المرأة لا عمل لها الا الكلاب تقضى وقتها كله بينهم . فى السادسة من كل صباح تربطهم فى حبل واحد ، وعلى كورنيش النيل تمشى بهم مسافة قصيرة ، ثم تعود بعد أن يتنسموا نسمات الهواء الطازج لكل منهم فى البيت سريره الخاص .. عشر سنوات وعزيزة هانم تحتضن هذه الكلاب . مات زوجها ، فلم تجد من يواسيها أو يحنو عليها الا هذه المخلوقات الأنيسة وفكر عنبر فى الأمر اكثر جدية .. ماذا لو تزوجت .. سوف تتخلى عن الكلاب لتتفرغ لانيسها الجديد . وقتها لن تستيقظ فى السادسة صباحا . سوف تنام الى العاشرة أو الحادية عشرة . وتطلع عنبر الى جسدها السمين ، ثم تذكر أمه العجفاء الراقدة من المرض ، وشم فى المكان روائح أبيه من جديد . كم من الآلام تحملها ابوه فى سبيله ! . واستنكر اللهجة التى خاطبه بها منذ قليل . وود لو يعتذر له . ولكنه لن يسمعه . لقد كان والده يحبه ويحنو عليه ، لكن الأيام الفقيرة القاسية هى التى جعلته يخاف ويقسو فى معاملته حتى يتعلم شيئا ينفعه . ورنت فى اذنه كلمات ابيه القديمة .. يا عنبر .. اوصيك بأمك خيرا .. وهذه صنعة تأكل منها خبزا .. فاحرص عليها .. ولا تفرط فيها ابدا .. وعاوده الأسف للتحدى الذى

بدا منه لأبيه ، وتقدم من كلب أسـود يلهث . ربت على ظهره ، وقرب منه اناء ليشرب ، ثم تمتم ببضـع كلمات مسموعة . كان يريد ان يتكلم معه ، يشكو له آلامه واحزانه . انه الوحيد الذى يفهمه ويشاركه متاعبه . كل الكلاب يأخذها أصحابها ، ويبقى زين فى الحظيرة بمفرده ، لا يذوق نزهات النيل كالآخرين ، ولا يأكل اللحم الطـازج ، مهمته ان يرهب الآخرين ويساعد عنبر فى وقت العمل . قال له عنبر :

ــ لم أعد اتحمل يا زين ..

قال الكلب :

ــ كان ابوك من قبلك يشكو لى ...

قال عنبر :

ــ من اى شىء !!

قال الكلب :

ــ من كل شىء يحدث له ...

ــ مثل مـاذا ؟

ــ كان يشكو من امك مثلا ...

ــ كيـف !!

ــ كان يقول انها تكشر فى وجهه . وتطالبه دائما بالنقود . وتطرده من البيت اذا احتد معها .

ــ وماذا قال عنى ؟ ! .

ــ قال انك لا تريد أن تشرب الصنعة وتستقر فى الحظيرة معه تتعـلم .

ـ هل شعرت بضيقه منى فى اواخر ايامه يا زين ؟

ـ كان يوصينى بك خيرا ...

وهز الكلب ذيله . فهزت الأشواق « عنبر » لذكرى ابيه . انكشفت له احزانه التى كان يخفيها عنه . كره صوت امه الذى عجل بموته . وشعر بحنان على زين . كان ابوه يثق به ، يشكو له آلامه ، يأتمنه على اسراره . واراد ان يعرف مزيدا منها . قال للكلب :

ـ وما حكاية كلب البرنسيسة ؟ ! .

ـ هذه حكاية قديمة ، لم تتكرر الا مرة واحدة فى عمره ...

ـ فى اى سنة كانت ؟ ! ...

ـ ايام ان كنت صغيرا ...

ونبح الكلب ، فأحس عنبر بالسأم . ليس له صديق يشاركه حياته . امه تطالبه دائما . وسوق الكلاب يفلس امتلأت حلوان بالعمال والمصانع . هجرها الباشوات والبكوات القدامى . اين أيام البرنسيسة والبرنس . لم يكن يحس بالمسئولية فى حياة أبيه . عزيزة هانم تكلمه من انفها . الكلاب يثورون عليه ويتمردون . رائحتها العطنة لم يتعود عليها ، تزكم انفاسه . مشاكستها المستمرة تتبعه . وعاد الى الجدار المشقق يتأمله .. هناك سحلية تمرق على سطحه .. تتوقف طويلا ، ثم سرعان ما تنطلق كأن وراءها « مشوارا » مهما .. ونظر الى سقف الحظيرة .. كانت خيوط العنكبوت تفرش الأركان .. وعشيت عيناه بعض الوقت ، فالظلام يمدد ظلاله فى الحظيرة ، والجو قاتم كئيب أسود ، والكلاب لا تقوى على تحمل الشظف. ومرت على راسه أطياف افكار مبعثرة . اطبقت على انفاسه

تعاسة صفراء .. وتحرك من داخله هم ثقيل مزمن . وارتد الى أذنيه صوت أطفال الشارع .. حلاق الكلاب أهه .. تمنى من أعماقه أن يهرب من حلوان الى الجبل المجاور لها .. فى مرة هام به نصف نهار . ولكنه عاد عندما جاع .. وضربته الشمس فى رأسه .. وجاءه صوت ابيه كالصدى :

ـ اما زلت واقفا يا عنبر ؟ ! .

ـ ....

ـ لماذا لا تتكلم ؟ !

ـ كنت اتكلم مع زين ...

ـ انه صديقى الوحيد .. أوصيته عليك قبل أن أموت ...

ـ انه كبر يا ابى .. والجرب يأكل جسده النحيل ..

ـ لا تقس عليه يا عنبر .. خذه فى نزهة على النيل ، واعطه بعض اللحم .

ـ الحالة ساءت يا ابى . لم يعد عندنا فى حلوان باشوات ...

ـ كانوا يكرموننى ...

ـ اصبحوا يلعنون الكلاب .. يضنون عليها بالرعاية ...

وغاب الصدى . فقام عنبر الى زين ، هز له الكلب العجوز ذيله . تمسح بجلبابه . نهض الى ركبتيه فأنزله عنبر فى هدوء . اقترب من راسه الصغير . فوجد القراض فى جلده .

جلس ينتزعه بأظافره . فسالت قطرات الدم على أصابعه . ونهنه الكلب فى ضعف . كان يبكى الأيام الضائعة أيضا . وانتشرت فى الحظيرة رائحة عطن قديم . وغامت اشعة الشمس المتسربة من الكوة الصغيرة . وأمسك ظهر الكلب الأخير . ثم راح يذرعه بالمقص . وفى دقائق كان قد انتهى من العمل . ووقف الكلب مستكينا أمامه . وجف حلق عنبر من العطش ، فأسرع ليشرب . كانت به رغبة للقىء ، لكن نفسه لا تطاوعه . فك الكلاب المربوطة ، وساقها للخارج . وبقى زين بمفرده فى الحظيرة . الحبل يخنق رقبته ، واناء الطعام الفارغ أمامه ، ورؤى الماضى تتخايل فى أحلامه .

زائر الصباح

فى السابعة تماما من كل صباح أحن الى لقياه . وجهه الأبيض الناصع يفتح طاقات الأمل أمامى .. ابتسامته الحلوة تواسى الجراح . كثيرا ما ضحكوا وابتسموا .. ولكن ضحكهم كالبكاء ـ نفاقا أو ضعفا ـ وابتساماتهم ورق جاف يغطى قلوبهم المتبلدة . قال بعد أن احتضن يدى المرتجفة :

ـ تأخرت عليك قليلا ...

ـ لا ...

ـ كيف حالك ؟

ـ غير سعيد .

ـ ملايين الناس غير سعداء ...

ـ ولكنى أملك مصيرى ...

ـ انت واهم ..

ـ لـم ؟

ـ لأن الآخرين لا يملكون مصيرهم ...

وجلسنا على رمال الشـاطيء معا . طافت عيناه عبر مياه البحر الهادئة . ارسلت الشـمس اشعتها على جبهتـه فتلألأت بحبات الضوء الفضى المنفرط . لم أصـدق عينى . هل هو حقا امامى ، عيناه الزرقاوان تواجهان عينى ، يده صافحت يدى .. ربما .. لكن هـذه الزيارة ليست مفاجأة . زارنى كثيرا قبل الآن .. كان كلمـا جلس معى يمسح الكآبة من حيـاتى ، ثم يطير عبر البحر الى بلاد أخرى بعيدة . كان الرجاء فى فمى دائمـا ان ينتظر قليلا .. والأمنية فى قلبى ان يحكى لى عن أسرار الحياة كثيرا .. لكنه كان يطير سريعا .. مرفرفا بجناحيه ، يملأ الجو بسقسقته الغنائية .

ان أجمل البحار ..

هو ذلك الذى لم نذهب اليه بعد .

واجمل الأطفال ..

من لم يولد بعد .

وأجمل أيامنا ..

لم نعشها بعد .

واجمل ما اود ان أقوله ..

لم اقله بعد .. (١)

---

(١) من شعر ناظم حكمت .

وخفت ان يطير فى هذه المرة سريعـا ، فعدت الى الحديث الراكد أحييه من جديد :

ـ ولكنى أعمـل ..

ـ انت تعمل لنفسك فقط ..

ـ ولمن تريدنى أن أعمل ؟ ...

ـ للحـب ...

ـ لا افهم شيئا

ـ هل تعرف حكاية العاشق الولهان ؟ ! .

ـ لا ...

ـ طيب .. لا بأس أن أحكيها لك .. لكن ...

وامسك بأطراف اصابعى هامسا ...

كان يا ما كان عاشق ولهان ، تحير فى الزمان ، لاقى الشقاء والقســـوة والحرمـان من أجـل حبيبتـه الجميـلة التى كان يرجو منها العطف والحنان . حاول أن يقترب منها .. فقـالت له : أنا أحب الشجعان الأقوياء .. واذا أردت أن أحبك ، عليك أن تخترق مجرى هـذا النهر الكبير من تحت الصخور والرمال ، ثم تعال ، وأنا أحضنك فى صـدرى كحب الرمان . سر الفتى العاشق الولهان ، وطار نحو النهر ثم توقف عند شاطىء الأمان يقيس الطول والعرض والأعماق ...

ـ وبعد

ـ ثم أحضر الفتى العاشق فأسا . وأخذ يضرب بها الأرض المجاورة لشاطىء النهر ، فكسرت الفأس ، فجـاء بفأس أخرى ،

واستمر يحفر الى أن قابلته الصخور فعجز عن مقاومتها ، وخرج من حفرته المتسعة وهو يلهث . لقد تمزقت ودميت أصابعه .

ارتفعت الشمس فى السماء . جاء الأطفال الى الشاطىء يلقون بأنفسهم فى الميــاه ، وانتشر المرح حولنا . العجــائز كن يجلسن تحت المظلات يستدفئن بلهب الشمس ، والنسـاء خلعن عن انفسهن ملابسهن ، وتمددن على الرمال ، أو دخلن الى الأمواج يسبحن ويقفزن . ســمعت صــوت ابنتى الصــغيرة تقول وهى تمسك يد صديقها :

ــ ياللا نلعب .

ــ ياللا ...

ــ عريس وعروسه ...

ــ ايــوه .

ــ ونبنى بيت ...

ــ ياللا ...

ــ ونسكن فيه

ــ ايــوه .

ــ ونخلف ولد

ــ ياللا ...

ــ ونحب مامه .

ــ ايــوه .

ــ وننزل بحر ...

يالللا ...

ـ ونصطاد جنيه ...

ـ أيوه ...

وتمنيت أن أعرف رواد الشاطىء عليه فانهم لم يروه . هو طيف متألق يملأ المكان بضـوئه ، لكن أحدا لا يراه . يحدثنى فى همس ورقـة ومودة .. « لا اريد أن يعرف أحد بوجودى . لقد أتيت اليك دون أن يدرى انسان . ولو عرفوا لجاءوا الى بالعشرات يبغون توقيعى على ذكرياتهم » .. وضحك ضحكة صافيـة من القلب .. « تصـور .. لقد لقبنى أحدهم فى يوم من الأيـام بلقب « البيك » !! » هل ينتشر عندكم هذا اللقب ؟

ـ نعـم ..

ـ منذ متى ؟ !

ـ منذ عهد الاستعمار التركى ...

ـ ولكنى لست مستعمرا ...

ـ ولمـاذا لم تنبه هذا الانسان ؟ ! .

ـ لا جدوى .. انه مصـور صحفى .. لا يهمـه الداخل أبدا .. يهمه المظهر فقط ...

ـ ولكنك لم تكمل لى حكاية العاشق الولهان ...

ـ نعم .. طلع الفتى العاشـق الجبل المجاور للنهر يفكر ويتأمل ، كيف يستطيع حل المشكلة ؟ ! .. وكلما وجد حلا نزل يجربه .. فيلاقيـه الفشل ، ثم يطلع الجبل ثانيـة يفكر فيجد الحل ، ويفشل .. وهكذا الى أن أفاق فى النهاية .

ـ وماذا فعل ؟ !

ـ نزل الى الناس يرجو منهم المساعدة . لبوا نداءه على الفور . كل واحد خرج بفأسه . تجمعوا يرسمون خطة الحفر تحت النهر معا حتى يصلوا الى الشاطىء الآخر . آلاف الأذرع اهتزت فى الهواء ، الأقدام تحركت نحو الجبل للحصول على الحجارة اللازمة للبناء ، اغنيات العمل الجماعى انتشرت فى المكان .. العاشق الولهان سر خاطره وطاب . دمعت عيناه من الفرحة والاطمئنان .. امتلأت نفسه بالشكر والعرفان . وفى حوالى شهر من الزمان كان الطريق تحت النهر واصلا الى الشاطىء الثانى . العاشق الولهان طار الى حبيبته واخبرها بالخبر .. اهتز قلبها بالسرور وانفجر .. ووافقت على الزواج منه فى الحال ...

ـ وكيف عاش الزوجان مع الأيام ؟ ! ...

ـ سعيدين محبوبين ...

ـ ومتى يصبح كل الأزواج والزوجات سعداء !

ـ عندما يختفى الاستغلال ...

ـ واذا اختفى الاستغلال ...

ـ لابد أن تنمحى العبودية من جبين الانسان ...

ـ واذا انمحت العبودية ...

ـ لا .. ويجب أن تستحيل عودتها ...

ـ وفى اى زمن يحدث هذا ؟ !

ـ ساعة تصبح الحرية هى الملح فى خبزنا ، والكلمة فى شفاهنا ، والنار فى بيوتنا (١) .

وماذا نترك لأولادنا ؟ !

ـ لاشيء سوى الحب .. فى تلك الحياة ، لا ينتظر منا اولادنا مالا ولا مجدا .

وهبت نسمات لطيفة من البحر . وصفق طائر بجناحيه فوقنا ، فانتزعنى من أحلامى . زوجتى تشكو من بائع اللبن . متسولة فى الخارج تجرح القلب بصوتها المشروخ القديم . أصوات السيارات تزعق كصفارات الانذار على الدوام . لو تطلعت من نافذة غرفتى لرأيت المشاجرات بين الناس . الأيدى تتضارب، الرءوس لا تفكر ، وانما تتطاحن كرءوس الثيران فى حلبة السباق . الطريق لا يسع الجميع . كل واحد يسرع حتى يفوز. الأرض تشكو السائرين ، تطلب رحمتهم ، تتحمل العبء وحدها ، فلا أحد يتطلع الى السماء . الأصدقاء تزوجوا . كلهم فى بيوتهم الآن . انجبوا الصبيان والبنات ، كلهم لم يعيشوا فى التبات والنبات . حملوا العبء مبكرين . أين الماضى وأمسياته ، والنقاش واحتداماته .. الذين سافروا لم يعودوا . كان البكاء معهم مرا ، والضحك محملا بالمشاكل والآلام ، ولكن أيامهم حلوة وزاهية ، فيها طعم ولها رائحة ، همست لى الزوجة وأنا كاب :

ـ مالك سرحان ؟

ـ لاشيء ...

ـ تشرب قهوة ؟ .

---

(١) بعض هذا الحوار مستقى من شعر ناظم حكمت .

ـ لا ...

ـ تأكل بيض ؟ .

ـ لا ...

ـ طيب .. ؟ !

ـ ولا جبنه .

ـ اعمل شاى ؟

ـ متشكر ...

وعدت الى الشاطىء من جديد لا ادرى لماذا تغيرت معالمه بعض الشيء .. العجائز اختفين .. حرارة الشمس تخف حدتها . هناك صفصافة تنحنى بفروعها على المياه . منذ سنوات لم اتأمل صفصافة . كنت أحب الأشجار والزرع . انتقلت الى المدينة ، فصدمتنى الحجارة والخشب والصفيح . ضاع اللون الأخضر فى عينى ، حلت بدله كل الألوان ، لكنى مازلت احن اليه . تطلعت الى المياه الزرقاء الممتدة ، على صفحتها الناعمة كان يسبح زورق صغير ، يرقد فوقه ملامح عملاق يضرب الماء بمجدافيه . ذراعاه قويتان صلبتان جابتا البحار والأنهار . جاع وسجن وتشرد . أحب الانسان فى كل مكان ، وهبه روحه وقلبه وعقله ، غنى له .. فصار غناؤه على كل لسان . الأطفال والنساء احبوه ، الشيوخ والشباب عشقوه . غاب عن بلده وهاجر ، فاشتاقوا اليه . الزائر ابتسم وقال :

ـ هل تحزن من أجل الانسان ؟

قلت :

ـ فى بعض الأحيان ...

قـال :

ـ وهل تشقيك آلام الحيوان المقعد ؟ !

قلت :

ـ انهم يتخلصون منه بالقتل ...

ـ الم تحزن من أجل النجم الخابى ؟ ! .

ـ انت شاعر .. ترهقنى كثيرا ...

وتململ صاحب الوجه المشرق وقال :

ـ تأخرت طويلا ...

ـ لم أشبع منك بعد ...

ـ وانا لم اشبع من الدنيا بعد ...

ـ هل تحب هـذا العالم ؟ ! .

ـ مثلما يحب الطفل الجائع ثدى أمه ...

ـ انى خائف ...

ـ لن تموت الا مرة واحدة ...

ـ اعيش وسط الزيف ...

ـ اطرد اشباحه عن نفسك ..

وغاب الزائـر كالطيف وعصفت أمواج البحـر أمامى .. تطلعت الى الصفصافة فلم أجدها . سكن الأطفال متعبين . قرص الشمس يدفن راسـه فى المياه الحمراء البعيدة .. ناس آخرون ينتظرون اشراقه .. لكنى حزين لفراقه .

احــــزان

لم اخرج من بيتى فى ذلك الصباح . فضلت ان اتفرج على الطبيعة وانا فى قوقعتى . شيء غريب أن تمطر فى الصيف ، لكن اللحظة لم تأت بعد . فقبـة السماء لا يبنى على صفحتها سحاب ، والناس لا يتوقعون المفاجأة . الأرض مخنوقة الأنفـاس يلفح صهدها الهواء كامرأة تتعسر فى ولادتها . شيء غامض يبيت معى منذ الليل لا ادرى كنهـه . لم اجد سـوى أحزانى القديمـة الجـأ اليها . قائمة الأحزان لا تنتهى ، وكميـة الفرح صغيرة لا تكفى قوت الانسان الجـائع للأفراح . الأيام ملساء مستقيمة كشريط القطار لا تحيد عنه العجـلات ، ولكن القلب يريد أن يرفرف ويحلق . تذكرت أيام المدرسة الابتدائيـة وموضوعات الانشاء .. وصـف يوم مطير .. ذلك ما تعودنا عليـه كل عام .. ولابد ان نستخدم عناصر الأستاذ .. وكلمات خالدة .. الوحل .. تعطل المواصـلات .. ثم فى النهاية تشرق الشمس ، فتملأ الكون بهاء واشراقا . وكلمات مهمة كان لابد من حشرها رغم كل شيء.. انها تدل على التذوق .. قبل أن تبزغ الغزالة من خدرها . كانت اياما حزينـة لم تبزغ لنا فيهـا غزالة . وفتحت فى مشـاعرى

طاقة الحزن المترعة . جسده النحيل امامى . عينـاه الواسعتان تشعان حيوية وذكاء . كنت اهمس له من زمان :

ـ ازيك يا محمد

ـ تعبان والله يا حسين

ـ طيب وبعدين .. متسافر ...

ـ لابد من كشف وتصريح .

ـ دى سـهلة

ـ والعلاج مش مضمون .

ـ ليـه ؟ ...

ـ لسه ماجربوهوش

كان يلهث . يحـاول رفع ابتسامة متعبة فوق شفتيه ، قلت له :

ـ يجب أن تستريح .

ـ ومن يتمتع بالراحة !

ـ ولكنك مريض ...

ـ كل واحد منا مريض ...

ـ انت مهدد بالموت

ـ اعرف ذلك ...

ـ وما الحـل ؟ !

ـ اعيش على امل الدواء الجديد ...

ـ ومتى يصـل ؟ !

ـ ثمانية عشر مريضا فى العالم ينتظرون مثلما انتظر ...

ـ فقـط ؟ !

ـ ان مرضى لا يهدد العالم .. نحن عدد صغير .

ـ احب أن تعيش بجوارى .

ـ قد يحدث هذا .

وطفرت الدمعة من عينى . تعودت أن اتحدث معه بصراحة. احكى له عن أسرارى ، وقد وعدنى أن يزورنى .. لكن الزيارة لم تتم . لم أستطع أن احزن عليـه . حزنه تحول فى قلبى الى فرح وحب للعـالم . كان يحتضن الأرض فى صـدره المتعب . لم اتصـور انه ينتمى الى ابيـه أو أمـه قرأت نعيه وتمنيت الا ينشروه كان ابن الانسان المخلص . يداه المتعبتان حفرتا بئرا فى الصحراء يشرب منه العطشى .. كلماتـه الحانيـة سطرت على جبين الأصدقاء والخلان .. لم اذهب الى جنازته لانى لا اريد البكاء . هنـاك عدد لا بأس به يستطيع البكاء .. دموعى عليـه هى حب الانسـان . فقط اريد أن ارى قبره الصغير فى الخلاء .. عاش لهم ، ودفن معهم بلا ضجيج او افتعال .. لم يمدحه أحد او ينافقه .. الذين عرفوه أحبوه .. والذين لم يعرفوه خسروا كثيرا .. ورفـع جبهتـه الى أعلى مرة أخرى .. كان ذلك فى عام العدوان :

ـ لابد ان تؤدب الاستعمار .

ـ ولكنهم ثلاثة جيوش ...

ـ نحن شعب كامل اصيل ...

ـ والأسـلحة ؟ ..

ـ موجـودة ...

ـ وخطيبتـك ؟

ـ سوف تكون معى ...

ـ لن تتحمل ...

ـ تجرب وتتعلم .. هذه حياتنا .

ـ ورئتاك المهددتان .

ـ هـذا كلام قديم ...

ـ ولكنها الحقيقة ...

ـ لن اموت فى النضال الوطنى ...

الأرض تحرك اولادها على سطحهـا . كلهم يجرون نحو أعمالهم يركبون اعلى نقطـة من قشرتها . لو ارادت ازعـاجهم لحركت جلدها قليلا ، سوف تسجل مراصدهم هزتها . قوقعتى محكمة صغيرة احاول الا يقتحمها مقتحم . حزنى لا يريد أن ينفرط . جامد صلد كالدرقة العجوز . أشياء صغيرة تكسر حدته كالذكريات ، قلت له فى مرة :

ـ معاك فلوس ؟ ...

ـ أيـوه ...

ـ كـام ؟ ...

ـ انت عاوز كام ...

ـ خمسة وعشرين ...

ـ لا ... خد خمسة بس .. انا معاى عشرة .

لم تمطر الدنيا بعد حسب نبوءتى غررت بى دموع السماء القليلة فى الصباح . كنت اتمنى ان تمطر . سوف اتخفف من هذا الضيق الذى أعيش فيه .

عربة البلدية ضعيفة مسكينة تائهة فى الشوارع كالشريد . عرق الناس يفح ، اشمه على البعد . هؤلاء الناس يستطيعون اتقاء الشمس .. لكنه لا يستطيع .. التراب يزيد من ضيقه وملله .. رأسه الذكية تحاول الخلاص .. لكن جسده مكبل مخنوق . شىء كالموسيقى يزهو فى اذنى .. نغم عذب فرحان ينساب فى القوقعة . ذرات الثلج تتساقط على قبره . نقر وديع ينبعث من داخله . صوت رطيب ينادينى أن أزيح التراب عن كاهله . مددت يدى امسح ظهر القبر لم يعجبه هذا الحنو الرفيق قال :

ـ ازح التراب .. سئمت هذه الرقده .

ـ ولكنك سوف تعود الى المتاعب من جديد .

ـ خطوة واحدة على الأرض تنعش روحى .

ـ كنت تشكو من أن المشى يتعبك .

ـ ولكنى كنت اشعر بلذة كبيرة بعد التعب .

وسكت الصوت قليلا وسمعت شهقة آملة :

ـ ما أخبار الدواء ؟ !

ـ لم يصل بعد ..

ـ هل رايت ابى ... ما احواله ؟ ! .

ـ ذبلت عيناه من البكاء عليك .

ـ وامى ؟ ! .

ـ اصبحت لا تفارق ركن صلاتها ليل نهار ...

ـ هل تزوجت أختى ؟ ...

ـ تأجل الفرح من اجلك ...

ـ قل لها تتزوج .. انا بخير ...

ـ أرجو ان اعتذر لك .. لم أسر فى جنازتك .

ـ هذه تقاليد .. انا اعرف شعورك نحوى .

ـ ولكنهم ساروا معك الى القبر ...

ـ قدم لهم شكرى .. قل لى .

ـ امسرك ...

ـ ما آخر اخبار العالم ؟ !

ـ أطلقوا امرأة فى الفضاء .

ـ انى سعيد .. أرجو ان تقبلها من جبينها .

ـ لم تزرنا بعد .

ـ وجيشنا فى اليمن ؟

ـ انتصرنا .

ـ سلم لى على الجميع .

وغام الصوت فى أذنى . رجعت الى السماء أتوسل اليها ان تمطر . كانت عنيدة شحيحة مقترة . لم يكن لديها الا أشعة الشمس المحرقة تصبها على الأرض . لكن هناك ما يرطب حدة الجو فى قوقعتى ، فنغمات الموسيقى تنتشر فى افقها ، تيارها الخفاق يشع فى ارجائها . وكلماته الوديعة كالفراشات الجميلة ترفرف حولى .

شـــقاوة

وقف محمود على محطة الأوتوبيس يتأمل احذية الواقفين، ويمط شفتيه بصوته الملسوع :

ـ الورنيش . الورنيش العال ...

لم يكن محمود يعنى هذه الكلمات فى تلك اللحظات ، فهو يعرف ان الناس ينتظرون الأوتوبيس ، ومن غير المعقول ان يبقى أحدهم ليمسح حذاءه . ولكن هـذه الكلمات انطبعت على لسانه فى كل مناسـبة ، متى قابله اى انســان فى القهوة أو الشــارع أو حتى فى الليل وهو نائم ، فهو يصحو مفزعا :

ـ الورنيش .. الورنيش العال .. تمســح .. تمســح يا بيــه ؟ !

ولا ينــام الا بعد أن تهدهده أمه ، وتطبطب عليــه وتلقى بالغطاء البالى فوق جسده الضامر ، ثم تهمس اليه بحنان :

ـ انت بتحلم يا ضناى .. نام يا حبيبى .

كان محمود يهرش جسده الذى يأكله ، ويحك قفاه فى تبرم وسخط ، ويستعرض أمام عينيه الصور العدة التى مرت به من الصباح حتى الآن . كانت أمه قد ودعته وهى تلثم جبينه الأسمر :

ـ روح يابنى ... ربنا يفتح عليك ..

وكان محمود يعرف بالخبرة أن ربنا لن يفتح عليه . فكم من مرة ودعته أمه بهذا الدعاء ولم يفتح عليه ، وطالما كرر هذه الكلمات بسخرية مريرة وهو يقف أمام الناس ذليلا يتذكر دعاء أمه له . ومع هذا قبل يدها وهو ينسحب من أمامها كالفأر الخائف .

وبعدما ترك أمه لف على المقاهى ، وحفيت قدماه ، فقد فات عليها قهوة قهوة ، يرمق أحذية الناس بحماسة وتمن .. وكم أحس أن أحد الجالسين يناديه حتى إذا ما وصله اتضح له أن أذنه قد خانته ، وأن هذا النداء أمنية موهومة خفق لها قلبه . وتمر الساعات وهو يقضى الوقت يلمع الصندوق الخشبى العتيق الذى ورثه عن والده . ويرتب الفرش الجرباء وعلب الورنيش الفارغة والملأى ، وسرعان ما تجيئه فكرة مفاجئة فيحمل الصندوق ليقابل زميلا له فى الصنعة ، يتسليان ويحكيان القصص الطويلة عن الزبائن ، عن كرمهم وبخلهم وأخلاقهم . يحكى أحدهما أن شيخا يلبس جبة وقفطانا محترمين كان قد مسح له الحذاء مرة ، فناوله الشيخ « تعريفة » ، ولكنه كاد أن يرميه فى وجهه لولا أن أخرج الأستاذ بقية القرش وهو خجل مكسوف . ويحكى الآخر أنه ظل طوال هذا الأسبوع لم يفتح الله عليه ، ولم يسهلها برزق ، وأخيرا فرجت بزبون كالح الوجه ، ثقيل الظل ، لا يسكت عن الشتم والسب :

ـ تلمع كويس .. آه اني مش كرودية ...

ونقلته مشاعره الخائفة الى امه التى تركها فى الصباح وحيدة منفردة تضع يدها على خدها فى حسرة والم . تنتظر هى الأخرى أحد الجيران يستدعيها للغسيل . ويخفق قلب محمود حين يتذكر تأوهاتها طول الليل :

ـ آه يانى يا جنبى .. آه يا ضلوعى ...

كان بوده ان يعمل لها شيئا يخفف من المها ويرضيها ، ولكنه لا يستطيع ، فهو يعيش على أمل الغد حين يسرح فى النهار ربما كان نصيبه حسنا ، فيلم قرشين او ثلاثة او خمسة يتغدى بقرش ، ويشرب سيجارتين ليعدل مزاجه المقريف . ثم يعود فى الليل ليدس فى يد امه القرشين الباقيين .

وتمر أيام على هذه الحال رتيبة مملة كالحة . وها هو النهار الذى كان ينتظره محمود بصبر فارغ وامل مشرق . ها هو يمر بساعاته الطويلة كالأحجار الثقيلة ترسخ على قلبه ، وتقتل امانيه وامله الوحيد . ومرت عربة تتبعها اخرى ، ومحمود ساكت لا يدرى شيئا مما حوله ، الا انه يقبض على الصندوق بأصابعه الصغيرة الهزيلة .. واخيرا فكر فى شىء لذيذ . لقد جرب حظه اليوم فى هـذا الحى فى « الدقى » ولم يجن فائدة ما ، لماذا لا يجرب حيا آخر . لينتقل مثلا الى عابدين ربما انفرجت الحكاية . ان زملاءه يلفون القاهرة بشوارعها على اقدامهم ، طالما حدثوه عن مغامراتهم الحية . وتجرأ محمود فقفز خلف العربة . ومال براسه لئلا يراه الكمسارى . ومرت محطة شعر خلالها محمود ان اصابعه قد تجمدت ، فرفع قدميه ليستعيد نشاطه . وتطلع فى غاية الحذر من خلال الزجاج الى داخل العربة . كان الكمسارى لايزال بعيدا فى الدرجة الأولى ، وانبسط

محمود جدا ، فقد احس انه ولدت له قدرة عجيبة على المغامرة والتحايل . واستيقظت مشاعره بفرح غامر ، وتصلبت اصابع يده على حافة العربة من اعلى . ومرت محطة اخرى ، وبعدها سرى همس عرفه محمود على التو . انهم يهمهمون بشأنه ، وبسرعة كان الكمسارى قد قفز من الباب وهو يصفعه :

ـ انزل يابن الـ ... انت عاوز تجيب لى داهية ...

وتسلطت عليه النظرات ؛ كان بعضها يشفعه بالعطف والشفقة ؛ وبعضها يعتريه حماس غريب لسبه ، وهمست احدى النساء :

ـ دا واد شقى خالص .. انا عندى لما يمشى احسن ...

وحين لسعت صفارة الكمسارى أذن محمود كان قد قفز على السلم وراء كتلة الركاب التى تزدحم عند الباب . الكلمات تنحدر اليه من قريب :

ـ تذاكر .. الفلوس .. تذاكر اللى مخدش ...

واستعد محمود لأن يرمى بنفسه فى اية لحظة يقترب فيها الكمسارى منه . وقبض على الصندوق بذراعه اليمنى . وتشعلق بطرف يده اليسرى . كان خائفا جدا ، يخيل اليه انه سيقع من آن لآخر ، ولكنه تجلد وارسل بصره الى الخارج كأنه لا يهتم بشىء مما يجرى حوله ، وعادت اليه الطمأنينة حين هتف المفتش من الدرجة الأولى :

ـ ادينى المنفستو يا على ...

وقرب قصر النيل انزلق محمود وهو يسابق العربة التى وقفت لتفرغ معظم ركابها . ووقف هو امامها . وفى هذه الأثناء كان الكمسارى قد جلس يستريح ، ونزل المفتش ليقفز فى عربة

اخرى . وراود محمود اصرار عجيب فى ان يكمل الركوب . ولم يتوان فرمى بقدمه اليسرى على السلم وبقيت قدمه الأخرى تتطاير فى الهواء استعدادا للطوارىء ، ولف يده حول الصندوق كالكماشة ، وشعر بالغبطة تتسلل الى نفسه ، وحاول أن يشعل عقب سيجارة تماديا فى عدم اهتمامه ، ولكنه فشل . وقام الكمسارى مأخوذا يضرب كفا بكف وهو يرى محمودا بوضعه العجيب :

ـ هو انت لسه راكب ؟ ! .

ولم يتمالك نفسه فضحك ، وضحك معه الركاب ، ولكنه استعاد رزانته وهدوءه المعتادين .

ـ انزل يابنى بقى لتتعور .. ياخوى انزل خلى النهارده يفوت على خير ...

ولم ينزل محمود ، بل تسمرت قدمه اليسرى على سلم العربة ، واخرج لسانه للكمسارى وهو يغيظه ..

ـ لأ مش نازل .. هه .. هه ...

وتظاهر الكمسارى وهو يوهم محمود انه لا يتحرك من مكانه ، مع أنه كان يتقدم ببطء غير محسوس ، ولكن محمودا شعر بذلك جيدا . فهتف بتحد وعزم :

ـ والله لما تكون انت مين يستحيل تمسكنى ...

وعلا الغيظ وجه الكمسارى وهو يقطع تذكرة لأحد الصاعدين الى العربة ، وخمن بينه وبين نفسه أن يتركه قليلا ثم يجرى عليه على سهوة .. ومر الوقت والعربة تتقدم فى سرعة

كبيرة . وفجـاة قفز الكمسارى نحو السـلم يريد ان يتنـاول محمودا من أى جزء فى جسمه ، أو يمسـكه من جلبابه وفى لمح البصر لم يجده امامه ، كان محمود قد انزلق بسرعة عجيبـة الى الأرض .

وتحسر الكمسارى وهو يقف خجلا امام الناس بعد ما قاربوا عابدين ، وبعد ما ترددت الى سمعه بعض الكلمـات التى زعق بها محمود وهو يجرى يسابق العربة ويبصق عليها :

ــ والله .. ولا انت ولا احسن منك ولا ابو رجيلة نفسـه يستحيل يمسكنى .

التفاحة

باب البستان يرحب بالجميع . كلهم يدخلون باسمين فرحين . فرصة حلوة ان اقطف ثمرة ناضجة . شىء رائع ان انسى فى احضانه احزانى المزمنة . قلت لحارس البستان فى ضعف :

ـ انى متعب .

قال :

ـ يمكنك ان تستريح كما تشاء .

تطلعت اليه فى استعطاف .

ـ وجوعان .

قال :

ـ امامك الثمار الى أن تشبع .

قلت :

ـ انا حزين :

قـال :

ـ الحزن سبيل الى الابداع .

ـ تعس .. مازلت ابحث عن نفسى .

ـ الجميع يبحثون عن انفسهم .

ـ موهـوب .

ـ حاول التعبير .

قلت لحارس البستان :

ـ وما هذه الكلمة المضيئة على جبينك ؟ .

ـ الحب .

وبجسدى الأعجف حشرت نفسى مع الداخلين . يد الحارس تدفعنى فى حنان ، عيناه ترقبانني يتهم قلبـه يأرق من اجلى . كثيرون يمرون عليـه . لا يسببون له المتاعب . يبدو انه يشـك فى نواياى . تركنى دون أن يشعرنى بشىء . قطفت ثمرة برتقال والتهمتها بقشرهـا . انتزعت كتلة من الموز انتحيت بعيـدا عن الجميع . ابتلعتها فى وحشية ، ذهبت الى نهر البستان الصغير .. فشربت . ارتحت قليـلا ارمق ما حولى . النـاس يضحـكون ويأكلون ويلعبـون . الأطفـال يجرون بين الأشـجار يسقسقون كالعصافير . سمعت بعض الأغنيات الجماعية تتردد . قريبـا يشرق فجر الانسان . قريبا يجد اللقمة والحرية . عدت مرة اخرى الى احدى اشجار المشمش . اسقطت كثيرا من ثمارهـا فى حجرى . كنت اشعر بالشبع ، لكنى استمررت آكل حتى احسست بالقىء . تقدم حارس البستان منى يقول :

ـ كفى .

ـ انا جوعان .

ـ اكلت كثيرا جدا .

ـ احس بالقىء .

ـ ارحم معدتك .

ـ اخاف ان اجوع بعد ذلك .

ـ الباب مفتوح من الصباح .

آخذ بعض الثمار .

ـ يستحيل .

ـ لم ؟ .

ـ والآخرون .

بعض الناس يخرجون بعد ان طعموا وشربوا . وقفت مشدوها بين هذا التيه المحير . اكل هذه الخيرات بين يدى ! سقطت على راسى ثمرة تفاح شهية . تذكرت قصة آدم وحواء . التقطت التفاحة وخبأتها فى جيبى . وتحت شجرة خضراء قرب نهر البستان مددت ساقى الى المياه .. لن اخرج من هنا الى آخر عمرى . اين اجد هذه الراحة الأبدية . اذا خرجت سوف يطالبوننى بالديون . المستشفى قد يرفضنى مرة اخرى . الذين يساعدوننى يتسلون بأزمتى . يجب الا اثق فى أحد . أطل الحارس بقامته العملاقة يقول :

ـ انتهى موعد الزيارة .

ـ لم اتمتع بعد .

ـ غدا .. الباب مفتوح فى الصباح .

ـ وأين أبيت ؟

ـ لست مسئولا عنك الا عندما تكون فى البستان .

ـ انك رجل طيب .. ارجوك تتركنى قليلا .

تركنى قليلا . عدت الى داخل البستان هاربا . رحت أجمع الثمار فى حجرى .. لمست الأزهار بخدى . التقطت رذاذ الماء بفمى . لم يكن بيدى أسلحة . يستحيل ان أخرج من هذا البستان . انه أملى وسلواى . ليس بجانبى أحد يشاركنى خيراته . بمفردى أتمتع بجماله الربيعى الفاتن . وعهدى أن آكل واشرب وارتاح . فى الخارج يتنافسون على كل شيء . طحنتنى أقدامهم الغليظة . ينتظرون خروجى حتى يجعلوا منى مشكلة.. كل عملهم أن يحلوها ويفكوا رموزها . انا مرتاح هنا .. جاءنى صوت من بعيد .. استمعت اليه يقول .. الأمنية التى حلمت بها تتحقق .. المياه التى ظمئت اليها طويلا تسيل عند أقدامك .. ثمار المانجو التى سجنت من اجلها فوق رأسك .. الحنان .. اروع ما جاءت به .. تجده فى قلب حارس البستان .. يكشط متاعبك ، كما كنت تكشط القشدة زمان .. التفاحة فى جيبك . صوت الحارس يطغى على أحلامى :

ـ هيا .. أسرع .

ـ مالك تكلمنى بهذه الطريقة .

ـ لأن الجميع خرجوا من فترة طويلة .

ـ اعتبرنى ضيفك .

ـ تحملتك طويلا .

ـ لقد استقبلتنى بترحيب شديد .

ـ هذه حال الدنيـا ...

ـ انا لا اعدك كالآخرين ...

ـ سوف أذهب الى بيتى الآن .

ـ وتغلق باب البستان !

ـ نعـم ...

ـ ومتى يصبح هذا الباب مفتوحا على الدوام ؟ !

ـ عندما تكفى ثماره الجميع ...

ـ وفى اى وقت يحدث ذلك ؟ ! ...

ـ حينما تخرج التفاحة من جيبك ...

الديون تتراكم فى خيـالى .. اقـدام الآخرين تشبح فى ناظرى . موهبتى تلح على ، اريد ان اعبر . السـمك الكبير يأكل السمك الصغير منافذ الضـوء مغلقة . الظلام يسرق النور من عينى . هذا الحارس يريدنى أن اترك جنتى . لن أتخلى عن التفاحة . انها فى جيبى حتى أجوع . كل واحد فى يده رغيفـه هل يسكت عنى ...

ـ يا سيدى .. لاتضطرنى .. أسرع من فضلك ...

ـ ارجوك .. اعدك صديقا حميما ...

ـ ليس فى كل الأوقات ...

الثمار تتساقط من حولى . وقت الغروب يطبع البسـتان بهدوء حالم . العصـافير تسكن فى أعشاشها . مياه النهر الصغير غامت تحت ظلال الأشجار الدكناء. شبح الحـارس العملاق يلقى على ثقله . ألحان القنوط تدب فى وجدانى . الفرحة تضمر فى صدرى . الوحشة تملأ نفسى .. العودة للخارج تحزننى .

عبر النار

فى ذلك الصباح استيقظت وانا اشعر بالسأم والقرف . لم يكن لدى ما افعله بحماسة . شربت كوبا كبيرا من اللبن ، اكلت بيضتين طازجتين محمرتين فى السمن ، وشربت شايا بالنعناع ، ثم ختمت بسيجارة .. وانتظرت ، ترى على اى كتاب يقع الدور . حزنت من أجل نفسى ، صعبت على الأيام الماضية . عالم الكتب الذى اعيش بينه ميت فى بعض الأحيان . اسرعت ارتدى ملابسى وأندفع الى الخارج . المقهى احلى مكان يمكن أن يستقبلنى ؛ لكن سوف أعود الى الشاى والقهوة ؟ ! .. ليكن .. ارخيت العنان لمشاعرى أن تسبح . كل الجرائد لم تسترع انتباهى . حفظت الاسطوانة . الجرسون شبح يقفز ، كرهت استكانته وضعفه . المحالون على المعاش وبعض النساء الأجنبيات يسترخون معى للاستمتاع بشمس ديسمبر . قفلت الكتاب امامى . لا وقت لسارتر او شو أو حتى تشيكوف . تمنيت أن يرزقنى الله بفكرة اتسلى بها ، أو حلم جميل أعيش فيه ، لم أجد الا صديقى المهاجر أحن اليه .. منذ فترة طويلة وهو

يراسلنى ، وانا اريد ان أكتب اليه لكنى عاجز ، كيف تتحول ذكرياتي معه الى كلمات جامـدة كالجثث الميتة . بعض الأفـكار ترقـد فى اعمـاقى خائفـة . تشـتاق الى لحظـات انطلاقها .. لكن متى ؟ .. الانسـان الآخر يقف بجـانبى كرجـل البوليس . اوامره البغيضـة لا تنتهى . تحـذيراته السخيفـة لا تفـارق اذنى . امتد بصرى الى حشد الناس الهـائل بجوار المقهى .. قمت اتفرج وشيء ما يكسر قشرة الكآبة عن نفسى .

وجدت بطلا عظيما . سوف يجذب الناس جميعا . كلهم يعطفون عليه . يتأثرون به جدا . منذ عشرات بل مئات السنين وهم يقفون حوله يتفرجون . بدات الفكرة تكبر فى راسى رويدا رويدا . نظرت الى الجسد العملاق أمامى ، يقيده اثنان بالحبال. كان الهم باديا عليه ، يحتقن وجهه بزرقة متعبة ، عضـلات يديه مشققة من اثر المرات السابقة . هتفت فى سرى يا لها من قصة رائعة .. بطلها يستحق العطف والرثاء .. وتسللت الحماسـة الى قلبى فاقتربت من الحلقـة . كان يطلب منهم التصفيق قبل ان يقفز من حلقـة النار وهو مقيـد . دار عليهم يلم المعلوم .. وتوقف عن اللعب . كان قـد طلب عشرة قـروش ، فـلم يلم الا خمسـة . قال لهم :

ـ يا ناس اعتبرونى رياضى فقير .. الواحد منكم بيمسح الجزمة بقرش .. ابن بلدكم عاوز خمسة صاغ .. احنا لا بنسرق ولا بننهب ولا بنـ ... بناكل لقمة العيش بالعرق .. خمسـة صاغ يا ناس ...

وتأثرت جدا بهذه الكلمات ، فأخرجت من جيبى قرشا .. هو لا يدرى نيتى تجاهه ، القصـة تتكون فى راسى .. يغزوها بشخصيته الفريدة الحية . كان كالتمثال الرومانى المصـارع . العرق ينضح من كل جسده ، والناس يشفقون عليـه . ركب

الدراجة ويداه مقيدتان بالحبال . حمل اثنين من اقوى رجال الحلقة ، ودار بهما عدة دورات بين التصفيق . قبل طفلا ليبعده قليلا . يا له من بطل كبير . لن استطيع ان أعثر على واحد مثله . سوف انتظر الى نهاية الشوط . كان دائما يحذر من اللصوص والشواذ . فى مرة قرات قصة رومانية ينتهى بطلها الحاوى بابتلاع الأمواس التى يلعب بها ويموت .. لا .. يجب أن يعيش البطل . وسمعته يصيح فجأة قبل ان يقفز عبر النار :

ـ انا حقول كلمتين .. بس الراجل الجدع يدنو واقف مطرحه . والراجل الندل يمشى .. انا طالب أربعة صاغ بس .. مين شهم يمد ايده .. بس خلوا بالكم من الحرامية و ...

وهمهم بعض الرجال . وحدثت تنقلات صغيرة . ثم مر البطل على الحاضرين حتى خرج بأربعة القروش . ثم وقف امام حلقة النار وطلب التصفيق ، فدوت الأيدى فى الهواء ، وفى لمح البصر كان فى الناحية الأخرى من الحلقة ، فأعاد الواقفون التصفيق . وأجهش هو فى صوت مختنق وهو مازال فى قيوده :

ـ ماحدش يمشى .. لسه فيه العاب كتيره .. انا عاوز اربع رجالة جدعان يشوفوا الحبال مربوطة ولا لأ .. أربع رجالة راضعين من لبن أمهم ...

وظل يتكلم .. كان يريد أن يعيد الحكاية .

عدت الى المقهى أرقب همومى من جديد ، وأرتب شكل القصةفى راسي . لقد شحننى بطل القيود بالتمرد والنشاط . اعطانى فكرة جاهزة حية وحدثا ملتهبا بالمأساة الانسانية . عندما ابدا قصتى سوف أجعله فى حالة هادئة ، بعيدا عن نار الحلقة .. يستحب أن يكون فى حالة شيخوخة هرمة ، وياحبذا

لو فقد أحدى ذراعيه .. شيء محزن .. ولكن الفكرة تحتاج الى مؤثرات .. وطلبت فنجانا من القهوة واشعلت سيجارة . ومددت بصرى الى الشمس أتملى نورها ، سوف ابدا هكذا .. فى الظل جلس يستريح ، جرحه القديم ينزف .. فى راسه تتداعى الأيام الماضية وراء بعضها .. التصفيق يملأ اذنيه ، الكرام يمدون اليه أيديهم . وصمت وانا خائف . كيف اتجنى على انسان حى بمثل هذا الخيال السقيم ؟ ان البطل مازال معافى يكافح فى سبيل اكل العيش . ولكن لا بأس ، لابد للقصة من خيال ، لن تساوى شيئا اذا وصفته كما هو . لابد من خلط الواقع بالخيال .. اللحظة الحاضرة بلحظة الحلم . التفاصيل مع الفكرة العامة . ان تصب فى مجرى النهر الواهم .. نهر الانسان المغلوب على امره . هناك بداية أخرى ، ربما أوفق .. على الربوة العالية وقف العملاق مقيدا بأيدى المتفرجين ، كانوا يصفقون له ، أعماقهم تسخر منه .. بعضهم اعطاه قرشا . والآخرون يمتعون النظر مجانا ، ما احلاه من مسرح رخيص ، بطله انسان حقيقى يتعذب ، لا يمثل .. الحبال الغليظة تركت على عضلاته آثارا لا تمحى ، والحروق الصغيرة تبين فى صدره وكتفه طازجة وميتة . ترك الدبوس الذى كان يعلق به زجاجة الكوكاكولا نافذا فى جلده . نيشان الألم يشهد على استشهاده . مسيح آخر يصلب كل يوم ، ولكنه لا يموت . اذن وصلت الى البداية المنفلوطية . كلام فارغ ، فلأعد للحياة أستمد منها الموضوع .

المتفرجون يفضون خيط الحلقة .. البطل يجفف عرقه الفائر . يستعيد انفاسه لاهثا . مازالت أشباح التعب تخفق فى صدره . استند على دراجته يستريح . اخذ يطبب جروحه بقطعة من الخيش المحروق .

اطفأ نار الحلقة . لم حبال قيده ووضعها فى جواله الصغير . تعثرت وانا اتقدم اتودد اليه . حييته ، فلم يرد على التحية . كان مازال يلهث . طلبت له شايا من المقهى ، فجلس يتجرعه فى لذة ، والعرق المترب يسيل على وجهه المحتقن . همست له والفضول يدفعنى :

ــ منذ متى وانت تعمل هكذا ؟ ! .

ــ انت بتتكلم نحوى .. اتكلم زينا .

ــ يعنى بقالك قد ايه بتشتغل عضل ؟ .

ــ عضل .. انا عضل ؟ !

ــ امال ايه ؟ !

ــ غلبان !

ــ ليه . ؟

ــ يا اخى هو انت ربنا جعلك وصى على العباد .

ــ لا .. اصلى حاكتب قصة عنك .

ــ قصة .. عنى .. ياعم صلى على النبى ...

ــ دا حتطلع قصة حلوة ...

ــ وايه فايدتها . حاخد منها ايه .. روح يا عم ربنا يسهلك .

واخرج رغيفا من جيبه ، وراح يقضمه فى شره بعد أن كسر بصلة بقبضتيه . وارتفعت فى انفى رائحة بيض الصباح بالسمن وكوب الحليب الكبير ، فشعرت بخيبة يائسة لقد حطم لحظة

التنوير بالقصـــة . قتل خيالها الجامح . لم يستجب لنداءات قلبى ووجدانى . كان بيده ان يعطينى مفتاح البداية ببساطة . كلمة منه يمكن ان تفعل معى فعل السحر . قبل أن أتحدث معه كان نهر القصة يجرى فى مخيلتى ، لكنه توقف الآن .. الجفاف يســود احــلامى . عالم الواقع قاس ومرير ، تقصف أقلامنــا امامه . لم يمهلنى حتى اعيش فى يأس . قال وخيوط الشـــمس الدافئة تجفف ذرات عرقه الشتوى :

ــ وبعد ما تكتب القصة حتوديها فين ؟ !

ــ فى المجــلة ..

ــ فين دى ؟ !

ــ فى مصر ..

ــ طيب وانا ايش عرفنى .. دا انا ســواح فى البــلاد ، مرة فى قبلى ومرة فى بحرى ومين عارف بعد أيام حكون فين .

ــ احوشلك نسخة .

ــ نسخة .. نسخة يعنى ايه ؟ !

ــ يبعنى عدد من المجلة .

ــ آه .. وطب انت حاتاخد كام على القصة دى ؟ !

ــ عشرة جنيه .

ــ ياه .. ! عشرة جنيه حته واحده .

ــ ايه مش مصدق ؟ !

ــ لا .. مصدق .. اصل عمرى ما وقع فى أيدى عشرة جنيه حته واحده .. كلها قروش .. قروش فكه .. ماسحة من أيام السلطان حسين .

واعترانى خجل غريب .. بالأمس كنت اسهر مع الأصدقاء وامامنا اطباق الاسكلوب والبوفتيك .. نثرثر عن ازمة الجيل ومسرح اللامعقول قال احدنا .. ان حياتنا عبث .. وقال آخر .. ان اروع لحظة هى فى اجتماع العبث مع العدم حين نستقبل الموت بشجاعة . وتحمس ثالث وهو يقضم قطعة من اللحم : وهذه هى المأساة .. وانفجر الأخير يفتح باب المناقشة على مصراعيه :

ـ حد قرا فيكو ياخوانا مسرحية الحكيم الجديدة ؟ .

اجبنا فى نفس واحد :

ـ طبعا .. كلنا .

قال ولهجة الامتعاض تبدو على شفتيه :

ـ دى تخريف .. سلحفة ايه وشجرة ايه دى !!

قال احدنا :

ـ السلحفة رمز لـ ... والشجرة رمز لـ ...

وانشغلنا فى الأكل من جديد وبخار الشراب يشعشع فى الرءوس ....

كان البطل قد وضع كل عدته فى جواله الصغير ، ثم ربطه فوق دراجته القديمة ، وانتزع دبوس الكوكاكولا من لحمه . لم استطع ان استرجع معه الحديث المبتور . كل ما انتزعته منه ثلاث كلمات صغيرة :

قلت له :

ـ الى اين . ؟

قال :

ـ الى بلاد اخرى .

الانســان والتمثــال

عندما رأيته لأول مرة كان لطيفا وسمحا وحبوبا . استقبلنى بترحيب ومودة . فرحت لوجهــه المتورد وبسمته . قال لى ، اطمئن وخذ حريتك .. فسررت ، لكنــه عاد بعد أيام من لقائنا الأول هامسا .. عليك أن تسمع كلامى .. انى أعرف الطريق قبلك ، ولى تجربة حية فيه .. وانه طويل وشــاق ، وهــذه يدى ممدودة اليك .. فأمســك بأصابعى والتفت الى نصيحتى، واحذر ما أنهاك عنه . قلت والنية الحسنة رائدى .. حــاضر . ابتسم ابتسامة منتصرة وقــال :

ــ هل تأتى معى ؟ .

ــ الى أين ؟ ..

ــ الى بعض الأصدقاء ...

ــ لا أعرفهم من قبل ...

ــ لا يهم .. سوف يصبحون أصدقاءك ...

ـ ولكـن ؟

ـ يجب أن تدعم علاقاتك ...

ـ وما قيمة هذه العلاقات ؟ !

ـ سوف تكون مصادر أخبارك ...

ـ لا يهمني الأخبار ...

ـ يجب أن تكون مرنا ...

وسرت معه . عيناه كانتا تبرقان في الظلام . صوته الأجش يخمش أذني كصـوت ضـفادع الليل في القريـة . لا طعـم له ولا لون . أخذ يسب زملاءه الذين احتضنهم أمامي منذ فترة وجيزة . شكا من الأحوال والزمان والأوباش الذين يعاشرهم . سمعتـه يهمس لنفسـه .. طيب أولاد الكـلاب .. سـوف أريهم .. انحرفنا وشربنا عصير قصب ، ثم بعد خطوات قصار سقاني جزرا . وفي احدى المنعطفات الملتوية دخلنـا حانة من الحانات . وصفق بنشوة ، وطلب خليطا من البيرة على الكونياك ووضع علبة السجائر على المنضـدة ، كان يتكلم دون أن يعطي لوجودي أهميـة .. دخلت من الباب الخلفي .. من مثلي خاض الصعاب ، تعبت وعرقت .. كنت أهين نفسي من أجـل خبر واحد .. تزلفت لعديد من المديرين والرؤساء والأحزاب حتى اكون نشيطا .. والممثلين والممثلات .. ورشف جرعة الخليط.. كانوا يستعبدونني .. أحاول اضحاكهم .. فيسخرون مني .. آخذ سمة الوقـار فيقهقهون .. وتمددت كآبة تعيسـة متعبة على وجهه :

ـ هل تعرف .. كم جريدة تنقلت فيها ؟ ..

ـ لا ..

ـ خمس وعشرون ...

ـ هل تخصصت فى شىء ؟ .

ـ لا تخصص فى الصحافة .. كنت محررا فنيا فى بعض الأحيـان .. ثم عملت فترة مندوبـا للمواصـلات وتدرجت فى الشئون الاجتماعية .. وهاأنذا كما ترانى رئيسا ...

ونظرت فى وجهـه ذى الندوب الصفراء . لم أسـتطع ان امسك اى شعاع فى عينيـه . كان ينظر فى كل اتجـاه . قلق متوتر متضـايق .. انفه يرتعش فى عصبية .. شفتاه تبتسمان ابتسامة تقليدية قديمة ، لكن وجنتيه المتقلصتين تنمان عن ازمة طاحنة . اصبحت اتشكك فى نواياه . اصبح كالتمثـال الذى يلازمنى ليل نهار . كلما قابل انسانا كان يستعد للقائه كمـا ينبغى . يتلون بألف وجه . لم تكن لى حيلة ، كنت أفعل مثله .. انها طريقة مريحـة .. وأنا صغير لم أكن أعرف الابتسام . ففى قريتنا يضحكون عاليا .. بل غالبا ما يبكون .. وعلى يديه فى المدينة علمنى اياها .. ان « أفردها » فوق وجهى حتى أكسب العلاقات ، وأحل المشاكل ، والطف اية أزمة .. انها مدرسـة الابتسامات التى لم اتخرج فيها .. الطـالب فيها يعانى الكثير .. فى البداية لا يستطيع الابتسـام بسهولة .. ثم يرى ما حوله .. الجميع يبتسمون .. لكنه متجهم حزين .. لمـاذا يبقى هـكذا وحيدا .. فيضغط على وجهه .. فيبرزها مختنقـة مجهدة .. ومرة فمرة تخرج منبسطة عريضـة تسر العين والخـاطر .. اننى الآن أكره هـذه الابتسامة .. اريد ان ابصق بدلا منها .. سخيفة ومائعة لا تعنى شيئا .. لست دبلوماسيا ولا تمثالا .. اننى انسان . حطمت كبرياءه منذ أيام ، وطفت معه بعض الوقت فى اماكن متفرقة . سافرنا الى الريف ، ثم وقفنـا أمام أحـد الحقول الخضراء . لاحظت اضطرابه وقلقه . لم تجد عيناه فرصة

للزبغ . دخلت فى قدمه شوكة فآلمته ، فجلس يبحث عنها ويسب . قلت له وانا امنع الشفقة من ان تتسلل الى نفسى :

ـ هل عانيت آلام الشوك قبل الآن ؟ ..

ـ حياتى كلها اشواك ...

ـ الممثلين والممثلات ؟ ! ..

ـ وغيرهم ...

ـ ولكن هذه شوكة حقيقية .. لن تستطيع انتزاعها بزجاجة بيرة ، او كلمة مجاملة ، او ضحكة لينة .

ـ كيف انتزعها ؟ ..

ـ الجميع هنا لا ينتزعونها .. انها شىء عادى .. اقل ما يتعرضون له .. وقد مات وجف جلد اقدامهم وتحته شوك كثير .

ـ لست متعودا على هذا ...

ـ ولكنك مجرب وخبير وتعمل رئيسا ...

ـ ولكنى لم أزر الريف الا مرة واحدة ...

ـ ولماذا تكتب عنه كل هذه المقالات ؟ .

وسرحت به قرب نهير عذب للمياه .. يسير مجراه بين الخضرة الممتدة . همست له :

ـ ألم تذق طعم ماء النيل ؟ ! .

ـ اشرب الماء المعقم من محطة جنوب القاهرة ...

ـ هذا الماء طعمه حلو ...

ـ انى أشرب البيرة كل ليلة ...

ـ انهم هنا لا يعرفون البيرة ...

ـ أشرب عصير المانجو والبرتقال ..

ـ ولا هذه المشروبات ايضا ...

وتركته بعد هذا اللقاء وهو يحاصرنى . بقيت فى قريتى وسط الفلاحين . الشيخ على مازالت عينه عوراء ، وعينه الأخرى ظلام دامس .. اللون الأصفر يخيم على الوجوه . أصدقاء الطفولة تزوجوا وانجبوا أولادا كثيرين . عجوز القرية مازالت تحبو منحنية الظهر ، صوتها يضمر شيئا فشيئا . النخلتان المثمرتان وراء بيتنا شاختا ، فقطعهما أبى ، ثم قسمهما الى كتل صغيرة ونذرهما للأموات الجدد يريحون تحتها أجسادهم . تعجبت من أفواج الجراد التى تهجم من شمال القرية ، والفلاحون مستعدون لمقاومتها فلا يستطيعون . جلست على محطة السكة الحديد ، فلم الاحظ أحدا يركب أو ينزل ، الناس انكمشوا فى هذه البقعة ، لا يريدون الاتصال بالخارج الا فى حالات الموت . سررت من هذا السكون والهدوء المقفل . بحثت عن مصحف أقرأ فيه . أحسست بيد التمثال الحديدية تقبض يدى .

ـ هل تصلكم الجرائد ؟؟

ـ لا ..

ـ الا تسمعون الاذاعة ؟

ـ قليل جدا ...

ـ يجب أن تفتحوا نوافذكم للحياة ...

ـ نوافذنا مفتوحة .. ولكن قلوبنا مغلقة ...

ـ لـم ؟

ـ لأنكم لا تبحثون الا عن مصالحكم ...

ـ وما الذى يتعبكم ؟

ـ الشوك يدمى أقدامنا .. ومجارى مدينتكم تلوث مياه نهرنا العذب ...

ـ اكتبوا الشكاوى .. وانا اعدكم بالمساعدة .

ـ منذ خلقنا الله ونحن نكتب الشكاوى ...

وغاض صوته بين الأصوات الزاعقة .. تجمعوا حوله مبهورين . تعفرت جبهته من تراب الأرض ، فأحس بالضيق ، خنقته الأنفاس الحارة المحيطة به ، فمسح عرقه بمنديله الأبيض الموشى . حاصروه بالأسئلة .. فلم يستطع الاجابة عن أى سؤال . حاولت أن انقذه ففشلت . ابتسمت كما يبتسمون فى المدينة ، فلم يلتفتوا الى . قلت لهم .. نحن فى خدمتكم .. فصاحوا .. انتم كذابون . ارسلوا اناشيدهم المحتجة .. نحن لا نأكل من الكلام .. علمتنا الأرض الصدق والاخلاص والمحبة . طلبت منه أن يهرب حتى يكفوا عن الضوضاء ويهدءوا رفض اقتراحى . وأراد أن يستخدم خبرته فى معاملة الناس .. قال والحماس الزائف يكسو وجهه :

ـ سوف نكتب تحقيقا عن مشاكلكم ...

ـ صاح الجميع :

ـ لا ..

ـ طيب تكتبون شكوى ...

صاحوا مرة أخرى ..

ـ لا .. لا .. لا ..

ورأيت التمثال يذوب أمامى . يود الفرار بجلده من هـذه الورطـة التى وقع فيها . استغاث بى أن أتودد اليهم ليطلقوا سراحه . حاولت ذلك بحجة أنه غريب ، لم يزر القرية الا مرتين .. هبوا ساخطين محتدمين .. ولمـاذا يكتب عنا .. وطلب منهم شربة ماء . فرقت قلوبهم لحـاله . أشفقوا لضعفه . جرى أكثر من واحد ليحضر له المـاء . شرب ماء النيل وهو مغلوب على أمره . تطلعوا ينتظرون عودة الدماء فى وجهـه . قال أحدهم بصوت خافت .. نحن نكرم الضيف .. ولكن لا نقبل أن يضحك علينـا أحد .

وعدنا الى المدينة وقد استرد التمثـال روحه . رأيتـه واجما على غير عادته ، صامتا يفكر فى أشـياء مجهولة . تمنيت أن أتحدث معه ، ولكنى شعرت برفضـه المقدم . أشعل سيجارة وراء أخرى ، ثم انحرف وشرب عصير مانجو ، تبعه آخر من الفراولة . أحسست بأطياف الهزيمة تضـوى حوله . الأصوات الزاعقة تصم أذنيه المرتعشتين الحمراوين . غبار الرحلة يعفر ملابسه الأنيقة البيضـاء . الكلمات والابتسامات التقليدية ماتت على شفتيه . أخرج القلم ودون شيئا فى مذكرته . كان هنـاك ممثل كبير يلتف حوله الناس فى أحد محـلات أربطة العنق . ودب النشاط فى قدميه . كان يقترب من الأصـدقاء . تذكرت جلسته السابقة . فأحسست بشـوكة حقيقية تنغرز فى قلبى . وارتسم فى عينى النهير الصغير فى قريتنا ، وطعم ماء النيل الحلو ، والأصوات الهادرة الصادقة ، ثم زجاجة البيرة الصفراء ، والثرثرة الفارغة ، والعواطف الجوفـاء ، فتوقفت عن السير ، وودعتـه فى صمت .

لحظة تعب

أمام الموج الهائج جلست استريح . الريح العاصفة تلطم وجهى . الثعبان لا يريد ان يتركنى فى حالى . راسه الصغير يتلوى رافضا . جسده النحيل يزحف على مقربة منى . عيناه الفضوليتان تنزعان الطمأنينة من نفسى . قشرة جلده تدعو الى القرف . همست له فى خوف .. دعنى فقد تركت لك البيضة فى الليل . يكفى انى أجوع لاقدمها لك ، الا تشبع ، تريد أن تمص دمى . خبأت راسى بين ساقى مرتعدا . لن استطيع .. مازال بصيص الأمل يطل من بعيد . المياه الدافئة تغرينى ، والألم يدفعنى ، ولكن الخوف يمنعنى . اللوحة مشدودة فى رأسى . لكن البحر الذى عشقته طويلا يتمدد أمامى كالجثة الباردة الميتة . ضاع أمل اليوم ، ما عاد لى الا أن أبدأ فى الغد من جديد . انهم يبحثون عن الرزق منذ آلاف السنين ، لايتعبون ابدا .. فهل ايأس من يوم واحد .. الثعبان الآخر لا يلين ، كلماته تقطر عسلا ساما . لو رفض منذ أول مرة لارتاح خاطرى لكنه يسوف .. غدا .. بعد غد .. بعد أسبوع ..الحالة راكدة . البدروم المظلم سود عيشتى ، برده القارس تسلل الى

عظامى ، رائحته العفنة تزكم انفى . مشروعات لوحاتى هامدة مستسلمة . الثعبان يغلق فى وجهى روح العالم :

ـ يا عم مصطفى .. ارجوك ...

ـ يا ابنى انت عارف الحالة ...

ـ اريد ان ارسم .. كل شىء متجسد امامى ...

ـ وليكن !

ـ سوف اردها لك فى أقرب فرصة ...

ـ العمال لم يقبضوا منذ اسبوع ...

ـ خذ منى وصل امانة ...

ـ لا امانة فى هذه الدنيا ...

ـ ياعم مصطفى ...

ـ حالة التجارة لا ترضى احدا ...

ـ خمسون قرشا فقط ...

ـ نحن نقول يافتاح ياعليم ...

ـ والحل الأخير ؟؟

ـ هات الساعة ، أعطك ما تشاء ...

ـ بعتها ...

ـ انت حر ...

التاجر يريد أن يحطم حلمى . لن يستطيع . غدا أبحث من جديد . الأمل الحلو لا يذوب بهذه البساطة . الريح التى

تصفر فى أذنى لن تحجب الموسيقى العذبة . الأمواج الهــادرة لا تؤثر فى صفحة المياه الهادئة . الضياء يغشى عينى رغم الشمس المحتجبة . اللوحة مشدودة فى راسى . الصيادون يستكنون بها ينتظرون ، الســمك ينتفض كالعصفور . الأيدى الآملة تفتش فى الشباك . ظل الشراع يوحى بالغروب . الحلم الكامن يتحرك فى اعمــاقى . ما أحلى العودة .. أن نرجــع منتصرين محملين بالرزق آخر النهار . ولكن كيف : والثعبان الحقيقى ينتظرنى بالبدروم ، والثعبان الانســان يلفظنى بقســوة .. المــاضى يملأ قلبى بالحسرة . اقدام الأيام تسلمنى بعضها الى البعض الآخر . ثلاثة شهور وأنا أعمل نقاشــا . ازين حجرات الآخرين ، وبدرومى باهت مظلم . الفرشــة الغليظة هدت يدى ، الأسمنت شــقق أصابعى . الجدران سجنت عواطفى . الصوت وراء ظهرى يلهب مشاعرى .. حالا .. اسرع .. نريد أن ننتهى اليوم .. أمامنا عمارة أخرى لابد أن نبدأ فيها غدا . قطــار النقش لا يتوقف ابدا . كل يوم فى مكان معين ، فى النهــار يمتلكنى المقاول ، وفى الليل اختلى بلوحاتى . الثعبان الصــديق لا اراه ، لكن أسمع صوته آخر الليل ، اتعرف عليه فى الصباح عندما ارى البيضــة المكسورة بعد أن امتص قلبها . الزوج والزوجة بالبدروم المقابل لا يكفان عن الشجار حتى الفجر . يصلنى على الدوام صــوت بومة لا ادرى مكانها . حتى هــذه الأيام لم تدم ، قــال لى المقــاول :

ــ الحالة سيئة ...

ــ ماذا تعنى ؟ !

ــ غطس وتعال ...

ــ لا افهم شيئا ...

ـ الشغل شح ...

ـ كيف ؟ ! ...

ـ اصحاب العمارات كفوا عن البناء ...

ـ وما ذنبي ؟ ...

ـ وما ذنبي أنا الآخر ...

التاجر يقول ـ انت حر .. والمقاول يتمسكن ، واللوحة تزهو أمام ناظرى وتشرق . الشراع الأبيض يلوح فى الهواء وقت الغروب . الأنفاس المتعبة تستريح من الرحلة الشاقة . الآباء المرهقون يشتاقون للقاء اطفالهم على الشاطىء . الشفق الملتهب يتوارى خلف الأفق . عناء اليوم كله يرتسم على وجوه الصيادين ونظراتهم . دنيا أخرى اريد التعبير عنها ثم اعجز .. خمسون قرشا ثمن الوان الزيت هى السبب . عشرات الاسكتشات رسمتها . ولكن أين اللون .. اللون الذى يعطى لكل شىء قيمة .. الشراع أسود قاتم من اثر الرحلة..الوجوه صفراء باهتة من التعب . كل الناس لهم الوان .. المقاول لونه لزج مخضب بالدم . التاجر عمامته سوداء.عمال البناء يشكلون وحدة منسجمة من اللون المضىء المشرق . سائق الترمواى لونه حزين . السماء تنطبق على الأرض عند اللون الرمادى الأغبر . فحيح الثعبان لونه نار مشتعلة . شجار الزوج والزوجة كالأبيض والأسود لايتفقان ، ولكنهما يتعايشان . كل الناس لهم الوان الا أنا .. الوحيد الذى لا يرون له لونا لانى لم اعبر عن نفسى بعد . عالمى الرحب يرتد الى داخلى ، روحى تنطفىء بين جوانحى . أصابعى تشققها الجروح . جسدى يهده التعب . حياتى التعسة تمتد أمامى.. البحر الهائج يملؤها رعبا ، رياح الشتاء تلفحها فزعا ، ابى وأمى يطلان الى من القبر ، والثعبان يطل الى من البدروم ، يريد

بيضة المساء . صاحب البيت روضه على ذلك عشر سنوات . لم أستطع أن أروض التاجر والمقاول . لست مطالبا بأن أقدم لكل انسان بيضة . الغبار يملأ حلقى واليأس يغلف روحى ، والغربة تقبض صدرى ، وهذا الشاطىء خاو موحش الا منه . الجسد المتكور الصغير ، جبينه الأصفر تلطمه الرياح ، قدماه المرهقتان تستريحان من عناء اليوم الطويل . بجواره على الأرض السوداء خطوط مبهمة بيضاء . شبه مركب يتأرجح بين الأمواج . عيناه مغمضتان تحلمان ، متعب هو الآخر .

هـــروب

فجأة نزل من القطار بعد تردد طويل . عشرون عاما وطريقه لا يتغـــير .. الى اين يذهب .. لا يهم الآن .. يكفى انه انتصر لارادته . عشرات بل مئات الأشـــياء يريد أن يفعلها .. اماكن كثيرة يتشوق للذهاب اليها . المحطة التى يراها ليست هى التى يمر عليهـــا كل يوم . كان لا يشعر بها الا من خلال أعمدة الأسمنت ولافتات حجرات الناظر والمعاون ومكتب التذاكر . أن يسير الانسان فى الزحام دون أن يحدد هدفه شيء حلو ، وأحلى منه ان يتفرج على الناس ، يراقبهم من بعيد ولو مرة فى العمر . نزل السلالم المنحدرة . أحس انه طفل يلهو ، يريد ان يتزحلق فوقها . ترك المحطة وراءه . وعلى أقرب مقهى جلس . وضـــع ساقا على ساق . وطلب شايا بالحليب . لم يشرب حليبا منذ زمن بعيد . صوت الجرسون يدخل أذنه حيا وجميلا .. الرواد القـــلائل ينظرون اليه ويستغربون . الموظفون جميعهم فى مكاتبهم ، ما الذى اتى به الى هنا . شعر بطعم مر فى حلقه لا يدرى سببه . أشاح بوجهه بعيدا عن رواد المقهى . ادرك انهم يحسدونه على جلسته

هذه اشتدت المرارة فى فمه . فتطلع امامه على المنضدة . كانت حقيبته البالية ترقد كالجثة . وازاحها بعيدا عنه حتى يستمتع بالشاى . لكن يده قبضت عليها . واعترته موجة من الشك ، فوضعها على ركبتيه . كان كمن يقبض على غريم عنيد له . يود أن يقتله ، لكنه يخاف الناس والعواقب . وعاد فوضعها على المنضدة من جديد . يخيل اليه ان جميع العيون تنظر اليه ، تعرف ما ينوى ان يفعله . وانطوت فى راسه فكرة كابية . يستطيع أن يدفن الحقيبة فى الرمال .. أو يلقى بها فى مياه البحر .. انها القتيل الذى يريد أن يتخلص منه . وانتابه الفزع .. ما الذى يجعله يفكر بهذه الطريقة .. فى طفولته كان أبوه يلبسه بدل الضباط ، ويعطيه العصا فى يده ، ثم يطلق الخيال فيلعب براسه .. فيدربه على التحية العسكرية . لكن اباه مات مبكرا . وتخرج هو فى كلية الحياة بعد أن فشل فى التوجيهية . وفيها تعلم الصبر والعمل وحب الناس . لكنه الآن يائس من كل شىء . لم تعد له آمال يسعى من أجلها . يريدونه فى العمل آلة من الآلات الحاسبة . يفكر من أجلهم . تنزف دماؤه حتى يستريحوا . وشهق من اعماقه ، ثم تجرأ وفتح الحقيبة . امسك أحد الخطابات المهمة .. مكتوب فوقه على الشمال .. عاجل وضرورى .. همس لنفسه فى سخرية ما أهميته وضرورته .. احدى مناطق الوزارة تطلب أربع لفات من الدوبارة وخمسين ورقة دمغة فئة الخمسة قروش .. وعشرة جرادل كبيرة الحجم . هذا هو الطلب الضرورى العاجل.. وانا اموت .. تطق راسى من الغيظ .. على أن أمرر الطلب على الرؤساء من أصغرهم الى اكبرهم .. واذهب للبريد لاسجل الرد . وتذكر صديقه القديم الذى لم يره منذ عشر سنوات . انه يشتاق اليه . يود أن يجلس بدون هموم فى مرة ليكتب له .. يستعيد معه أيام الصبا والشباب والشقاوة . لم يكن يتحمل

فيها مسئولية . كان يرث ثلاثة فدادين وماكينة طحين ، ولكنه باع الأرض على راقصات البندر ، وانكسرت ماكينة الطحين مرة ومرتين فلم تعد صالحة للاستعمال .. ولم يجد الا هذه الوظيفة الميتة .. أمين مخازن فى وزارة .. لن تكفيه هذه الأمانة التى يصفونه بها . كان يجب ان يكون امينا على أمواله وماكينته .. ما فائدة الأمانة والشرف الآن . عشرون عاما والقلق يأكله .. يخاف على أموال الوزارة . ايام الصيف الشديدة الحرارة يسعى الى المخزن ليفتحه ، ويطلع على محتوياته .. ان هناك مواد تذوب فى الحر .. ويجب أن يفسح لها مكانا .. وفى أيام الشتاء الممطر يجرى الى المخزن ايضا حتى يمنع المياه أن تتسرب اليه من تحت « عقب » الباب . يتلقى خطاب شكر فى كل عام ؛ مع مكالمة تليفونية تهز الجميع . يقولون له المدير على الخط ، فيقوم يحدثه وهو ينتفض ...

ـ افندم يابيه ؟

ـ بلغنا نشاطكم يا عبده أفندى ...

ـ والله دا آخر مجهودى ...

ـ كويس يا عبده أفندى ...

ـ متشكرين يابيه .. ربنا يحفظك لينا ...

ـ احنا كلنا بنعمل من اجل أولادنا ...

ـ متشكرين يابيه ...

ـ اللجنة هنا تقدر حالتك ...

ـ متشكرين يابيه .. متشكرين يابيه .. متشكرين ...

ويقفل الخط . ويتوه فى عمله من جديد . وينـام ينتظر التقدير الذى يحلم به .. فلا يجد شيئا يقبض عليـه بين يديه . كله كلام واحاديث وادارة فى الهواء . وهزته مشاعر مبهمـة ، واشواق قديمة كان محروما منها .. عربات البطيخ التى كان يسرق منها فى يوم السـوق ، ركوبه الموتوسـيكل وذهـابه الى السينما فى ليل الريف المظلم الرهيب . وعلاقاته مع النسـاء اللائى كن يأتين الى ماكينـة الطحين . خضرة كانت حلوة وسمينة وضحكتها مشرقة وناعمة . زينب كانت جافة وجـادة ، ولكنـه حطم جفافها وهز جديتها ، فانجذبت اليه . كان يسلق البيض فى تراب مدخنة المـاكينة .. ويأكل الحمـام المشـوى ويشرب اللبن الحليب ويحلى بالبلح والعنب والمـانجة .. ما أحلى الحرية والشقاوة والشباب ! . انه « مشنوط » الآن بسبعة أولاد . ثلاثة منهم فسـدوا فى المدارس .. واصبحوا لا يصلحون لشىء .. والآخرون لا يزالون صغارا .. تعب من الملجـأ الذى يضمهم جميعا . لم يعد يتهنأ بلقمـة او بقطعة لحم بمفرده . الأفواه الثمانية تخطف منه كل الخبز ، وتشرب منه كل الحليب ، .. والأيدى الستة عشرة أسرع من يديه المتعبتين .. الأقدام الصغيرة تجذب غطاءه بالليل . وشرب جرعة من الشاى أمامه . وتسللت أصابعة الى خطاب آخر .. انه تقرير كتبه هو عن الموظف الوحيد تحت رئاسته ..

السيد مدير عام المخازن ..

تحية طيبة وبعد ...

اتشرف ان احيط سيادتكم علما بأن عبد الحميد على الشيخ تأخر عن موعد حضـوره فى الصباح خمس دقائق يوم الخميس، ثم تأخر عن هـذا الموعد عشر دقـائق يوم السبت .. وكلمـا سألته عن سبب التأخير قال ان أختـه مريضة ، وليس هذا فى

صالح العمـل ، لذا لزم التنويـه .. وحتى تتخذوا سـيادتكم الاجراءات ضده ...

وتعجب فى نفسه . انه الآن يرفض الذهاب الى العمـل . يود ان يحرق هـذه الحقيبة التى تحمل اسرار المخزن . كيف كتب هـذا التقرير السخيف . ان عذر عبد الحميد واضح .. قال له .. ان اخته تموت فقابله بصلف وعناد . وضغط على التقرير بأصابعه ، ثم مزقة ورماه بعيدا عن المقهى . ما احلى المـاضى ! .. حتى ولو كان تعبا وشقاء .. انه احسن من الحاضر وجفافه .. يا ليته ذاكر واخذ التوجيهية من منزلة . كانت له رغبة لدراسة الفلسفة . كان يجـادل زملاءه فى اثبات وجود الله وكيفية خلق القرآن . كان يحفظ جملة مهمة لا يذكر قائلها .. انا افكر .. اذن انا موجود . ومن يوم ان قبع فى المخزن وهو يمتنع عن التفكير .. اذن لا وجود له . انه يستيقظ الآن بعد عشرين عاما ليفـكر .. ولكن فى اى شيء .. فى شراء احذيـة لستة عشر قدما .. فى توفير الأثواب لثمانية اجسام . ضـاع الأمل فى دراسـة الفلسفة ، ولم تبق الا الفلسفة ذاتها .. الأيام تجرى ونحن لا نجرى .. والعلم فى الراس لا فى الكراس ، هكذا كان يقول مدرس العربى ، اكبر الفلاسفة الذين قابلوه . واغفى قليلا على قائمـة كرسى امامه .. وثقلت أفكاره فى راسـه .. عاد الى البيت .. فاستقبله اولاده فرحين مهللين ، على وجوههم بشر جديد لم يألفه من قبل .. يلبسون اثوابا بهيجة مفرحة .. فى اقدامهم احذية موشـاة بالخضرة والذهب .. رأى زوجتـه كأنها عروس فى سن العشرين .. تنادى عليه بدلال وحنـان ، فى صوتها هدوء وسكينة ومودة .. دعته للنزهة فلبى نداءها .. خرجا معا بين صفين من الأشجار العالية .. شربا من مياه احد الأنهار العذبة .. سمعا سقسقة العصـافير .. وهدهدة اليمـام

المرفرف .. البسها عقدا من الذهب المرصع بالمـاس .. سرت به وقبلته فى جبهته .. قال لها وذراعه تطوق خصرها :

ــ عايزه حاجة تانية يا سكينة ؟ !

ــ ربنـا يخليـك ...

ــ قولى بس .. كل حاجة موجودة اطلبى ؟ .

ــ ربنـا يحفظـك ...

ــ نفسك فى ايه ؟ .. اتكلمى ...

ــ مبسوطة والنبى ...

ــ قولى بس .. قولى ...

ــ نفسى .. نفسى فى ...

واستيقظ على يد الجرسون توقظه من غفوته . لن يستطيع ان يستمتع بالحلم الجميل . المقهى يخلو من الرواد . صـوت القطار يصر فى اذنه من بعيد . اطياف من الحلم المبعثر السريع تشرح صـدره ... ثم سرعان ما تنتابه موجة من الخوف البارد، فالساعة الآن العـاشرة ، والمدير يقلب عنه الأرض باحثـا عن مفاتيح المخزن .. وكوب الشاى أمامه فارغ الا من بقايا سـوداء داكنة ، واشياء عديدة يجب ان يراها أو يفعلهـا ، لكنه لا يدرى الى أين يتجه .

ســـــام

فجأة وجدت نفسي فى الشارع من جديد . هوايتى القديمة تلح على . الآن أسبح فى بحر الذكريات الدافىء . الأمواج الهادئة تحتضننى ببهجة وسرور . الشمس ترقد على سطح الميـاه كأروع قطعة ذهب فى العـالم . الأفق يمتد امامى بلا نهاية . الأشجـار تظلل جانبى الطريق . هنا ينقر الكتكوت قشرة البيضـة ، يريد أن يتنفس الحياة . منذ ايام احتفلت بعيد زواجى العـاشر . تأبطت ذراع زوجتى ، لففنا شوارع المدينة . لم يكن هنـاك جديد يفرح القلب . رائحة الطعام تفوح من أفواه المـارة .. الزعيق يتعالى من السنتهم . صاحب الكازينو الذى ذهبت اليه ملأنى قرفا . ضرب صبيا صغيرا يمسح الأحذية . ثم طرد قارىء كف رقيق على باب الله . ليتنى لم أخرج من البيت . كان يكفى أن نشرب البيرة مع بعض الأصـدقاء ، ونثرثر كثيرا الى أن يغالبنـا الخدر فننام . زوجتى طيبة تحملتنى ذلك اليوم أثناء مللى . قالت وفى نيتها أن تتعرف على سر تعاستى :

ـ مـالك ؟ ! .

ـ لا شيء ...

ـ انت على غير عادتك ...

ـ وهل لى عادة ؟ ...

ـ الى حد ما .

ـ لا جديد فى الدنيا ...

ـ وماذا نستطيع أن نفعل ؟ ...

ـ الشارع ضيق يخنق الأنفاس ..

ـ نسير فى شارع أوسع ...

ـ الناس فى كل مكان يتكاثرون كالنمل ...

ـ نخرج بعيدا عن المدينـــة ...

ـ لم يعد هناك متسع لنسمة هواء ...

ـ نذهب الى احدى الحدائق ...

ـ أشجارها يتيمة جرداء .. فروعها جفت من قلة المياه ..

ـ وما رايك فى الريف ؟ ...

ـ ليس مستعدا لاستقبالنا ...

ـ هل يمكن أن افعل لك شيئا ؟ ...

ـ لا ..

ـ ابنتنا فى البيت بمفردها .

ـ لنعد

الكتكوت الحى ينقر قشرة البيضة . عشر سنوات وهو كامن بها لا يتحرك . انه الآن يستيقظ . حنينه الى الحيـاة لابد له من آخر لا استطيع ان احبسه اكثر من ذلك . اخجل من حيائه ورقته . ثقل الأيام يدفعنى اليه دائمـا . الطلبات اليوميـة تشوقنى نحوه . انه الواحـة التى تظللنى من هجير الواقـع القاسى . فى العمل يقولون .. انتظر .. ســوف نرى .. ليس الآن على كل حال .. الجميع يشكون .. الذى عرفته احســن من الذى لم تعرفه .. الكلمـة الطيبة تحل المشاكل .. التصادم لا يفيد .. تحمل .. كلهم يسيرون على هذه الطريقة منذ زمن بعيد .. لن تستطيع ان تغير .. كان غيرك اشطر .. فى البيت اتذوق طعم اللبن كل صباح ، لكنى لم الحظ لونه الأبيض يوما ما. اصبحت اعمى . الأقارب يملئــون راسى بتحيـاتهم الميتــة . احلامهم المضنية تفر من أيديهم . يتوددون الى الراحة والدعة . جماعـة الأصـدقاء تجتمـع هى الأخرى تلوك الأحـاديث .. مثقفون .. يشرعون للبشر وهم بين جدران اربعـة ، يحتسون البيرة أو شاى منتصف الليل . لم أعد اطيق الحاضر . اريد ان اهرب الى المـاضى . هـذا الحنين لابد له من آخر . أنا أيضا موجوع متعب مستسلم . فرصـة طيبة ان اسبح فى بحر الذكريات الدافىء . طالب الحقوق الفاشـل يمشى بجوارى نشطا يسألنى :

ــ ما الذى اتى بك الى هنا ؟ ...

ــ انه شارع ذكرياتى ...

ــ لا .. ذكرياتى انا .

ــ طيب هل تذكر ؟ !

ــ طبعا .. وجهها الطفولى المبتسم كان يسعدنى ...

ــ وحقيبتهـا ؟ !

فى كل صباح كان يرقد بها خطاب منى ...

ـ وما هداياك اليها ؟

ـ باقة فل فى كل مســاء ...

الشارع الهادىء تحفه الظلال الساكنة . صورة الازدحام يوم عيد زواجى لا تفارقنى . الضوضاء مازالت تطن فى أذنى . الأجساد المتلاطمة تندفع فى طريقى . ما أحلى ان ارتاح هنا ! . بيتها قريب منى . لن اتخــاذل هــــذه المرة . الأمر لن يكلفنى شيئا . يمكننى أن اصفر لها من تحت النافذة مثل زمان ، لكنها يستحيل أن تتذكر لحننا المميز الآن . صــوت الزمــلاء يدق أذنى .. انتظر .. تحمل .. هنــاك حل آخر . اضرب الجرس ، سوف تفتح لى . آخذ منها موعدا بالخارج . قد يفتح لى انسان ما . لون اللبن الأبيض ينصــع فى عينى .. اريــد ان اتأمــله طويلا . المغامرة لا تجدى .. احسن شىء ان أجلس على الحشائش أمام شرفتها .. أستطيع أن اراها بوضــوح . التصادم لا يفيد .. كلهم يسيرون على هــذه الطريقة منذ زمن بعيد . اذن ها هى أخيرا . ولكن .. ما هؤلاء الأطفال الذين يحيطونها .. ثلاثة .. اربعة .. خمسة .. يا الطاف الله .. كل عامين واحد . هــذا الانسان زوجها ، يمسح نظارته يستعد لقراءة الجريدة ، ما له مترهل هكذا ؟ ! . العيال الأشقياء يقفزون على سور الشرفــة . صوتها يعلو محذرا اياهم ، ما له أصبح خشنا فقد رقته القديمة .. يا الله .. كم شــهقت أمامى فى لطف وخفــة ، ما كانت تعرف الزعيق أبدا . الضوضاء تعتلى رأسى من جديد . قطعة الذهب تختفى تحت المياه الســوداء . صوت الكتكوت يكف عن النقر . الأحلام تتبخر من خيــالى . كان بودى ان أرى وجهها .. ولكن ما الفــائدة .. صوتها يعلو هى الأخرى . أرجع الى بيتى . اليوم هو الخميس . زوجتى ترتق ملابسى القديمة . قد أجد فى انتظارى أحد أقاربى . ربما يملأ رأسى بالصداع .

أبـو دراع

العيون الست بجوارى تتجـه بعضها للبعض فى تسـاؤل مكتوم ، الأيدى تقبض على الجرائد فى شىء من التوتر ، الأرجـل تحك الأرض فى حدة تنبىء عن الضيق . الصفحة التى تتطلع فيها العيون الست واحدة .. صفحة الحوادث . اما أنـا فلم أكن انظر بها .. كنت افتش فى صفحة الوفيـات بحكم غريزة الحياة عن انسان أعرفه ، يدفعنى الفضـول أن ارى أعيـان زمان يموتون واحـدا بعد الآخر ، لا يزالون يضـعون كلمـة « بك » أو « باشا » بين الأقواس .

همس أول الثلاثـة فى سره يجس نبض الآخـرين لقبول الحـديث :

ـ حاجة غريبـة ...

صادت الكلمة ، تطلع له جاره يقول بصوت مرتفع :

ـ آه .. حاجة غريبة صحيح ! ...

لم أستطع الصبر طويلا ، قلبت من الوفيات الى الحوادث ، متظاهرا بالسلوك الطبيعى ...

فى قمتهـا العنوان الكبير : انتحـار درويش من دراويش الحسين فى مقابر .. الدرويش حسنين عبد الحق يترك ورقـة مكتوبا فيها .. لم تعد الأرض تتسـع للشجعان بعد .. وجد بجواره مسبحته ونصف سيجارة لم يكملها .. وعلبة مسحوق أصفر .. دارت الدنيـا فى عينى .. لم اعد اقوى على الامساك بالجريدة .. تركتها تهوى من يدى كالجثـة فى حجرى .. حسنين عبد الحق .. اخيرا فعلتها يا حسنين .. لمـاذا تتعجل النهاية بهذه الطريقة المحزنة ؟ ...

الدنيا شتاء ، قطرات المطر فى الخارج تتكاثف على زجـاج النافذة ، الريح تلوى نفسها فى عصبية . الغبار يزيد الجبل عن يمينى اكفهرارا ووحشة ...

ايقظنى الكمسارى بصوته الروتينى الممل .. لم التفت اليه، تركنى ، معى اشتراك .

اراد الأول أن ينضم الحديث مرة اخرى :

ــ عنصر الجريمـة متوفر .. لقد وجدوا بجوار القتيل حبلا .. هذا يؤكد انه لم ينتحر ، بل قتل ، قتله أحد الجناة .

قال الآخر بعد أن أتيحت فرصة طيبة للتعارف :

ــ الأستاذ محامى .

ــ آه ... بالنقض والابرام .

واضاف الأخير :

ــ والأسـتاذ ؟ ...

ـ مدرس اول فى مدرسة ...

وصلتنى كلماتهم كالناموس المشاغب يطن فى اذنى بصفاقة.. ما لهما وحسنين . انهما لا يعرفان عنه شيئا . انا الذى اكتويت بمعرفته الطويلة .. اسمه محفور على دفاترى القديمة .. لماذا يسمحان لنفسيهما ان يدوسا طاقة ذكرياتى التى تفتحت فجأة بهذا الحديث التافه السمج ...

قال المدرس :

ـ فى الحق ان هؤلاء الدراويش اكثر الناس الذين يسيئون الى المجتمع .. يجب ان نحافظ على سمعته وقداسته .

قال القانونى :

ـ هناك قانون يعاقب على التشرد والمروق ...

قال المدرس :

ـ هؤلاء يتمسحون فى الدين ...

غلى الدم فى عروقى . كنت اريد ان ازعق فى وجهيهما معا.. انتما لا تعرفان حسنين .. انه اشجع منكم عشرات المرات .. اذكى الف مرة .. صمت والغيظ يمور فى داخلى ...

حسنين عبد الحق صديق العمر الذى لم افترق عنه ابدا . منذ عشرين عاما كان يجلس بجوارى فى الفصل بالمدرسة الابتدائية . ينطوى على نفسه . مؤدب خجول وحيى ، من عينيه الواسعتين تشع حلاوة طفلية عذبة ، من وجهه الصغير الرقيق تبزغ ابتسامة مشرقة وديعة ، من جبهته المضيئة المرتفعة يبين ذكاؤه المتدفق العميق ...

قال القانونى :

ـ يبدو أن الجريمة تمت بسبق الاصرار ، لانهم لم يجدوا بجيب القتيل اية نقود .. هؤلاء الدراويش اغنى الناس جميعا . لكنهم يتظاهرون بالفقر والحاجة ..

وابتدأ يروى حكاية :

ـ فى مرة ...

لكن الشخص الثالث الذى يبدو أنه دكتور تخلى عن صمته اخيرا .. فقاطعه :

ـ مسكين .. والله صعبان على .. نحن نعيش فى عصر الأزمة .. اننا جميعا مثل هذا الدرويش .. لو توفرت لنا الشجاعة لاحكمنا الحبال على رقابنا للتخلص من حياتنا التعسة .

امتد الحديث الى المقعد المجاور حيث كانت تجلس سيدتان عجوزان تبدو عليهما الحسرة والمرارة كأن شيئا قد ضاع منهما الى الأبد .

قالت الأولى :

ـ آل دوريش آل ...

خرجت الكلمات مفككة من بين اسنان الأخرى المخلوعة ..

ـ كلمينى فى حالى ...

رفعت الجريدة عن عينى .. كانت صورة حسنين تتوسط الموضوع .. لم يتغير فيه شيء جوهرى اللهم الا الملامح الخارجية .. اللحية الكثيفة .. الغضون التى كست وجهه .. عيناه كما هما واسعتان جميلتان ، جبهته مرتفعة شامخة ...

وانطلقت النجوى فى صدرى حزينة دافئة كظيمة .. ما اكثر ما قاسيت يا حسنين فى حياتك ! .. حرمت من التعليم فشققت لنفسك طريقا شريفا لتكسب منه عيشك ...

يوم لا يمكن أن انساه .. كنت تتعلم فيه قيادة السيارات.. لم اكن أدرك من أين تستمد هـذه الطاقـة الجبـارة لمواجهـة الحياة .. خلعت بدلة الدراسة ولبست عفريتة العمال .. ارتفع صوتك بعد ان كان هامسا .. جمـلة خالدة خرجت من فمك ما زالت تطن فى راسى المحموم .. كنت تجرى الى فى فرح عظيم وتقول :

ـ خلاص نجحت .. طريق حلال آكل منه عيش ...

ومرت الأيام ...

ورايتك وانت تقود سيارة الشركة . وجهك محتقن من التعب ، العرق يتفصد من جبينك النبيل . صوتك محزون منهك يردد الشكوى فى كبرياء ..

يوم آخر محفور فى اعماقى ...

يوم عدت وانت جريح بعد أن سـافرت مع الفدائيين الى القنال تقاوم الانجليز !! .

قال القانونى :

ـ من صورة الدرويش يخيل لى انه معتاد على الاجرام .. تنطبق عليه مادة العود .. ان هـذه الجمجمة مثل التى وصفها لمبروزو .. من الصنف الانطوائى العنيد .. المجرم بالفطرة .

وعدت يا حسنين تحـاول أن تضمد جرحك النـازف . سمعت حشرجتك الواهية وانت تتألم :

ـ كله يهون من أجل بلدنا .. لازم ندافع عن وطننا ...

المطر مازال يتقاطر على زجاج نافذة القطار . والريح المكفهرة المتربة تتشنج فى الخارج .. والعجوزان المكتئبتان تنكمشان فى مقعديهما فى صمت .

وافقت من المخدر يا حسنين فشعرت بانامل يدك اليمنى تاكلك . فحاولت أن ترفعها ، لكنك فشلت . ضاعت يدك اليمنى حتى لا يصاب جسدك كله بالتسمم ... !!

طيفك الحنون لا يفارقنى يا حسنين . اريد ان ابكى .. ان اصرخ حتى استريح .. ان اطير لأراك فى النهاية .. هذه الوجوه الزيتية لا تريد أن تكف عن الكلام ...

قال المدرس :

ـ سبحان الله .. ليست هناك سيرة عن تشريح الجثة ...
ـ لا .. القضية ما زالت بخيرها .. النيابة لم تتجه اتجاها معينا بعد ...

وبذراع واحدة خرجت من المستشفى يا حسنين تبحث عن عمل . فقدت عملك القديم . اصابتك ليست أثناء العمل ، انها أثناء حرب الانجليز فى القنال . الوطنية لا ثمن لها ولا جزاء . تحمل .. اسكت .. لا تتالم .. احبس دمعك وأساك .. لك يد واحدة .. ولكنها واحدة تستطيع ان تفعل بها المستحيل .. يتطلبون ذراعين سليمتين قويتين لقيادة السيارات .. ألم تقد كتيبة كاملة للفدائيين فى القنال ؟ .. كيف يضنون عليك بقيادة سيارة يا للسخرية .

وضاقت القاهرة عليك . فلم تجد مكانا أمينا تريح فيه جسدك المتعب فى الليل .. فذهبت الى الحسين مددت ذراعك

المقطوعة فى الطريق ، وانت تحجب وجهك حتى لا يراك أحد .. تركت لحيتك تطول .. لم تستطع ان تنظف ملابسك .. جاءك انسان يطلب منك حجابا فكتبت له ورقة وجاءك ثان وثالث .. الى أن أصبحت عادة .. أصبحوا ينادونك .. الشيخ حسنين.. ثم قمت على اصوات الجلبة العالية .. الله حى .. الله حى .. مدد يا حسين .. مداد .. مداد .. مداد على طول المدد ...

قال الشخص الثالث الدكتور :

ــ يا اخوانا المشـكلة مش مشـكلة نيابة ولا جريمة .. دا لازم الانتحار وراه مشكلة .

ــ مشكلة ايه ؟ ..

ــ آه .. يمكن كان بيحبّ وفشل فى حبه ...

ردت العجوز فى حدة : :

ــ يحب ايه .. دا درويش ...

قال فى تعاظم وفخر :

ــ اصل آخر احصائية دلت على ان اكبر نسبة من المنتحرين فى امريكا سببها الفشل فى الحب والملل من الحياة ...

همس المدرس فى طيبة :

ــ يا سـيدى دا الكلام ده فى امريكا ، انما احنـا هنا فى مصر .. فى مصر ...

ولم يبق لك فى العالم شىء تحزن من أجله . كل المعارف هجروك . الناس جميعهم يتنكرون لك عند مقابلتك .. يبتعدون عن طريقك ...

صفر القطار قبل ان يترك محطة ويستقبل اخرى .

وحدثتنى يا حسنين قرب النهاية .. الشحوب يظلل وجهك المتعب . ارتعاشة خفيفة تزحف على يدك الباقية ، تطوف براسك ذكريات الحرب مع الانجليز ، حدثتنى عن رفاقك الذين استشهدوا فى القتال .. أريد أن أراهم ، أحب أن اتحدث اليهم، اشتاق لشرب الشاى معهم .. اسهر الليل فى كنفهم .. أضحك وقت الشدة والضيق ، انتظر واياهم المفاجآت ..

تململ أحد الثلاثة ، مصمص شفته يستحلب الكلام بفمه.

لم يكن فى قلبك الا هتاف واحد .. تكرره كلما شعرت بالاختناق يا حسنين .. لم تعد الأرض تتسع للشجعان بعد .. ضاقت الدنيا فى وجهك ، انتقلت الى المقابر . تنتظر الوافدين من الموتى فى النهار ، فى كل نعش ترحب بزائر جديد ، تنادى على رفاقك الشهداء فى الليل .

قال المدرس وقد افصح عن تخصصه تماما :

ـ ان هذا الدرويش قد فقد الدنيا والدين معا .

تعب القانونى من التحليل فقال :

القضية قد تسفر عن لغز خطير ، لكن ما هو ؟ .. هذا ما لا نعرفه ؟ .

قال الدكتور بعد أن تخلى عن تحفظه :

ـ لا لغز ولا حاجة .. الراجل تعب من حياته وخلاص .. فشل .. فشل فى أى حاجة .. فشل فى تحقيق هدفه ...

رد عليه الآخران فى صوت واحد ، وبلهجة تسودها الفكاهة المبتذلة :

ـ فى الحب برضه ...

وصمت الثلاثة بعدما تعـارفوا على أكتاف هـذا الحدث اللذيـذ .

تدحرجت نقط الميـاه على نافذة القطـار .. سكنت الريح قليلا بالخارج .. ظهر قوس مضطرب صغير من الشمس المحتجبة وراء السحب .. دق قلبى فى صدرى كالطـائر الجريح .. كنت أعلم أنى مقبل على حزن طويل .. طويل .

زجاجة عطر

اصبح يسير فى الشارع كالمخدر . لا يدرى كيف تضخمت الفكرة فى راسه . فى الليل كان يستنكرها يبعدها عن خواطره ، وفى الصباح استطعمها ، شعر بحلاوتها . وها هو الآن يصمم على تحقيقها . الناس كالنمل يزحمون طريقه . سيقان نسائهم عريانة لامعة . انه شيء أقرب من الكفر ، ليرحم الله العالم ، ولكن ما ذنبه ، الجنيهات العشرة فى جيبه . بعد ثلاثين عاما من الخدمة يعطونه معاشا عشرة جنيهات . الرائحة فى أنفه جذابة نفاذة . منذ أيام الشباب لم يتذوق طعمها . فى أوقات الضيق يجب على الانسان أن يروح عن نفسه . ماذا يفعل فى الدنيا ، يستيقظ من نومه ساخطا كل صباح ، يصلى الفرض والسنة والنوافل ، ولا يترك خبرا فى الجريدة الا بحث وراءه ، ويصور حوله الحكايات والحوادث . سئم لون حجرته القاتم ، يحس بكآبتها الدكناء . لابد أن يبحث له عن عمل آخر . من يأخذه على راحته غيرها . يجب أن يسعدها ، أن يدخل السرور الى قلبها بالأمس قالت له :

ـ والنبى يابو حسن انا محتاجة لطلب ..

نهرها بعنف وهو لا يعرف ما وراءها :

ـ خير يا ستى ؟

ـ قــالت :

ـ محتاجة لخمسين كيلو رز والنبى ...

وغير من لهجة حديثه :

ـ وايه كمان ؟ ؟ !

قــالت :

ـ بس .. ربنا يخليك لى ...

كلماتها تسيل فى قلبه الآن كحبات الثلج النقية البيضــاء ترطب حرارة جوفه . فليفسحوا له طريقا . الى اين يذهبون ؟ يعتقدون انهم بازدحامهم يقللون حماســه ، لا يعرفون شــيئا . اسمعوا ايها الناس .. ايها الخلق الكثير .. انتم لا تعرفون من هى ؟ ! وخجل من نفسه ، انه يكلم الهواء ، ثم عــاد واحتك بكتل اللحم . قال والضيق يخنق انفاســه .. ابعدوا عنى .. يا لكم من سخفــاء .. انتم تأكلون وتشربون ، وتلمعون أجســــادكم جيدا .. اما .. اما هى .. واظلمت الدنيا فى عينيه . هل يحس احد ضيقه أو فرحه .. لا .. انهم يزحفون فى الشــوارع من اجل لا شىء ، كل همهم ان يتفرجوا على الفترينات ، لكنــه يريد ان يطير ، له امنيــة حلوة ليست فى هــذه المرة عدســا او ارزا او مكرونة ، ولا فلفلا وكمونا .. زجاجــة عطر تعطى لحياتــه طعما . سوف يمسح وجه زوجته بقطرات منها قبل النوم . كم من الليــالى مرت وهو يشعر بطعم عرقها يزكم انفه ، وطارت

به الأحلام بعيدا عن الازدحام .. عندما ينام الأولاد وتهدأ الضجة في الشارع سوف يأمرها أن تلبس رداءها القديم الأحمر .. ثم يجلسان معا في الشرفة الضيقة قليلا .. وفي هذه اللحظــة يقدم لها زجاجة العطر .. ربما تدهشها المفاجأة ، فيحدث ما لا يتوقعه فهو يعرف بتجربته ، أن زوجته تستطيع أن تقلب الأفراح الى أحزان . اذن سوف يطلق رائحــة العطر قبل أن يقدم لها الهدية. وداعبه صوتها قائلا :

ـ والنبى يابو حسن مالك حق ...

ـ يا وليه مش كده ... دى حاجة بسيطة ...

ـ يا اخى هو انا صغيرة ...

ـ تسلمى يا زكية .. يعنى انتى عجوزة ؟ !

ـ خلاص يابو حسن .. ربنا يخللى العيال ...

وتنهدت ، ثم وضعت كفيها فوق وجهها .. واطرقت :

ـ فين أيام زمان .

ـ أى والله .. فين أيام زمان !! .

ـ فاكر يابو حسن .

ـ فاكر يا زكيــة .

ـ فاكر لمــا كنــا .

ـ فاكر يا زكيــة .

وتضع راسها على حجره .

ـ تعبانه يابو حسن .

ـ تعبان يا زكيـة .

ـ جبت ايه غير الريحة .

ـ مافيش .

ـ ازاى .. امال حناكل ايه ؟ !

ـ مش فاكر ؟ !

ـ العدس والرز والكمون والبامية الناشفة .

وعاد الى الحشد من جديد . الشارع كالبحر الهائج . وهو كالغريق الضـائع فيه . يهرب الى أحلامه ، ثم سرعان ما يعود . الفكرة تطرق رأسـه بعنف . رائحة العطر تنتشر فى أعطافه . ويأتيه الصوت حنونا :

ـ فاكر لمـا غضبت عند ابوى .

ـ فاكر يا زكيـة .

ـ فاكر لمـا ولدت حسن .

ـ فاكر يا زكيـة .

وتطلع يبحث عن محل للعطور . كان الشوق يلح عليـه ، والذكريات الهامسـة تستحثه أن يسرع . الناس يسـدون الطريق أمامه ، وهو يسبح بيديه ، يفسح لنفسـه مكانا وشـدت عيناه الى واجهة محل للعطور . الزجاجات الصغيرة تنعكس صورتها فى المرايا المقابلة . فى الداخل بنت رفيعـة تبرق . شعرها كذيل الحصان . اظافرها طويلة كما لو كانت ثعلبـة ، لونتها بالأحمر وجهها اصفر معلول . قالت وهى تلوى لسانها :

ـ طلباتك يا افندم ؟ ..

ـ قزازة ريحـــة ...

ـ نوعهـا !

ـ بكـام ؟

ـ هيه ايه ؟ ...

ـ قزازة الريحة ...

ـ نوعها ايه يا أستاذ الأول ؟ .

ـ اى نوع بس لغاية تلاتين قرش ...

وخرج الى الشارع والزجاجة مع المعاش فى جيب واحد . ازدحام الناس يقل أمامه ، الحر تخف حدته . سيقان النســاء شعشعت فى عينيه . الدنيا تضىء صــدره بالبهجة والأمل . كل شىء له رائحة العطر . الأرض السوداء معطرة . بضائع الأرصفة معطرة . واجهات المحـلات معطرة السيارات معطرة . وود من قلبه ان يقف فى عرض الطريق ليعتذر للناس بصــوت عال .. يا أيها الخلق الكثير .. لقد ظلمتكم فى البداية .. كان لى أمنية لم تتحقق .. اما الآن فانكم تحسونها جيدا . تشمون رائحتها .. لكنــه لم يلتفت اليهم . كان يرمقهم فى مودة فى الخفـاء . همـه الوحيد أن يصل الى بيته قبل أن تضيع الرائحة .

صندل جديد

كان الجنيدى فى ذلك الصباح يحس بفرح غامر يهز صدره ـ فحين وقف يتأمل حقل الذرة شعر بسيال من البهجة يجتاح قلبه . فعلى يديه خرجت هذه العيدان منسابة عزيزة . وملأت اعماقه آمال كبيرة ، فراح يمسح قطرات الندى التى تجمعت على أوراق العيدان فى لطف ومحبة . ثم انفرجت شفتاه البنيتان على ابتسامة واثقة وبدت امامه الدنيا حلوة . خيرة .. وتهادى امامه المـاء فانحنى ليبل ريقه العطشان .

كان الجنيدى ينظر الى عيدان الذرة أمامه كما لو كانت أولاده وبناته الصغار يراهم ويتعهدهم ويحنو عليهم كلما هتف فى كيانه نداء الأبوة . كان بوده أن يقدم لهم روحه طيعة مختارة ، وانعطف يقطع عودا تكست راسه رياح الليل ، وكان الجنيدى يتأمل العيدان وقد امتلأت نفسه بالاشفاق عليها . فلقد لاحظ الهزال الذى يبدو عليها ، لكنه يعرف الدواء .. فالكيماوى هو سبب المشكلة . ماذا يحل هذه الورطة ؟ وفى يأس وحيرة كان يلف حول الحقل يحوطة بنظراته وينتقى الحشائش . وتكثفت فى

راسه المسالة حين راى بشائر السوق ذاهبة اليها وساح فى جولة خاطفة .. فكم يود الذهاب الى السوق ليشترى الكيماوى .. شىء واحد كان يعوقه طبعـا .. فيـده لا تملك من « المعاملة » « ولا صـلدى » . لكن خواطره اسـتيقظت فجـأة على فـكرة جديدة .. فحين رأى الأوزة الثمينة التى تزغطها امرأته لعاشوراء القادمة تخطر وتتباهى أمامـه اقترب منهـا وقـد اندهش من المفاجأة . كان يجب أن يساهيها ويمسكها من عنقها ويحملهـا لبيعها . لكنه استعاد حديث زوجته بالأمس ، فقد كانلا يمضى يوم الا وتحشر سيرة الأوزة فى المنتصف .

ــ انا النهارده مسكت الوزة فى حجرى وزغطها يا جنيدى لمـا كانت حتموت فى ايدى .. عارف يا جنيدى أنا جبتلها ابريق مكسور من عيلة المسعودى عشان تشرب فيه .. عارف ياخوى الوزة النهارده تاهت وفضلت أدور عليها لمـا حفيت رجليه .

وكادت تأخذه الرجولة ، فانكب على الأوزة يريد أن يلتقطها ولكنها أفلتت بمرونة وذعر . وقفزت فى النهر تسبح مختـالة فخورة بريشها الأبيض النافش وراسها الجميل . ونسى الجنيدى كل شىء الا احتياجه للكيماوى ، فقذفها بطوبة وهو يزعق :

ــ يعنى عاملة عويمة ياخيه .. اطلعى جاكى وجع .

« وعكمها » فى هذه المرة بقوة وبأس ثم كتفها بشملته وهى ترفع حنجرتها الى السماء .

ــ كاك ــ كيك ... كاك ... كيك .

وقبل ان يصـل الى البيت ليلبس المداس وليـذهب الى السوق كان ابنه درويش قد خرج له من باطن الأرض :

ــ انا عايز اروح معاك السوق يا با ..

ولو طول درويش على هذه النغمة لزجره الجنيدى فقد كان الضيق يستحوذ عليه . ولو استطاع آن يفلت من زوجتـه لنفد بجلده ، فستعيد عليه الرحاية من جديد .

والنبى يا ابو درويش الوزة كبرت . وبقالى ثلاثين يوم أزغط فيها .. دا الموسم جاى يا راجل .. سيبها للعيال يفرحوا بيها.. الدار فاضية مافيهاش ولا طيرة ..

وفضل ان يأخذ معه ولده درويش على ان تراه زوجته .

ـ يالله يا قرد قزح .. انت وراى .. وراى ..

وعلى طريق السوق كان يسحبه فى يده اليمنى كما لو كان عجلة صغيرة . محتضنا الأوزة على نصف صـدره الأيسر لافـا عليها يده كالكماشة . كان الطريق يتناثر بالحصى والغبار واشعة الشمس تلهب الأرض بلا رحمة ولا شفقة والأرجل لا تتحمـل النار التى تصـلى الأصـابع ، فتتلاحـق فى سرعة واضطراب « وفرفر » درويش فاقدا وعيه .

ـ رجلى بتلسعنى يابه .

ولم يلتفت الجنيدى اليه بل شده بعنف وهو يؤنبه ..

ـ ايه اللى جابك معايا .. امشى بقى يا بهيم .

وزعقت الأوزة فى الصـاح وهوس كأنهـا تستغيث لحبس حريتها المفقودة ثم سكتت حين خطف لها عودا أخضر من الحقل المجاور . ومر صديق فأخذ درويش امامه على الحمـار . وجر الجنيـدى معه الكلام ، ولكن الصـديق كتم الحـديث على غير انتظار . ومن على ظهر الحمـار كان درويش يجدف فى عالمـه الخاص . فحين رأى أفنديا يمتص حبة من المـانجو كان يغالب نفسه ويضغط اعصابه لكى لا يجابه أباه .

ـ انا عايز مانجه يابه .

كان يريد أن يزوم بالبكاء ، أو أن يعبر عن أمانيه بأية وسيلة ، ولكنه نسي وقد ضاع فى زحمة الطريق الزاخر .

وقرب السوق ارتفعت الضجة العريضة تشق الفضاء مختلطة بالأصوات .. بنهيق الحمير .. بثرثرة النساء .. بنداءات الباعة . وشعر الجنيدى بأن للأوزة وزنا ثقيلا فى يده . وتذكر عيدان الذرة التى طلعت ضعيفة .. فلم تطرق ذهنه سوى فكرة شراء الكيماوى .. فهو رجل لا يهمه الا ارضه التى يستأجرها من زمن طويل فهى شغله الشاغل وفكره الدائم . ولقد عاش طويلا فى هذه الحياة ولم يخرج منها بشىء . ودلف الى السوق والأوزة تكاد تلفظ انفاسها من شدة الزحام لولا ان حملها فوق راسه ، وانتشرت رائحة العرق النفاذ تزكم الأنوف ، واستغفر الله فقد تصور نفسه فى يوم الحشر العظيم . وانعقدت امام عينيه حلقات الدخان الرخيص تنبعث من عند الشوائين . وشم رائحة القرويات التى يعرفها جيدا حين ينام بجوار امراته فى الليل ، وعند مكان بيع الطيور كان يقف وفى اغواره حسرة مكلومة والأوزة تزوغ بنظراتها فى غير اتجاه ، لا تعرف مصيرها المظلم القاتم وسحبها منه أحد البائعين وكأنه يسحب منه روحه ..

ـ بعت بتلاتين ؟

وجذبها الجنيدى منه وهو يزعق فى وجهه ..

ـ يا اخى دا مراتى مزغطاها بكيلة غلة .. وحرام عليك هو مافيش اسلام .

ونتف البائع ريشة واحدة من جلدها وراح يدقق النظر فيها وكأنه يفحصها ، ثم همس فى برود :

ـ بعت باربعين ؟

ولم يتمالك الجنيدى نفسه ودفعها اليه وهو يقول :

ـ خد الله يباركلك .

وعد له البائع الأربعين قرشا ، ارجع له الجنيدى قرشين شك فيهما .. وقبل أن ينحرف ليشترى الكيماوى تصلب درويش يريد أن يرى الحاوى . وكاد أن يقفز من فوق راسه على رءوس المتفرجين .. لقد أعجب الولد بالألعاب العديدة .. البيضة التى أصبحت أرنبا .. والطربوش الذى يلد دجاجة .. وفم الحاوى العجيب الذى يخرج منه شريطا طويلا من الأمواس الحامية .. وقبل أن ينهى الحاوى دوره كان الجنيدى يحمل درويش بالقوة فهو يعرف ماذا بعد انتهاء الدور ؟ ! وعاد الولد يطلب المانجو باصرار فى هذه المرة . ولكن الجنيدى كان مشغولا هو نفسه بأحلامه الخاصة .تمنى طاقية من الوبر تعيد اليه شبابه الفانى ، أو رطلا من البن‌اليمنى ، أو زجاجة من الغازوزة ليطفىء بها جوفه الملتهب ، ولكن كل هذه الأمنيات كانت تندحر فى راسه حين يذكر الحقل والمحصول والرى والربع فدان الذى يحتاج للكيماوى . ويضىء قلبه فرح جميل حين يصبو الى المحصول القادم ثم يخبو هذا الفرح حين يعلم انه لن يجنى منه شيئا . ومن خيط واه ضعيف تكاسلت قدماه نحو محل بيع الكيماوى . كانت صورة الأوزة ما زالت تقفز امام عينيه حية.. متوهجة وما زالت زعقاتها تملأ أسماعه وانغمر الجنيدى فى السوق يفرش أمانيه العذاب مبعثرة ، لا ضابط لها . تتحكم فيها فكرة الكيماوى واحتياجه اليه . تتكاثف هذه الأمانى عليها جميعا . وكلما برزت واحدة اختنقت الفكرة الأصيلة . تتعانق هذه الرغبات وتتساند لتنقض على غريمتها الكبرى . ويقف الجنيدى مذهولا مشتتا يغلى راسه بكثير من المشاعر

المتناقضة .. خاطر واحد ارتفع كالعملاق يخضع امامه كل المعوقات .. فبجوار محل الكيماوى وقبل ان يساوم الجنيدى للشراء التمعت أمامه صنادل العيال براقة خلابة . وعلى مهل كان درويش ينكس نظراته الى الأرض ويعبث بأصابعه بالأحذية. ولم ينطق فى هذه المرة فمن التجارب العديدة عرف أن يد ابيه خاوية . ومن الصباح وهو يلح فى طلب المانجة أو الغازوزة ، وينهره أبوه ويخبطه بكفه الغليظة . لكن هذا كله ما كان ليمنعه من أن يلقى بربع نظرة ملتوية الى الصنادل اللميعة ويقول فى خبث :

— .. الأرض بتلسعنى يابه .

— يعنى عاوز ايه .. اشيلك .. ما انا شلتك لتير .

وينفجر درويش والدموع تملأ عينيه ...

— لأ .. انا عايز صندل .

وحاول الجنيدى طويلا ، فلم يستطع ان يقاوم الخاطر العملاق الذى تحرك فى داخله . وفى عزم انعطف نحو الصف الطويل من الصنادل المعلقة ليدس فى قدم درويش واحدا جديدا لميعا .. يتبختر به فى القرية أمام الأطفال ...

الوجه الكبير

كنت قد عينت محررا علميا لمجلة النور والأمل ، وبرغم انني لم اكن افهم شيئا فى العلم ، فقد اثنى على رئيسى ، ووعدنى بمستقبل طيب فى ميدان الصحافة ، لأنى اعرف كيف انتقى الخبر ، وكيف اكتبه من الزاوية المثيرة التى تجذب عيون القراء . فعندما أطلق السوفييت الصاروخ الذى وصل القمر وبداخله الكلبة « لايكا » المشهورة ، كتبت موضوعا كبيرا اخترت له عنوانا ضخما بالأحمر . لايكا تصرخ لا أريد الذهاب الى القمر .. وتحت هذا العنوان أجريت استفتاء بالصور لرجال الدين حول ما اذا كان الوصول الى القمر حلالا أو حراما ، وهل يعتبر هذا من علامات الساعة ، أو من رضاء الله على عباده ؟ وحين أقيم مؤتمر عالمى لاستخدام الذرة فى الاغراض السلمية ، كتبت مقالا طويلا عن الجهلة الذين يخلطون بين الذرة التى تتولد عنها طاقات هائلة جدا نستطيع ان نستخدمها فى حياتنا ، وبين الذرة التى نزرعها ، ثم نأكلها . وختمت المقال بالتنبيه على الجميع بأننا نعيش فى عصر العلم ، ويجب علينا ان نتيقظ لما يستحدث من الاختراعات

والا نخلط الحابل بالنابل ، والخبيث بالطيب والله ولى الصابرين .

واستمر حالى على هذا المنوال بالقسم العلمى بمجلة النور والأمل الى ان جاءنى رئيسى ذات يوم ، وهو ثائر كما لو كانت الدنيا قد انقلبت راسا على عقب ، ولوح لى بيديه وهو يكنسنى بنظراته الصارخة :

ـ خبر ايه يا استاذ .. فيتامينات ايه وزفت ايه .. احنا ناقصين الكلام الجاف بتاعك ده .. آل فيتامين آل .. فيتامين « أ » يزيد من نسبة الكرات الحمراء .. وفيتامين « ب » يزيد من نسبة الكرات البيضاء .. احنا مالنا ومال الكلام الفاضى ده ...

واقترب منى رئيسى وقد هدأت ثائرته بعض الشىء :

ـ انت مش صحفى .. انت بطلت خالص .. مبقتش زى زمان ...

لو كنت جدع كنت ربطت الموضوع بالنساء .. يعنى كان ممكن تقول ان فيتامين « أ » يقوى الحاسة الجنسية وفيتامين « ب » يزيد من نعومة بشرة الساق ، وفيتامين « ج » ينعش المزاج .. وهكذا ...

وسكت رئيسى ليقترب منى أكثر فأكثر :

ـ آه .. أصل الصحافة كده .. لازم الموضوعات تكون زى البهارات والشطة .. ان ماكانتش تثير حاجة فى القراء ماتكونش ناجحة ...

ولم استطع طبعا انارد وقد تداخلت فى نفسى الى أن تمر العاصفة . ولكن رئيسى لم يهدأ ، وكان كمن ركب حمارا وراح

يضربه ، والحمار ساكت لا يبدى امتعاضـا . وهتف فى وجهى فجأة ، ودون اى مقدمات :

ــ انت تسيب الركن .. خلاص ما اصبحتش تنفع فيه .. تكتب « من الشارع » أحسن لك ..

وحين سمعت هذه الكلمات كاد قلبى يقفز فى صـدرى من الفرح وامتلأت نفسى فجأة بانبساط كبير . فباب « من الشارع » ليس غريبـا على أبدا ، واستطيع أن احرره وانا جـالس فى مكتبى دون أدنى تعب أو ارهاق . فقبل التحـاقى بالعمل كانت حياتى كلها صعلكة ، لا اعرف الا الشارع والقهوة والسهر والتعرف على الناس فى كل مكان . وليس على الا ان استعيد الأشخاص الذين عاشرتهم واتمثلهم ، ثم أصـور شخصـياتهم الانسانيـة بما فيها من الم وامل ، وخير وشر ، وقلق واستقرار ، وحزن وسرور . وما اسهل هـذه العملية بالنسبة الى ، فطالمـا دونت خواطرى اليوميـة ، وفيهـا عديد من نمـاذج الناس وسـلوكهم وطبائعهم وآمالهم واشتباكاتهم .

كانت هذه الأفكار قد انداحت فى ذاكرتى سريعا ورئيسى مازال يقف على راسى كالشبح المخيف وهو يقول لى :

هيه .. قلت ايه .. حتحرر «من الشارع » من بكره ؟!

وقلت وظـاهرى الذليـل لا يتغير واحـاول أن أبدى له الطاعـة :

ــ حاضر يا ريس ...

وبمجرد ان اقفل رئيسى الباب وراءه قمت انا من فورى ، وبريت قلمى الرصـاص ، وجهزت أوراقى ، وعلقت آلة التصوير القديمة فى رقبتى وكأنى ذاهب الى مؤتمر دولى خطير ، ثم نزلت

أهرول الى الشارع ، منشرحا منطلقا ادندن باغنية قديمة ، غير عابىء بأى شيء أمامى وقد تخلصت من ذلك الكابوس الثقيل الذى كاد يزهق انفاسى .

وعلى أول قهوة جلست ، وطلبت شايا ، وارسلت الجرسون ليشترى لى ثلاث سجائر بلمونت ، ووضعت ساقا على ساق ، وجعلت استعرض الشخصيات العديدة التى اعرفها لأختار منها واحدة . كان كل منها يصلح لأن يكون نموذجا فريدا له تاريخه وذكرياته وعمله وآراؤه وأفكاره وآماله وعذاباته ...

لكنهم عاديون نكاد نراهم فى كل حى من الأحياء . الا ان هناك انسانا فريدا كان قد استحوذ على عقلى وقلبى معا ، وظلت صورته تؤرقنى ليالى طويلة حتى قبل ان يطلب منى رئيسى الشرير أن أكتب له « من الشارع » . كان بودى ان اسجل خواطرى اليومية عنه . وها هى فرصتى معه .. فلماذا لا انتهزها .. وأكون قد ارضيت نفسى .. وشرعت فى الكتابة .

المهم امسكت القلم ثم بدات وطاقة كبيرة تدفعنى :

عم سليمان رجل عجوز يناهز الستين من عمره ، له تاريخ طويل فى التدريس ، فقد بقى فيه أربعين عاما ، وتنقل من مدرسة الى اخرى ، ومن مديرية الى مديرية ، ومن مركز الى مركز ، ومن قرية الى قرية ، وها هو أخيرا قد استقر مدرسا للغة العربية بمدرسة الخرنفش ، وهو ليس مدرسا فحسب ، وانما اديب قديم ايضا ، أخنى عليه الدهر ، ونكست الأيام هامته ، وما من اديب عظيم فى مصر الا وقد عاشره ، وجادله وناقشه مناقشات شفوية عنيفة . فأين ايام زكى مبارك الذى اخطأ امامه فى النحو ، وطه حسين والناس كلهم ثائرون عليه لانه الف

« الشعر الجاهلى » .. الا هو فقد كان الوحيد الذى وقف بجواره والعقاد والمازنى وخصومتهما مع شوقى . وعم سليمان الى جانب هذا قد علم عديدا من الوزراء وكبار الأعيان والمحامين والأطباء ووكلاء النيابة . ولكنه كما هو لا يتغير ولا يتبدل ، بقامته الطويلة وجسده المترهل ، وبدلته الملتفة حوله كالكرنبة ، ولسانه الحاد الذى لا يكف عن الثرثرة أبدا . فالذكريات تتدفق من فمه على الدوام ، والحكايات لا تخلص من راسه ، وهل بعد عم سليمان من محدث . لقد كان يلقن العلم اربعين عاما متوالية ، لقى فى هذه السنين تجارب طويلة ، ولف على بلدان ، وعاشر اشخاصا ، عرف ما يؤثر فيهم ، ما يبهجهم وما يبكيهم ، ما يفرحهم وما يحزنهم . لم يتعلم فى جامعة ولا حتى دخل المدارس الثانوية، ليس لديه الا ابتدائية زمان . أيام كانت الجغرافيا والتاريخ والجبر والحساب تدرس باللغة الانجليزية . وها هو قد عاش وقد رأى التغيرات والأنظمة الكثيرة تذهب وتجىء ، والمعاهد والجامعات والبعثات ، بل لقد أصبح تلامذته وزراء لهم الحول والطول ، ثم ها هو يستقر به المطاف فى آخر أيامه عند بقالة الحاج حسين يقضى امامها سهراته ، ويلتف حوله محمد أفندى وشكرى باشكاتب الصحة وزكى أفندى عويس أمين خزينة الصحة أيضا ، والشيخ برعى المأمون شيخ حارة النصر ، وناس آخرون يحبون أن يجلسوا الى جوار عم سليمان ، يستمعون اليه ، ويضحكون معه ، ويطلبون منه رواية التاريخ .. كيف قامت ثورة ١٩١٩ ؟ .. وكم كانت سنه آنذاك ؟ .. وما هو الفرق بين جيل اليوم وجيل الأمس ؟ .. ويترفع عم سليمان أولا .. ثم لا يستطيع أمام الحاح الجميع الا أن يبدأ ، وهو يبدأ عادة بشىء مثير . فحين يتكلم عن سعد باشا مثلا يسود السكون الجميع ، وتتوارى الضحكات والكلمات خلف الأفواه .. وتنتظر الآذان ما سوف يقول :

ـ انا مره سعد باشا بعتلى انا وشلتنا علشـان نتفاهم معاه .. أصل ماكناش وفديين . كنا فى لجنة الحزب الوطنى بعابدين . وكانت لنا شنة ورنة ، مفيش حد يقدر يقول لنـا لأ ... نهار ما نقول اضراب يعنى اضراب .. وخذ عندك بقى تكسير فى تكسير ...

وحين اكملت شخصية عم سليمان على هذه الصـورة كان المزاج قد استبد بى جدا ، فأشعلت سيجارة البلمونت الباقية ، وطلبت شايا آخر ، ثم كتبت أخيرا ان عم سليمان ليس روايـة للتاريخ ومدرسـا قديما للعربى فحسب وانما شـاعر أصيل ايضا، دخل فى مساجلات كثيرة كان هو المنتصر فيها دائما ، وختمت صورتى بدعوة الحكومة بأن تستفيد من هـذا الرجل . وتهيىء له حياة طيبة .

وزيادة فى الاحتياط قلت .. لابد أن أجلس مع عم سليمان نفسه ربما كان عنده أشياء ومعلومات جديدة يمكن أن يضيفها . وكان الأمر فى منتهى السهولة . فليس على الا أن أعرج على بقالة الحاج حسين ، ، وسأجدهم هناك ، الشلة الخـالدة ، يجلسون وفى وسطهم عم سليمان . وانحرفت الى أول شارع على يمينى ، ثم دلفت الى حارة النصر ، ثم القيت السـلام على الشـلة . وردوا على فى صوت واحد ، ثم زعقوا :

ـ خبريه يا سى عبد السلام .. هيه يعنى الصحافة تاخدك منا كده .. طيب يا أخى ما تكتب لنا شكوى عشان المجـارى الطافحة دى .. ما تيجى تاخد شاى ...

وما صدقت ، اذ أسرعت اليهم ، ومددت يدى اليمنى الى كل منهم . ويدى اليسرى تحتضن أوراقى ، ثم جلست ، وبعد

السلامات والتحيات والترحيبات المعهودة همست فى اذن عم سليمان :

ـ والنبى لو سمحت يا عم سليمان عاوزك شوية على جنب ....

وسحب كل منا كرسيه ، ثم ابتعدنا قليلا عن قعدة الشلة ، وقلت له :

ـ انا كاتب عنك شخصية « من الشارع » اللى بننشرها عندنا فى مجلة النور والأمل يا عم سليمان .. وعاوز أسمعها لك يمكن تضيف ليها حاجة جديدة ...

ـ مجلة ايه .. النور والأمل ...

ثم تطلع فى وجهى يفحصنى بعينيه الطيبتين الصافيتين . ووضع يده على كتفى وهو يقول :

ـ آه .. مجلة النور والأمل .. هو انت هناك بقى .. دانا عارفهم كلهم .. انشاء الله أوصيهم عليك دا انت باين عليك من كتاكيت الصحافة لسه ...

وانفرشت صفحة وجهه باشراقة بيضاء ، وبانت تجاعيده مسترخية ، مشربة بسمرة لامعة .. وقال فى تأكيد هامس :

ـ حاكم يابنى شغل الجرايد أنا مجربه من زمان .. كويس ومسلى بس كدب فى كدب ...

وسرح عم سليمان وكأنه يستعيد الماضى البعيد :

ـ فين ايام ما كنا بنطلع مجلة الكمال .. وجريدة الحرية والفجر الحديث ...

واحسست وهو يلقى بهذه الكلمات اننى لن أخلص منه أبدا ، فلو انفتح فلا يمكن لأحد أن يوقفه ، سيستعين بخياله وسيؤلف القصص والحكايات التى يستحيل أن تفرغ ، سيشرح بيديه وسيجرب كل نبرات صوته ، وسيبدع ويهلل ويحلف وينجلى ، ولا استطيع أن أوقفه ، ولكنى لحقتها من الأول أستعطفه بأن يسمع ما كتبت ...

وبالمصادفة ـ ولا اعرف الأسباب ـ لان فى هذه المرة ، وسكت ، ويبدو انه كان يشعر ببعض التعب ، استسلم فى تواضع غريب . وابتعدنا بمقاعدنا قليلا ، ورحت اقرا عليه ما كتبت . وفى كل سطر يمصمص شفتيه ، ويتململ على كرسيه ويرتشف القهوة ثم يكرر :

ـ حلو .. حلو تمام .. تمام .. ماشى .. كله ماشى .. شىء السطه خالص .. ايوه يا سيدى كده .. حلو .. حلو تمام ...

وفجأة هب يستوقفنى مرة اخرى :

ـ انما انت جبت المعلومات والحكايات دى كلها منين .. دا انا مقلتهاش لحد أبدا ...

ولم ارد عليه طبعا ، فهل أقول له انك تفلق رءوسنا بها كل ليلة ؟ ...

وعندما وصلت الى سطور الأدب وزكى مبارك وطه حسين والعقاد وشوقى همس فى اذنى بود وطيبة :

ـ والنبى انا عاوزك تضغط على الحكاية بتاعت طه حسين دى قوى .. توضحها كويس .. يعنى تقول ها هو عم سليمان الذى هزم الدكاترة زكى مبارك .. ووقف بجانب طه حسين ..

ها هو الأديب الكبير المغمور الذى لا يعرفه أحد .. الحقوه قبل أن يموت ، وتقول كمان .. ها هو عم سليمان الذى رفض مقابلة الملك فؤاد فى سنة ١٩٣٦ عندما ارسل له ليتدخل لفض المظاهرات التى سادت ضد المعاهدة .

والى هذا الحد ارتجفت خوفا من ان يسترسل عم سليمان فى الحديث ، ولا أستطيع أن أوقفه ، فحلقت عليه وانا اتأهب للقيام ...

ـ ان شاء الله اكتب كل حاجة يا عم سليمان طبعا .. طبعا ...

وفجأة تغير عم سليمان وهو يستحلفنى ان ابقى معه قليلا ، فبعد ان كان وجهه يشع باشراقة بيضاء زاهية ، رأيت سحابة قاتمة تطوف على ملامح وجهه كلها فتكسوها بحزن قديم ثقيل..

وارتجفت يداه وهما تضغطان على كتفى أن أجلس معه لحظات وبانت خطوط جبهته المكتنزة طويلة ، يتخللها العرق والتراب . وكف عن دق عكازته ، وكان لا ينى عن دقها طول جلستنا ، وانخفض صوته الى درجة الهمس . واختلجت نظراته فى تردد وخوف . واصبح وجهه كالتمثال من الحزن الكئيب المرتجف . وارتبكت الكلمات فى فمه ، وهو يلقيها الى فى وهن وضعف :

ـ لكن انت سبت حاجة مهمة فى حياتى محدش يعرفها خالص ...

واستولت على دهشة مباغتة وأنا أحاول أن أجعله يفضى بما فى قلبه ...

وتطلعت الى وجه عم سليمان الطيب ، فرايت السحابة الحزينة الثقيلة قد ازدادت تكاثفا . وانفه يهتز اهتزازة خفيفة تشوبها حمرة غامقة ، وخطوط جبهته تضيق وتضيق وعيناه قد انسابت منهما دمعتان كبيرتان انحدرتا على خديه فى صمت غريب . واستولى على الذهول المفاجىء ، فلم استطع الا ان اقول :

ــ مالك يا عم سليمان .. انت عمرك ما كنت كده .. حصل حاجة والا ايه .. أنا مستعد أكتب لك اى شىء ...

ورايت عم سليمان يغطى وجهه بكفيه العريضتين ، وينفجر فى البكاء وهو يقول بصوت منهار متشنج :

ــ أصل يابنى كان ليه ابن زيك كده تمام بيشتغل فى الصحافة وبعدين مات ، كان شبهك كده تمام .. كلامه وسنه ووجهه .. وكل حاجة فيه ...

ولم يستطع عم سليمان أن يكمل كلماته بعد ما أطلق لسانه الحبيس بها .. لم أكن قد سمعت من قبل أن لعم سليمان ابنا كان يشتغل فى الصحافة ، ثم مات . وقد كان يحكى لنا كل حكاياته ، الكبيرة منها والصغيرة . بل كان يؤلف من عقله وخياله فى بعض الأحيان حكايات عجيبة لا تمت الى حياته ابدا . فهل صحيح أنه سفه الدكتور زكى مبارك ، او وقف بجوار الدكتور طه حسين ، او أن الملك فؤاد طلب مقابلته !! ولكن يبدو انه كان يحتفظ بموت ابنه فى قلبه سرا من الأسرار التى لا يبوح بها لأحد وانه يتحاشى الحديث عن الأسرة او الأولاد فى كل جلساته . كان هذا هو الجرح الذى ارهف حسه ووجدانه ، واكسب قلبه طيبة ووداعة وحبا . وكان هذا هو الذى جعله يتحاشى المآتم وقعدات الحزن والأسى ، فقد كان يهرب كلما قابله نعش

او يغير طريقه عندما يشاهد سرادقا لميت ، او يقوم سريعا حين تبدأ الجماعة التى يجلس معها فى سيرة الموت والأموات .

وانهارت أعصابى وأنا أستعيد هذه الذكريات عن عم سليمان ولم أستطع ان اقاوم ضعفى ، فسقطت الأوراق من يدى وغم كبير أخذ يتسلل الى روحى ، وشعور بالهزيمة يتمدد فى نفسى، وشيء شفوق حنون يغطى صدرى ، ولم أتمالك كيانى فاختلج صوتى انا الآخر ، واقتربت من عم سليمان ونظراتى تتلاقى مع عبراته الدامعة ، واتصل شعاع عينيه الكليل بشعاع عينى ، ولم أحس بنفسى الا ووجهى يتقلص كما تقلص وجه عم سليمان ، ويداى ترتعشان كما ترتعش يداه ، وعبراتى تسيل مع عبراته .. واقتربت منه وانا أود أن أعانقه ، وأن احتضنه كما كنت احتضن ابى وانا صغير .. واقتربت منه أكثر وأكثر وانفاسى تتهدج مع انفاسه ، وكيانى يلتحم مع كيانه ، وحب كبير ودود يضمنا نحن الاثنين فى لحظة انسانية مستوحشة .

ولكنى تراجعت وقلبى يخفق فى صدرى من الخوف ، فقد تذكرت رئيسى وما ينتظرنى على يديه من التأنيب والردع والعقاب والسخرية . ومن يدرى .. فهل تعجبه شخصية عم سليمان الطيبة .. أم انه سيمزق أوراقى ويطلب منى أن اكتب عن النساء .. وهل سيزعق فى وجهى :

ــ عم سليمان مين يا أخينا وبتاع مين .. ايه يعنى ما فيه آلاف المدرسين فى البلد .. وادب ايه وبتاع ايه .. ياخويا انا قلتلك أنا عاوز حاجة حراقة زى الشطة والبهارات .. فاهم يعنى ايه .. يعنى كان ممكن مثلا كنت تربط شخصية الراجل ده

بأنه عاجز جنسيا وانه مصاب بعقدة جعلته يكره النسوان كلهم .. عامل نفسك انسان قوى ؟؟

ولم تلبث صورة رئيسي أمامي طويلا ، فسرعان ما طردتها كأنها خاطر كئيب مر فجأة دون توقع ثم اختفى وقد أصابني بصدمة سريعة ، أو كأنها بومة زعقت وحومت فى وجدانى ثم اختفت كالبرق . وعدت الى عم سليمان وهو يستعطفنى أن أجلس :

ـ اقعد يابنى .. دا أنا مش عاوز أسيبك أبدا ...

ورنت فى أذنى كلماته رنينا حلوا حنونا صافيا كنت أشتاق اليه من زمان . فقد كنت انا الآخر افتقد ابى الذى تركنى وأنا صغير لا يتجاوز عمرى الثانية عشرة ، وتولت أمى تربيتى ، وكنت فى حاجة الى أب كبير يغمرنى بحنانه وطيبته ، يحدثنى عن ذكرياته ، ويعطينى مصروفى ، ويضربنى لو أراد .. وفجأة وجدت نفسى أمام عم سليمان بطيبته وحنانه . وهو يشوح بذراعيه الطويلتين ، يحدثنى عن ذكرياته وأيامه ، وها هو الآن ينادينى بصوته الأليف الحبيب بيا ابنى .. ويحكى لى بنبراته المتهدجة عن ابنه الذى كان يشتغل بالصحافة ثم مات . ويطلب منه الا افترق عنه لأن ابنه كان يشبهنى ، وهأنذا انجذب الى وجهه انجذابا ، وأبادله دموعا بدموع ، وحزنا بحزن ، وأكاد اشكو له فقد أبى .. ولكنى كلما تطلعت الى وجهه الكبير غمرنى احساس عميق بالاطمئنان والراحة .

فـــراغ

فى هذه الليلة انهارت خطة عوض « بك » التى كان يحققها كل عــام لأول مرة .. فمنذ سنوات طويلة والرجل يباشر حياته على طريقته الخاصــة الهادئة الرتيبة . وهــذا هو اليوم الأول له فى مشتى حلوان الدافىء اللذيذ . وقد قضى نهــاره مبتهجــا مسرورا تعشش الســعادة فى نفسه . فقد عرض جسده للشمس الساخنة ، ومشى فى الخــلاء الرحيب ، وشرب من مياه العين الجديدة ثم عرج على كازينو الحديقــة اليابانيــة فشرب زجاجة من البيرة . وأثناء هــذا الطواف الطويل كانت تحت يده عربــة حنطور يجرها زوج من الخيول .. تنتظره انى رحل ، وذلك بعد ان رفض ركوب سيارته الصغيرة ففى مثل هــذه الأحوال يستحب السير على الأقــدام ، أو الرجــوع الى أيام زمــان ، حيث كانت عربات الحنطور هى أعظم طريقة للمواصلات .

فى هذه الليلة عاد عوض « بك » كما يصر أن يلقب نفســه الى فيلته الأنيقة لينام . ولم يكن هنــاك شيء يشغله عن النوم . لا زوجة ولا أولاد ، ولا حتى أصــدقاء . فهو وحيد ، مريض ، معتل المزاج طيب القلب والروح اعترته نوبة من التصرف الخاص

الذى مارسه على هواه . وفى الحجرة الفسيحة فى الطابق العلوى من الفيلا استقر به التجوال . خلع ملابسه ، وترك غليونه الكبير على مائدة صغيرة بجوار السرير ، ولبس جوربا من الصوف ووضع على راسه طاقية من الوبر الغالى . وتمدد على السرير وهو يشعر ببعض التعب الخفيف . وشعاع من الضوء الخافت ينعكس على صفحة وجهه فتبدو طيبته وانسانيته الوديعة . لقد جعل النعاس يداعب جفونه الرقيقة . واعتدل على جانبه الأيمن . وكاد أن يستغرق فى النوم لولا ذلك الصوت الضعيف الذى راح يتسلل الى اذنه رتيبا منظما . وانجذب عوض « بك » الى الصوت . ثم فتح عينيه . وانصت جيدا ليميز مصدره الخافت . وفى لحظات توقف الصوت . وعاد عوض « بك » الى النعاس . وفى راسه قلق صغير دقيق قفز اليه من جراء الصوت الغريب . فربما دخل لص الفيلا اثناء النهار ولم يستطع أن يخرج منها . وربما كان حشرة ضارة تلدغ . وشد عوض « بك » الغطاء على وجهه حتى لا يشعر بشىء . لكن الصوت عاد الى أذنه أقوى من الأول . وابتدأت حبة القلق الصغيرة تكبر فى نفسه . وطيف من الملل يهف على روحه فالليلة هادئة ، والطقس جميل ، والهدوء يلف الكون من حوله . وذكريات يوم سعيد تطوف بمخيلته فرحانة حانية . اذن ليسكت ربما انتهى الموضوع بلا تعب ولا قلق . وصمت يستعيد ساعات نهاره الفائت .. كانت الدنيا حلوة .. والشمس دافئة . قضيت نهارا جميلا .. غيرت فيه المناظر .. ورأيت أشياء جديدة .. وعرضت جسدى للشمس ، وقرأت كل الجرائد والمجلات .. واطلعت على حظى فيها .. انسان عزيز عليك يزورك قريبا ، يحمل اليك بشرى مهمة ، ثق بأصدقائك فانهم الأمل الوحيد فى حياتك ، قلب يحبك وأنت لا تعرف .. حاول البحث عنه .

وعاد الصوت ينقر من جديد .

وتابع عوض « بك » ذكريات النهار السعيد .. يا ليت هذا الانسان العزيز يزورني الآن ، فأنا أعاني الوحشــة والوحدة . يا ليته يزورني .. اى انسان ، ولو لم يكن عزيزا ، فسأتعرف عليه ، وافتح له صــدرى ، وارحب به ، وأعمل القهوة والشاى .. حقيقة لو زارني فسأحس بالدفء ، واستشعر المودة ، اتبين هذا القلب الذى يحبني ولا أعرفه ، يا فرحتى لو طار الى الآن .. فسينتزعنى من قلقى هــذا ، وسيمسح عنى أحزانى .. وسيبدد مللى وضيقى .. ولكنهــا الجرائد التى لا تصــدق أبدا .. فأنا فى كل يوم اتتبع حظى .. وما من نبوءة حدثت ، بل ربما حدث العكس تماما .. وهأنذا الآن أجلس وحيدا ، منفردا ، فأين هم الأصدقاء ؟ وأين هو القلب الذى يحبنى ؟ .

ومسح عوض « بك » بيده على وجهه فى حسرة وألم والصوت مازال ينقر نقــرا منتظمــا ثم انتفض فــوق السريــر الى درج الكومودينو .. انه سيحاول أن ينام بمنومه الخاص الذى تعود عليــه طويلا .. فسيأخذ احدى الروايات البوليسية يتســلى فيها ، ولن يتم منهــا صفحات حتى يغلبه النوم . وشد الرواية الصديقة الخالدة .. « أرسين لوبين » وانجذب عوض « بك » للقراءة لحظــات ولكنــه لم يستطيع تجاهل الصوت فقد ازدادت حدته . وانتظمت نقراته . وفكر ان يوقظ كلبه العزير « ميكى » فهو الوحيد الذى يستطيع أن ينتزعه من هذه المخاوف الصغيرة . وربما تعرف على مصــدر الصوت فأوقفه . وسيحاول أن ينسى فى صحبته الصــوت الغريب الذى يبثه الخوف ، وقام يفتح باب الحجرة ليذهب الى « ميكى » فى الصــالة . لكن صرخة حادة طوقت اذنه لا يدرى مصــدرها . فقفز مسرعا الى السرير والرعب يملأ نفســه . واصبح سجين الحجرة لا يستطيع مغادرتهــا . وارتعشت اعصــابه من الرهبة وطار النوم من جفونــه تماما .

وحملق بنظراته هائما فى فضاء الحجرة وبسمل فى سره .. ترى من اين ينبعث هـذا الصوت الغريب .. انه يسكت ثم يعود الى الظهور ، ويذهب ويروح وكأنه يعانده ، وكاد أن يزعق بمـلء صـوته .. « ميكى .. ميـكى .. ادركنى يا ميكى .. أدركنى يا ميكى .. يا خرابى » .. ولكن ميكى نائم يحلم ، يحس بالتخمة من أكل النهـار . « يا سـوء حظى » وفى هـذه اللحظة جاءته اصـوات الكلاب البعيدة ، خارج الفيـلا ، مشروخة وحـادة وحزينة . لا يدرى عوض « بك » لمـاذا ارتاح لهذه الأصـوات التى تأتيه من الخارج . فراح ينصت لها ، ويستأنس بهـا . واحس بقليـل من الهدوء .. واصر على أن يعرف مصـدر الصوت .. فأشعل غليونه .. وتناول عصاه الطويلة ، وقبع على سجادة الحجرة ، وانتظر يلتقط الصـوت .. وتأكد من انه يجيء من داخل الحجرة .. واعترته الحماسة والرجولة .. وسرت القوة فى عضـلاته المسترخية الخائفـة . وشـعر بالعزم يشـد نفسه .. ودغدغت النشوة روحه .. فلقد ايقظه هـذا الصوت الغريب الى هذه الساعة من الليل .. وما كان ليستيقظ أبدا ، بل كان سيقضي الوقت متشابها مملا كسولا لا يحس له طعما .. أما الآن فهنـاك عمل واهتمام ونشاط وحيوية حتى ولو بثه هذا العمـل الخوف وقـلق البال . وقام وشرب كوبا من عصـير البرتقال .. ثم عاد كالفارس العملاق الذى ينتظر دخول المعركة.. وتحول الى اذن كبيرة مرهفـة تسمع ، واستطاع أن يحدد مصدر الصوت .. انه يأتى منحدرا من ناحيـة دولاب الملابس . وحتى يتأكـد راح يزحف فى بطء ورويـة نحوه . وكلما اقترب ازداد الصوت وضوحا وقوة .. والصق اذنه بخشب الدولاب .. وسمع النقر الذى عذبه طويلا .. وفى حذر فتح أبواب الدولاب .

وهنا قفز من بين الملابس فأر ضخم الجثة أخذ يجرى فى ارجاء الغرفة . وطار عوض « بك » وراءه يلاحقه بعصاه ولعناته .

وداخ عوض « بك » من الجرى والقفز الى أن حصر الفأر فى ركن الحجرة والعرق يتصبب من جبينه ، وعيناه تقدحان بالشرر والانتقام والفأر ساكت يلهث هو الآخر .. ويتمسكن . يفكر فى حيلة للهرب . وتحفز عوض « بك »ثم رفع عصاه مستعدا وفى لمح البصر هوى بها على الفأر .. ولكن بلا فائدة .. فقد أفلت الفأر السريع الى حجرة المكتب المظلمة .. وحين اضاء عوض « بك » النور كان الفأر قد اختفى فى الظلام من أمام عينيه . وراح يبحث عنه من جديد .. واعتراه اليأس ، وتسللت الى نفسه روح الهزيمة مرة أخرى .. لكنه لم يستكن لها .. ولابد من أن ينتصر . . ولايمكن أن يرضخ ببساطة حتى ولو ظل يقظا طول الليل . . انها ليلة العمر . . وهى نادرا ما تحدث .. وماذا سيخسر . . ليتعب الآن ولينم طيلة نهار الغد فى السرير . فليس وراءه اى عمل وأقفل باب الحجرة ، ودس تحته بعض القماش حتى لا يهرب عدوه . ورفع عصاه وانتظر .. وجعل يفكر مستعيدا تاريخه .. اسست هذه الفيلا كى أقضى بها شتاء دافئا واقمت بها منذ عشر سنوات من فصول الشتاء جميعا .. ولم يحدث أن عكر صفو هدوئى معكر .. كان كل شىء منظما ومرتبا .. اتمتع أنا وكلبى بشمس حلوان اللذيذة الى الرابعة مساء ، ثم أعود لأجد الطاهى قد أعد لى غذائى .. ثم لا أبرح فيلتى الا فى صباح اليوم التالى .. ليس لى صديق ولا زوجة ولا أولاد ولا معارف .. اللهم الا الطاهى الذى اتحدث معه بالايماءات المختصرة .. وعم عبده البواب الذى يحيينى عند خروجى وعودتى . لكن الطاهى والبواب تركانى فى هذا الشتاء لعنهما الله . وأصبحت وحيدا . حاولت أن اربى بعض الصداقات حينما كنت أجلس فى الكازينو فى العام الماضى . ولكنها تبخرت فى هذه السنة .. اننى الآن احتاج الى أى صديق أو الى البواب أو الطاهى ليساعدنى فى

قتل هذا الفار الخبيث .. ولكن بلا جدوى .. حتى ميكى يغط فى النوم كالمذبوح .

وعاد عوض « بك » يتحفز لرؤية الفار . فأزاح المكتب قليلا وضرب الأرض بالعصـــا . ولم يظهر الفأر وركز على ركبته وارسل نظراته الى تحت المكتب وبجوار أرجله الخشبية كان الفــأر يقبع خائفا مذعورا ومضطربا لا يستطيع الحركة . وفى تهور رفع عوض « بك » العصـــا وهوى بها على الفأر . وخر الفأر صريعا فى هذه المرة . وجعل يرسل انات حزينـــة غريبة .. وسر عوض « بك » جدا فقد انتصر على عدوه الذى دوخه طويلا . واخذ يتأمل جثـــة الفأر وهى ترقد أمامه فى النزع الأخير . ومد اليها العصا ليحركها ولكنهـــا لم تتحرك ثم جرى وفتح باب الحجرة والتقط انفاسه اللاهثة .. ومسح عرقه المتصبب ، ثم هوى على الكرسى من التعب .. كانت جثـــة الفأر السمراء ترقد امامه كالشبح الكئيب .. واشعل غليونه وراح يجذب انفاسه .

واقترب من جثة الفأر . كان التعب قد طغى عليـــه . فقام الى حجرة النوم لينام ، ولكنـــه لم يستطع : اختطف روايـــة أرسين لوبين مرة أخرى ليحـــاول أن ينام بها . وعلى السرير كان يحس بتيار من النشوة تسرى فى روحه .. فما زالت فى راسه أحداث الليلة طازجة عنيفة مثيرة .. وما زالت جثة الفأر السمراء ترقد امامه على السجادة فى ضعف واستسلام تنتظر مصيرها الأخير فى الخلاء عند الصباح .

الجـــرح

كان لابد أن يجرى محسن « بك » كالنحلة هو واتباعه فى انحـاء التفتيش الملكى العتيـد ، ليشرفوا على كل الترتيبـات بأنفسهم ، وليصححوا بأيديهم الاخطـاء التى يمكن حدوثهـا ، فالأمر خطير رغم انهم تلقوه مرارا . لكنـه جاءهم اليوم فجـأة ، وعلى جنـاح السرعة ، وفى سرية تامـة .. سيشرف مولانا الملك التفتيش حالا .

فى مثل هذه الزيارات يقف التفتيش على قـدم وساق . يبرق « البيك » المفتش الى نظـار الزراعات ويأمر النظار الخفراء بالمثول فورا بين يديه . وتفتح محطـة تربية الدواجن حتى تكون على اهبة الاستعداد من أجل تلبية الطلبات العاجلة .

الخلاصـة ان ينتفض المستخدمون والموظفـون والخفراء وعسـاكر البوليس لاستقبال الملك ، كل يؤدى واجبـه المكلف به . وكانت اشارة البدء . امنعوا السير فى طرقات التفتيش ، شددوا الحراسة على المفارق من كبارى وبوابات .

وفى البدء أيضا سوف يقوم « البيك » المفتش بجولات سريعة خاطفة للاشراف على كل هـذه العمليات والاطمئنان بنفسه على أن الحـالة هادئة والطرقات نظيفـة ، ولا أثر للأقدام فيهـا ، وأخيرا ــ وهـذا أهم ما فى الجولات ــ أن يتأكد من وجود الخفير الخصـوصى للحديقة الخاصة فى مكانه . فمولانا لا يحب الا هى ، ولا يعشق ظلالا الا ظلالها ، ولا فاكهة الا فاكهتها ، وهى أيضـا ذات العشب الأخضر الجميل ، والأسوار المرتفعة التى تحجبها عن كل انس وجن ، مترامية الأطراف ، فسيحـة الارجـاء ، يسودها عبير حلو أخاذ ، وتسرح فى سمائها طيور محلقـة فرحانة تزغرد وتسقسق لقدوم الملك ، وفى وسطها حمام حديث يمتلىء اذا شاء الملك بالمـاء الأزرق او الأخضر .

وشد المفتش رحله الى الحديـقة الخاصـة .. انبعج فى عربته الصفراء الأنيقة ، وبجواره سائقه الخـاص ، وفى الخلف ناظر الزراعة . كان « البيك » فى منتهى النشـاط والحيوية ، تغلى فى داخله الرغبـة الملحة لاصطياد الاخطاء والاغلاط التى يقع فيهـا الموظفون والعمـال ، وتعتريه لوثة من الجنون حين يلقى بأوامره لمرءوسيه ، فهو لا يتكلم باسمه الخـاص ولا باسم هيئة معينة .. انه يتكلم باسم الملك . وكانت كل كلمـة تخرج من فمه مطاعة ، لا معقب عليها أبدا ، حتى ولو كانت تنضح بالكذب والظـلم والدناءة . فى مرة كهـذه ــ كان الملك يزور التفتيش ، وبالمصادفة تشاجر اثنان من الزراع .. وعلم بالتفاصيل ، ولم يسمح للبوليس بالتحقيق مع الزارعين .. انما أمر بقذفهما فورا الى خـارج منطقـة التفتيش ، بأولادهمـا وبهائمهمـا ، وكل ما يمتلكانه من متاع فماذا لو علم مولانا بأنباء هـذه المشـاجرة أو رآها بالمصادفة .. سيأمر قطعا بنقله ، أو يتهمه بسوء الادارة وفى كلا الأمرين مصيره سيىء وغامض .

وفى لحظات كان المفتش مع الناظر امام الحديقة الخصوصية، يستعرضان حراستها ونظامها كان الخفراء قد تحوطوها من كل جانب بالسلاح ، يمارسون تدريباتهم العسكرية فى زمامها . لكن ثمة انسان مهم لم يأت بعد .. انه عم عبد الموجود خفيرها الخاص .. ورغم كل هذه الضجة القائمة لم يحضر .. انه لايزال يغط فى النوم العميق .. وقطعا هو لم يخبر بقدوم الملك ، فلو علم بذلك ، لرقد بجوار الحديقة من النجمة .. لكن امر القدوم جاء مفاجئا وسريعا .. وعم عبد الموجود لا يسكن التفتيش وانما يسكن قرية مجاورة ، عشش فيها بعد سنوات طويلة من العمر .. والتفتيش لم يختره اخيرا لهذه الحديقة الا بعد تجربة طويلة ، وسمعة طيبة تمتد سنين . ففى صدر شبابه كان عم عبد الموجود أقوى رجل بالمركز كله ، يحمل جوال الأرز الثقيل على ظهره ، ويسير مسافة بعيدة ويرفع النورج بذراع واحدة ويفض أعنف معركة فى لحظات ، فبمجرد ذكر اسمه ، يخاف الجميع ، فذراعه الفولاذية لا يقوى على هزيمتها مخلوق ، وقبضة يده الحديدية يرهبها العباد ، وقلبه الجبار يكتسح أمامه كل الأقوياء ومع هذا فعبد الموجود رجل طيب ، لا يؤذى أحدا ، ولا يعتدى الا اذا اعتدى عليه ، يعرف أسرار المركز كلها ، كالجبل الذى يحتضن الأسرار دائما فى سره ، لا يبوح بها لأحد ، يعرف واجب الاخوة . فكم من مرة ألمت بقريته الأزمات ، وكان هو المنقذ الوحيد . فى مناسبات عديدة ركب حماره الى المركز فى الليل الدامس ليحضر أحد الأطباء لأن فى قريته انسانا يموت . ان هذه الأشياء كلها يدركها المفتش جيدا ، وهو ما اختاره خفيرا الا على أساس هذه السمعة القديمة التى عرفها من أهالى التفتيش .. لكنه الآن لا يهمه من أمر عبد الموجود كل هذه البطولات الماضية .. كل ما يدور فى ذهنه العصبى الآن أن يأتى هذا الوغد الحقير ليعطيه مفتاح الحديقة الخاصة فهو يريد أن

يتجول داخلها ليتفقدها شبرا ، شبرا ويشرف على تنظيف وتلميع طرقاتها . ولكن عبد الموجود الجبان لم يحضر .. آه لو رآه الآن لركله بقدمه فى بطنـــه القــذرة حتى يستيقظ مبكرا ، ويعرف واجبه جيدا .

وفى تلك الأثناء ــ والمفتش والنظار والخفراء يبحثون عن أى أثر له ــ كان هو يرقــد مريضــا فى بيتــه المتواضــــع يئن ويتوجع .. ويسترجع ماضيه العجيب .. لمــاذا ترقد مريضــا هكذا يا عبد الموجود .. ماذا جنيت فى حياتك .. فكلها بطولة ومحبة واخلاص . وانت لم تؤذ احدا ولم تعتد على مخلوق ؟ ! أهكذا جزاؤك ؟ ! . فى شبابك ــ كنت قويا تستطيع ان تدمر أى قوة امامك ــ تطوعت فى الجيش ، وكنت تؤمن بأن عليــك واجبا لوطنك يجب أن تؤديه ، وكان تفوقك على أقرانك .. فكنت لا تكل ولا تتعب من التدريبــات والســهر والعمــل ، تقتحم الصعوبات بقلب جرىء قوى ، عشت حياة الجندية والشظف ، فانضممت الى فرقة الفدائيين الخطرة ، خضت البحر ، ونزلت بالبراشــوت من ارتفاعات شاهقة ، وعشت فى الصحراء والغابات أياما طويلة ، أكلت فيها الحيوانات والضفادع والعشب الأخضر الشحيح .. ثم .. ثم وقع عليــك الدور لتســافر للحــرب يا عبد الموجود .. فلم تضن بنفسك .. ولا قصرت فى تلبية الأمر . بل على العكس انتابتك الفرحة الكبرى لانك ستؤدى واجبك ، وتحمى وطنك .. وتصــول وتجول .. وتثبت كفاءتك .. وكنت فى الميدان كالنمر المفترس تفتك بالاعداء ، لا تهدأ ثائرتك .. تزحف وتجرى وتفجر الألغام ، وتحمى فرقتك من الهجوم كثعلب ماكر قوى .. تطعن اعداءك ثم تختفى ، ثم تظهر ثانيــة لتطعن .. لكن الأيام لم تمهلك يا عبد الموجود .. ففى ليلة كئيبة مظلمــة طعنك أحد الاعداء فى بطنك .. ولكنك لم تنهر .. وانما تماسكت ..

وصبرت وتحملت . فالشديد هو الذى يعرف فى وقت الأزمات..
ثم نقلوك الى المستشفى لتعالج .. وفيها بقيت شهورا حتى تبرأ
من جرحك .. ويوما بعد يوم احسست بالراحة .. لكن ..
لكن قلبك لم يعد قويا جريئا كما كان يا عبد الموجود .. ابتدأت
روح الهزيمة تتسرب اليك ، فالطعنة التى طعنتها قوية وحادة ..
وابتدأت تخاف السلاح الذى تربيت فى احضانه .. ثم كرهت
منظره .. فهو يبثك الذعر والخوف .. وعدت يا عبد الموجود
من ساحة القتال .. وانت منهزم ومنكسر تحمل فى نفسك
غصة مؤلمة .. ونقلوك الى وظيفة ادارية لم تعد تروى غليلك..
تجلس على المكتب طول النهار .. تحس بعطف زملائك ورؤسائك
عليك .. لكنك تكره هذا العطف الأجوف .. انهم يعطفون عليك
لانك ضعيف وجريح .. اما كانوا يقدرونك فى قوتك وجبروتك
وعنفوانك .. ان تلك المعاملة ضايقتك كثيرا يا عبد الموجود ..
فأنت لم تتعود عليها فى حياتك .. انما تعودت على اقتحام
الحياة .. وانت مازلت تنظر الى ذراعيك الفولاذيتين .. وقبضتك
الحديدية .. ثم تتحسر يا عبد الموجود .. هل هزمت بهذه
البساطة ؟ .. وهل لم يعد هناك أمل فى استرجاع قوتك
وعافيتك ؟ .. حتى البدلة العسكرية التى كنت تعتبر ارتداءها
شرفا لك اخذوها منك .. واصبحت ترتدى الزى المدنى الذى
لا يميزك من آلاف الناس الذين يسيرون فى الشارع كالنمل ..
واصبحت المدينة كالشبح الذى يهددك على الدوام
يا عبد الموجود .. ففيها تفتقد العطف والحب الحقيقيين .. وفيها
تشقى فى المواصلات وايجار الشقة ، وغلاء الأسعار ..
وانتابك الحنين الى القرية .. فعدت اليها فبيوتها فسيحة
واسعة تستطيع احتضانك .. وخيراتها كثيرة تفيض بها حقول
الخصب .. ولن تتعذب بطبق الفول ورغيف العيش اليتيم
كل صباح .. وفى القرية ستأكل الخضار والجبن والقشدة ..
وتشرب اللبن الحليب . وعدت الى القرية والشيخوخة المبكرة

تبتدىء فى خط شعرك .. وحتى تحس ببعض الطمأنينـة تزوجت بزكية ، احدى أرامل القرية الطيبـات التى تناسبك فى السن .. وعشت معها ، ثم أنجبت منها ابنتك روحية . ثم بحثت عن عمل تقتات منه .. فكان الذى تعمل فيه الآن .. الخفير الخصوصى للحديقة الخصوصية لجلالة الملك .. لكنك تحس بأن هـذا العمل شرفى فقط .. ليس اساسـه الصحة والعافية .. وانما احتراما لسمعة زمان .. ومع هـذا فأنت راض به مستقر فيه ، قانع بأنه يسد فراغ حياتك .. لكن جرحك يا عبد الموجود ابتدأ « ينقر » عليك نقرا خفيفا منذ أيام .. ثم ازداد هـذا النقر اليوم شـدة واتساعا .. ترى ما الذى جعل الجرح يعاود « نقره » هل لانك تتعب نفسـك فى الذهاب والعودة من العمل ؟ . أم لانك تسهر ولا تعطى لجسدك الراحة الكاملة . ؟ المهم يا عبد الموجود يجب أن تحافظ على صحتك من أجل زوجتك وابنتك الصغيرة .. فأنت تجرى عليهما . وليس لهما سـواك .. لابد أن ترتاح جيدا .. وتذهب الى الطبيب .

وقبل أن يفيق عبد الموجود من استرجاع هـذا المـاضى الطويل أحس بدبيب أقدام مسرعة وعنيفة تطرق بابه ، ثم سرعان ما اقتحمت الأقدام البيت المسكين . كانت أقدام الخفراء والنظار تبحث عن عبد الموجود .. « فالبيـك » المفتش مازال ينتظـر باستياء شديد امام الحديقة الخصوصية انه هنـاك يلف فى المكان كالثور الهائج ، يلعن ويسب عبد الموجود وأيامه ويزعق فى الناظر أن يحضر له مفتـاح الحديقـة من تحت الأرض .. وهو يقف هناك من نصف ساعة .. ومن يدرى ربما شرف مولانا حالا .

انها ستكون مصيبة كبيرة لن يستطيع تحملها .

دفع الخفراء والنظار عبد الموجود امامهم الى عربتهم بقوة وعنف .. ولعنوا تأخره عن موعـده ثم أخـذوا منه مفتـاح

الحديقة .. ولم يلتفت لأنينه الموجع أحد ، كان يضغط بكفه على مكان الجرح من الخارج .

وامام باب الحديقة نزل الجميع من العربة عدا عبد الموجود. وكان الم جرحه قد ازداد .. واخذ يرسل انينا عاليا لا يقوى على مغالبته .. فتحوا باب الحديقة ، وتدفق داخلها الخفراء والمفتش والناظر .. وغابوا بالداخل .. وعبد الموجود قابع بالعربة لا يستطيع الحراك .. ثم خرجوا والمفتش بينهم ، نافش الريش ، يزعق ويلقى بأوامره العديدة ، وفجأة سأل بتحرش عنيد :

— امال فين اللى اسمه زفت الطين عبد الموجود ده ؟

— فى العربية يا سعادة البيه .. بيقول انه عيان عاوز يروح المستشفى .

— مستشفى .. مشتشفى فى عينه .. المجرم .

وتقدم « البيك » المفتش من العربة وهو يغلى من الغضب.. موجها كلامه الى عبد الموجود ..

— انزل يا كلب اكنس قدام البوابة .

— مش قادر يا سعادة البيه .. انا عيان .

— انزل يا كلب .. باقولك انزل ..

وتقدم منه .. ثم شده من جلبابه ودفعه الى الأرض ، ثم ركله فى بطنه وصرخ عبد الموجود فقد شعر أن جرحه القديم ينفجر . ومد يده الى مكان الجرح .. واعترته الدهشة والذهول وهو يشاهد بقع الدماء تلوث أصابعه .. لقد عاود الجرح القديم نزيفه بعد سنوات .. ونظر الى دماء أصابعه ، والمفتش يقف أمامه .. وتطايرت أمام عينيه حوادث الحرب وجلة مذعورة

خائفة .. ولم يتمالك شعوره .. فصمت وهو يكظم غيظه فى حقد . لم يستطع التعبير عن مشاعره .. كان يريد أن يفرج عن نفسه أو ينهنه كالطفل الصغير .. ولكنه تحمل وقد تساقطت دموعه بالرغم منه .

وزعق فيه الناظر :

ـ امشى انجر شوفلك حته اقعد فيها .

وتحامل عبد الموجود على نفسه بعد ان ربط جرحه بشملته الصوفية وقام يجاهد حتى وصل الى بيته لم يخبر زوجته بشىء .. كان يحتاج للراحة .. للنوم .. ولكنه لم يستطع .. كان يكز على أسنانه من الغيظ .. فكيف سكت حين ضربه المفتش الكئيب ، ولماذا لم يواجهه وهو المحارب القديم الجبار ولكن يضربه وحوله الخفراء والسلاح .. وفى بطنه ينزف جرحه .

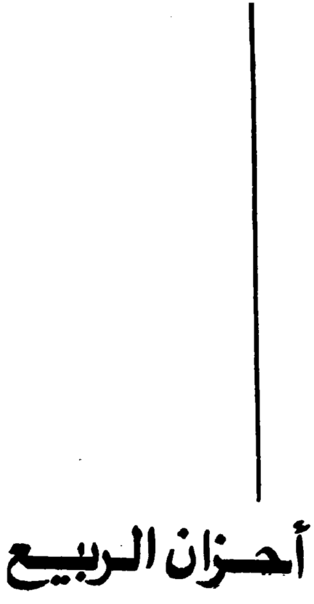
واغفى قليلا..أيام الحرب كانت أيام..كنت يا عبد الموجود بطلا شجاعا يخافك الجميع .. لكنك لم تفقد شجاعتك .. انك مازلت شجاعا ومحاربا عنيدا .. لن يهزمك جرحك .. ولن يهزمك المفتش .. من هو المفتش الجبان .. لو كان شجاعا لنازلنى بمفردى .. لا بل ينازلنى بخفرائه ان أراد .. من هم .. انهم حثالة الخفراء .. أنا .. من انا .. انا فدائى وبطل .. لن ينتزعوا منى لواء البطولة .

ونام .

الآن تقبض يده على بندقيته .. وهو يلمع سونكيه .. انا فدائى وبطل .. أين هو المفتش والخفراء .. آه انهم هناك يهرولون عند الحديقة الخصوصية .. سأجرى اليهم .. وطار اليهم .. وقابله الخفير .. قال له وهو يتوجه اليه بطعنة قاتلة .. انت بتتفرعن على ؟؟ وقابله آخر وآخر .. وهو يجرى

بينهم طاعنا من يقابله .. انهم كالطير الضعيف لا يتحمل الضرب والطعن .. اين هو المفتش .. آه انه هنــاك .. يرتدى بدلته العسكرية الغالية .. لا يهمنى .. ســوف أطعنه من الخلف وانا ازحف .. ولن يرانى احد ، آه ها هو الجبان .. خذ .. خذ يا كلب .. آى .. آى .. آى ..

وأفاق عبد الموجود مفزوعا على صــوت صرخات لا يعرف مصدرها .. وصــدره يعلو ويهبط ، وقلبــه يخفق من الرعب والخوف .. ثم نادى على زوجته يحكى لها ما حدث .. وفى اثناء الحديث كان يغمغم ، ويجــاهد الألم .. وكانت زوجته تبثــه الحنان والشجاعة والطمأنينــة .. تخفى عنه دموعهــا وقلقهــا واضطرابها .. تمسح على وجهه بالمــاء البارد وتعصب له جرحه النازف .. لكنه ينهار بين يديها من آن لآخر فاقدا الوعى .



أحـزان الـربيـع

تأمــلات حزينــة

فى القاعة الكبيرة جلس على مكتبه وسط الزملاء . فى يده القــلم وامامه الورق . فى البداية كان يشــعر بنشــوة غامرة تجتاحه . سوف يتنفس . يمكنه أن يصف ما شاهده بعينيه . الذكريات تنتفض فى قلبه بعد غيبة طويلة ، كالجنين فى بطن أمه يضنيها ، ولكنهــا سعيدة به . الأصوات الخشنة من حوله تلطم أذنيه . رشفات الشفاه تصــله متئدة منتظمــة . اليوم الرابع والعشرون من يناير ، والشاى يملأ الأجســاد بالدف اللذيذ . سمعهم يتبادلون تحية الصباح . فانكمش فى نفسه كمن يخــاف على شيء عزيز يحتمل أن يضيع منه . المبنى يبرز فى خياله . لونه الرمادى يشع فى افقه .. أقدام العساكر تنتظم فى راسه . المدينة كلها كانت تعيش فى توتر وقلق ، لكن روحها عالية .

يا له من يوم صاخب . ترك ابنه فى الصباح بعد أن عانقه . دعت له زوجته أن يحفظه الله . قطع تأملاته الصغيرة الحلوة . انهم لا يريدون منها شيئا . هم يكلفونه بكتابة تحقيق عن المناسبة. جاءه زميل يقول :

ـ والنبى عاوزين العنوان عشان الخطاط .

دهش فى أعماقه . لم يكن يفكر فى شيء بعد . الذكريات مازالت تخطر فى وجدانه كالطيور السابحة . لم تعد تهمه السرعة . فات الحدث وانتهى . ما الداعى الى العجلة الآن ؟ . لتتعطل المطبعة . الذكريات اغلى ما فى الوجود . ونظر الى الأرض فوجدها لامعة . مدهونة بالزيت . تذكر أرض اليوم الخالد . جثث العساكر مطروحة مستسلمة . الدم ينزف منها قنوات صغيرة . البنادق معلقة فى الأذرع الميتة . العيون مفتوحة الى السماء . الأقدام لم تخلع أحذيتها الغليظة بعد .. وزميله عزت ضابط الدورية ينام بينهم . وخبطه احدهم على كتفه قائلا :

ـ انت بتدبج ايه . عندك الأرشيف فيه كل حاجة .

وانتابته رعشة خائفة ، لو فتح معهم باب الثرثرة لن ينتهى. سوف يغرق فى الزيف . بالأمس قضى نهارا تعيسا ، لم يشعر فيه بجديد يهز قلبه . فى الصباح كتب تعليقه اليومى على الأنباء، ثم زاره اكثر من ضيف . وفى النهاية حمل جرائده وخرج . لن يستكين اليوم لهم . سوف يفجر طاقة ذكرياته الى الآخر . آه لو يصبرون عليه قليلا حتى يستعيد الماضى . من حقه ان يتأمل والا يكون عجلة فى هذا الترس الكبير .. انها حياته هو . يود ان يجتر أيامها على مهل . اى انسان يستطيع أن يكتب تحقيقا من الأرشيف ، لكن الحدث يهزه الآن . فى الخامسة بعد الظهر تسلموا الانذار .. كان محل نقاش . هل يسلمون به أو لا ؟ ! هو ورفاقه لم يناقشوا المسألة .. كانوا يريدون السلاح فقط .. ارسلوا البرقيات فلم يستجب لهم أحد . تحدثوا الى الداخلية :

ـ ما هى الأوامر ؟

ـ قررنا عدم الرضوخ للانذار .

ـ نحن نناقش هذا الأمر .

ـ اذن ماذا تريدون ؟ !

ـ نريد السلاح .

ـ سوف نبحث المسالة .

ـ لا مجال للبحث .

ـ الاجتماع لم ينفض بعد .

ـ لا شأن لنا بالاجتماعات .

ـ الأمر خطير ..

ـ نحن نعيش فى قلب الخطر .

ـ المسئولية تقع على عاتقنا .

ـ لا .. اننا سوف نتحمل الهجوم . والدفاع وحدنا .

ـ باقى ساعتان على التنفيذ .

ـ انهم يعيشون على بعد خطوات منا .

وزكمت انفه رائحة الدم القديم فأحس بانقباض مر فى حلقه . ماذا يستطيع ان يكتب ؟ .. فى مثل هذا اليوم منذ خمسة عشر عاما سجل عساكر البوليس وضباطه صفحة خالدة فى سجل البطولة الوطنية .. ففى يوم تلقت القاهرة انذارا من القوات البريطانية المعسكرة فى القنال بتسليم محافظة الاسماعيلية فى مدة اقصاها أربع وعشرون ساعة .. فاذا لم يتم التسليم خلال هذه المدة .. فسوف تستولى القوات البريطانية

على دار المحافظة ، ولن تتحمل القوات اية نتائج تترتب على ذلك الاجراء .. يا له من كلام سخيف .. تكرر على السـنة الصحفيين عشرات المرات .. يجب ان يمتنع عن الكتابـة .. انهـا تجرح الذكريات الدفينة التى تتحرك فى داخله . البطولة ليست كتابة ، بأى حق يكتب عن زملائه الشهداء . وبرزت امامه صـورة زميله ضـابط الدورية كالتمثال المرمرى المتجسد . يمسـك القوس باحدى يديه . والرمح بيده الأخرى .. لا .. ان هـذه الصورة ليست حقيقيـة . لم يكن عزت تمثالا من المرمر . كان انسـانا بسيطا . عندما قابله فى ذلك اليوم ،كان يضحك قال له :

ـ معاك سجاير ؟

ـ معـاى ...

ـ مجيب يا أخى ..

ـ ونا متأخر .

ـ أنا مقبوض يا صابر مش عارف ليه ؟ !

ـ لكن انت بتضحك .

ـ ابدا والله يا صابر . دانا بتوه احزانى بس ..

ـ ايه اللى شاغلك يا عزت ؟ !

ـ اللى شاغل كل المصريين يا صابر .

ـ طب واحنا حنعمل ايه ؟

ـ لا .. لازم نشد حيلنا شوية .

ـ ....

وتاهت كلمات عزت من راسه . دخل الصالة رجل وامرأة . من الواضح انهما ممثلان معروفان .. تطلع الزملاء جميعا اليهما .. نحن فى فصل الشتاء ، والموسم المسرحى على أشده . الجميع يهتمون بالممثلين والممثلات .. ما قيمة بطولة رجل البوليس .. ماتوا وانتهوا ، ولم يبق الا ذكراهم تتردد بطريقة تقليدية ميتة .. ليتنى لم أعش كل مكسبى أن يكتبوا اسمى على صدر الصفحة . وهمس فى سره . ما أتفه هذا العبث ؟ ! . أن تهون علينا ذكرياتنا الى هذا الحد .. وخبطه زميله مرة اخرى :

ـ انت لسه بتدبج . ما قلتلك عندك الأرشيف ..

ـ وجاءه صوت من بعيد :

ـ صباح الفل .

وقال آخر :

ـ يا خوى الواد صابر متبتل فى ايه النهارده ؟ !

وقفز اليه اثنان من الزملاء يسألانه عن سر انهماكه . لم يرد عليهما . بحلق فى وجهيهما وهو لا يرى شيئا ، لكنهما همسا اليه فى مرح :

ـ مالك يا صابر ؟

ـ مفيش والله .

ـ ايه .. اذا كان على الحالة المادية كلنا زيك يا حظ ..

واندلعت فى صدره نافورة من الغضب لم يشعر بها أحد . هذه ليست حياته . انهم يريدونه ضاحكا فى كل وقت . اذا تجهم او بانت على سحنته معالم الضيق ، فهو الثقيل الذى لا يحتمل.

وزكمت أنفه رائحة الدم من جديد . لن ينساه أبدا . انه الطعم الأصيل فى حياته .. هو الذى علمه الشجاعة وحب الوطن . رائحة التجربة أزكى الروائح جميعا . الكتابة لا طعم لها ولا لون ولا رائحة . شبع الناس منها . ملوا الكلمات المنمقة . الصبار نبت وترعرع فوق قبور الشـهداء . زوجاتهم كبرن . واقتربت الشيخوخة من وجوههن . لم يخلعن أثواب الحداد بعد . ووقف أمامه أحد الزملاء فى يده مجموعة من الصور ليختار منها المناسب لتحقيقه . وفرش هو بعض هذه الصور . آثار المبنى المهدم تبين من خلال الأنقاض .. الجثث مطروحة على الأرض .. انها ليست غريبة عنه . يعرف وجوهها الأليفة اليه . كانوا معه صـباح الذكرى . ووراء الأنقـاض بزغت شجرة عالية . مازالت الى الآن أمام دار المحافظـة . مات الشهداء وبقيت هى . ليتـه يرمى بالأوراق أمامه .. ويجرى الى هنـاك .. حيث انطلاق الروح والقلب . وهمس من أعماقه .. ليتنى أعود ضابطا للبوليس . الصحافة لا تفيد .. سئمت تعليقى اليومى على الأنباء . أقفز من بلد الى بلد لاتابع أخبـاره من خـلال الجرائد والمجـلات . أروع شىء أن أتابع ذكرياتى وهى تنمو وتزدهر . الشجرة العاليـة تحن لى وأنا أشتاق اليها ، أريد أن أعيش هنـاك بجوار المـاضى . كانت أياما خصبة . ونظر الى مجموعة الصـور . انه لا يمتلك الآن غير هـذه التأملات الحزينة . أمسك الصورة الأولى وقلبها. وقرأ . مبنى المحافظـة قبل أن ينهار ، ومدافع الانجليز مصوبة نحوه . والصـورة الثانية ، لقطة فريدة أخذها مصورنا لحظـة انهيار المبنى . والثالثة ، جثث الشهداء بعد الهجوم . وهكذا . اذن استقرت المعركة فى الأرشيف .. أصبحت مناسـبة يكتب عنهـا فى كل عام . لمـاذا يثيرون ماضيه بهذه الطريقـة ؟ ! انه الجوهرة المكنونة فى نفسه . لا يحب أن يعتدى عليهـا أحد .

وجه عزت يملأ وجدانه محبة .. يناجيه كلما تعثرت به الأيام او واجهته المشاكل . لا بأس أن يستشيره الآن :

ـ صباح الخير يا عزت .

ـ صباح الخير يا صابر .

ـ ازى الأحوال ؟

ـ كويس .

ـ يعنى ايه ؟

ـ كويس وخلاص .

ـ ازاى ؟ !

ـ الانجليز طلعوا مش كده ؟

ـ آه .. ايش عرفك ؟

ـ أنا عارف .

ـ أنا متضايق يا عزت .

ـ ليه يا اخى ؟

ـ تعبان يا عزت .

ـ ونا راخر تعبان يا صابر .. حد مستريح !!

ـ وحشنى جدا ..

ـ وانت راخر .. والله ..

ـ نفسى اشوفك .

ـ مانا باتكلم معاك اهوه .

ـ لأ نفسى أشوفك واقعد معاك على القهوة ، ونشرب شاى مع بعض ، ونلعب شطرنج زى زمان .

ـ ياريت يا صابر .

ـ كنت عاوز أقولك حاجة .

ـ خير ان شاء الله .

ـ حاجة خاصة كده .

ـ قول بس .. احنا بينا وبين بعض كسوف .

ـ اصل هنا طالبين تحقيق عن ..

ـ عارف .. اعمله .. لازم تشارك بقلمك زى ما شاركت بسلاحك .

ـ صعبان على يا عزت .

ـ يا أخى خد الدنيا سهلة .. المسألة بسيطة ..

ـ يا عزت صعبان على قوى .

ـ ....

واختلجت عيناه بالدموع ، فقام ورش وجهه بالماء ، ثم جففه بمنديله . كان يود أن يهرب بنفسه الى أى مكان يشعر فيه بالطمانينة . لم يعد قادرا على تركيز افكاره المبعثرة . عواطفه المنسابة تهز كيانه . وعلى السلم وهو نازل الى الخارج أحس انه يتخلص من حمل ثقيل كاد أن يخنق صدره .

الصبى والصياد

فى تلك اللحظة ادرك عطية أن كل الحيل فاشلة لمواجهة المعلم . فى البداية تلكأ كأنه لم يسمع ، فانهالت الشتائم على راسه . كتم غيظه فى داخله حتى يقول « حاضر » فلم يستطع . جاءته فكرة ، أن يهدد بالبكاء ، ولكن ما الفائدة ؟ ! والبكاء نفسه يجلب الضرب ، والضرب يؤلم ، والألم يجعله يقول « حاضر » من جديد ! . سكت والدموع لا تحاول الفرار من عينيه الجميلتين الصغيرتين . تسلل الغضب الى قلبه ، فبانت صفحة وجهه كسطح اللبن الأبيض عندما تعلوه نتف الغبار العابرة انحرف بعيدا عن المعلم حتى لا يرى سحنته المغضنة العجوز . انه الذى علمه الصنعة . رحب به فى اللقاء الأول . قال لأمه وهى تسلمه اياه :

ـ هذا الولد فى عينى ، اطمئنى عليه .

وامام المنضدة السوداء وقف يتعلم . كشف الأسرار ما عدا التاء المربوطة ، يا للفظ التعس ، انها نفس التاء المربوطة هى التى تسبب له المشكلة الآن . فى الصباح قال له المعلم :

ـ اذهب الى المسبك لتحضر نصف كيلو تاء مربوطة .

رد عليه فى فرح :

ـ حاضر يا معلم .

سوف يخرج الى الشارع . ربما قابله صديق قديم معه قرش . ما احلى ان يشترى به سيجارة ليدخنها كأحسن رجل . أكلته قدماه ، تستحثانه للجرى والشقاوة . المسافة طويلة ، يمكن أن يغيب خلالها ساعة ، ولديه الحجج . لن يطلب منه ثمن المواصلات حتى لا يطالبه بالعودة سريعا . ولكن المعلم عاد وقال له :

ـ المسبك بعيد . أجل حكاية التاء المربوطة . خذ ثلاث صفحات من كتاب الصياد والبحر ، واقعد اشتغل .

غضب من أعماقه لهذا التغيير المفاجىء ، لكنه قال :

ـ حاضر يا معلم .

وأمام خانات الحروف الصغيرة ، أخذ يرتبها ، ويبحلق فيها بعينيه الكليلتين . وقبل أن يجمع كلمة واحدة ، قرت عيناه على أسطر القصة بالكتاب . وبدأ يقرأ .. وذهب الصياد العجوز الى البحر كعادته . جلس القرفصاء على الرمال الناعمة ، وألقى ببصره بعيدا عن الأفق . رأى الشمس وهى تحاول الشروق . مرت من فوقه طيور البحر المهاجرة . وتوقف عطية عن القراءة . سرحت خواطره مع الصياد العجوز . تخيل البحر الواسع الفسيح . اشتاق لرؤية طيور البحر الجميلة . تمنى أن يطير الى هناك حيث الهواء والشمس والسمك ، لكن حروف الرصاص الصغيرة تضيع فى خاناتها المتعددة تنتظر اصابعه للجمع . وصوت المعلم لا يكف عن الأوامر :

ـ اسمع يا عطية ، كم سطرا جمعت ؟ !

ـ لم اجمع شيئا .

ـ اترك ما فى يدك ، وتعال اشتر لى سجاير .

ـ حاضر يا معلم .

وقفز الى الشارع . القروش فى كفه ، والصياد والبحر يعيشان فى قلبه . سوف يعود اليهما حالا . يا لها من حياة حلوة . ليته عمل صيادا حتى يرى البحر والطيور والشمس المشرقة . مكان المطبعة لا يدخله النور ابدا ، يعشش فيه العنكبوت . وجه المعلم الكالح لا يكف عن النظر اليه . يراقبه فى كل لحظة . ومن عند البقال خطف السجائر ، ثم عاد يواصل الرحلة . شعر الصياد بنسائم لطيفة تداعب وجهه . القى شبكته وانتظر قليلا ، ثم شد الحبل . لم يخرج له شيء الا بعض القواقع الفارغة . لم يغضب الصياد ، بل دعا الله أن يرزقه فى المرة القادمة . مر عليه طفلان فوقفا بجواره يتأملان الصيد . دعاهما الصياد للجلوس بجانبه . كان الصياد العجوز يتفاءل بالأطفال . الصياد العجوز رمى شبكته فى البحر مرة أخرى . انتظر وهو يبتسم للطفلين فى حب ومودة . ليته احد هذين الطفلين . لم يبتسم له المعلم مرة واحدة . ليس فى لسانه سوى الشتائم والأوامر ، هات .. خذ .. اذهب .. تعال .. لا تتأخر .

وعاد الى القراءة ، الصياد العجوز كان طويل القامة ، أبيض الوجه ، له لحية كثة كالشيوخ الأتقياء ، حلو المعشر والحديث . الصياد العجوز كان ينتظر الشبكة وهو يبتسم للطفلين . وغرق عطية هو الآخر فى الانتظار ، لكن المعلم انتزعه من عالمه اللطيف :

ـ كم سطرا جمعت يا عطية ؟ !

ـ لم اجمع شيئا .

ـ لماذا ؟ !

ـ احاول قراءة القصة كلها اولا ..

ـ ومتى تبدأ الجمع أيها الكسول ؟ .. يابن ....

ـ حالا يا معلم ...

ـ سمعت منك حالا هذه مائة مرة .. انت تعرفنى ...

ـ نعم يا معلم ..

ـ هل تريد أن أضربك للمرة الرابعة اليوم ؟ !

ـ لا يا معلم ...

ـ طيب ما الذى يعطلك ؟ !

ـ لا شىء ...

ـ يابن ....

وبسرعة مرت عينا عطية على الأسطر واكمل .

وخرجت الشبكة فارغة فى هذه المرة أيضا . ضحك الطفلان ، فابتسم الصياد العجوز عن رضا . انه يعرف البحر . لا يعطى خيراته بسهولة . لابد أن يتعب وان يصبر حتى يفوز بالصيد الوفير . وأرخى الصياد العجوز شبكته للمرة الثالثة . ولم يصبر المعلم حتى يعرف عطية النتيجة .

صاح فيه بضيق شديد :

ـ هل بدات فى الجمع يا عطية ؟ !

ـ لم ابدأ بعد يا معلم .

ـ يابن الحـرام ..

وتقدم منه ينتزع الكتاب من يده .. قال له فى حدة :

ـ دع القصة واذهب الى المسبك لتحضر التاء المربوطة .

وانهار عطية . المعلم يعود الى طلبه الأول ، لكنه الآن يعيش مع الصياد ، العجوز والبحر والطيور المهاجرة ، لا يستطيع مفارقة الرمال الناعمة والشمس المشرقة ، وهو يعرف المعلم جيدا .

فى تلك اللحظة ادرك أن كل الحيل فاشلة لمواجهة المعلم . تلكأ فى البداية وكأنه لم يسمع . فانهالت الشتائم على رأسه . كتم غيظه فى داخله حتى يقول : حاضر يا معلم ككل مرة ، فلم يستطع . جاءته فكرة أن يهدد بالبكاء ، لكن ما الفائدة ؟ والبكاء نفسه يجلب الضرب ، والضرب يؤلم ، والألم يجعله يقول حاضر من جديد . سكت والدموع لا تحـاول الفرار من عينيه الجميلتين الصغيرتين . تسلل الغضب الى قلبـه ، فبانت صفحة وجهـه كسطح اللبن الأبيض عندما تعلوه نتف الغبار العابرة . كان قلبه ينبض بحيـاة الصياد العجوز وهو ينتظر الشبكة ربما تحمـل له سمكا كبيرا .

لقاء الرجـل المهم

والآن جاءت الفرصـة التى عذبتـه طويلا . سـنوات وهو ينتظرها ، لكنها لا تحين . طوى مرارته فى نفسه بعد أن يئس منها تماما . وفجأة تدب الحياة فى روحه كمـا يتحرك الجنين فى بطن امه العاقر القنوط .. شعر بحلاوة الأمل تسرى فى كيانه . عـاد بسلامة الله الى أرض الوطن السيد .. رئيس .. بعد أن نجحت العملية الجراحية الخطيرة .. لابد ان يخطط لمشروعه جيدا .. عشرات الموظفين والمعارف والأهل يرقدون عنده فى هذه الأيام .. لا يريد أن يفعل كالآخرين . لابد أن ينفرد به . تجربتـه تؤكد أن الرؤساء شبعوا من المدح الرخيص ، اذن لابد أن يغير ، ان يبتكر وسائل جديدة . باقات الورد أصبحت قديمة .. وعلب الحلوى اقدم .. الجديد أن يذهب بدون شيء . هـذا يلفت النظر أكثر . المهم فى الكلمـات والجمل التى ينتقيها فى الوقت المناسـب .. وحشتنا .. كلمة أخوية لا تليق . لم نكن نعرف الطريق دونك .. عادية .. كنا يتامى .. لا بأس بها .. من المستحسن أن يأخذ وضع الكلب الضعيف أمامه ، يهز له ذيله تحيـة ومودة وترحيبا .. الانسان فى مجتمعنا يقلد الحيوانات الأصيلة .. نحن نستعير

عاداتها لنزيفها . ما ذنبه ؟ كلهم عرفوا الطريق .. وهو الذى تأخر عنهم .. اشعل سيجارة ليتأمل الموقف الشامل . كفى ذلك الوقت الضائع المبدد . لابد ان يأخذ خطوة ايجابية .

قام من سريره منتعشا . سوك أسنانه بالفرشاة ليتفادى روائح فمه العادية . حلق ذقنه ذات الشعر النامى . وجهه مقبول فى المرآة . لماذا اذن لا يجد حظه كالآخرين ؟ . انهى زينته بسرعة . لا عمل اليوم . من يحاسبه وهو الذاهب الى راس الكل الذى تقبع عنده المشاكل فى النهاية . ارتدى ملابسه وهو يشرب الشاى . خرج من بيته يفكر فى الأمنية اللذيذة . مقابلة رجل مهم تعطى الانسان فرصة الحياة الطويلة السعيدة . ظلال من البهجة تستلقى على روحه المشبعة ببقايا الملل . ليس الأمر بسيطا كما يعتقد . كيف ينتزع نفسه من مشاكل الحياة اليومية ليعيش فى انتظار استقباله ؟ . لقاء الرجال المهمين يحتاج لاستعداد خاص .. شىء صغير ودقيق ربما يعكر صفو اللقاء العظيم . نأمة غضب من جراء ذبابة صفيقة تقلب الوضع ، قهوة غير مضبوطة ، أو رؤية وجه تعود على المشاكل يضيع الفرصة . الحذر ينجى ، والتراجع يفيد . أحسن حالة ، حالة الكلب . ومن خلال الجو يستطيع أن يهمس ويشى ويلمح بما يريد . طبعا سوف يسأله :

ـ هه .. كيف الحال ؟ !

ـ رضا ..

ـ مبسوط ..

ـ جئت لزيارتكم فقط ..

ـ اسألك عن العمل .. هل هناك متاعب ؟ !

ـ لا متاعب ما دمتم تديرون شئونه .

ـ سمعت عن ضيقكم منذ عام .

ـ جئت لزيارتكم فقط ..

ـ خطواته تقترب من الفيلا الأنيقة فى الشارع الساكن . الحياة هنا عتيقة . لا صدام سيارات ، لا حواة فى المنحنيات ، باعة الطرشى يختفون ، البسمات شحيحة ومبتسرة . البوابون السود يفترشون السفح ، والسادة البيض يعتلون القمم . نادرا ما يسمع الانسان ضحكة من القلب ، أو انة عالية من الأعماق . الناس فى الشوارع الأخرى يشتمون بعضهم البعض ، يتصارعون فى العلن ، يمسكون برقاب بعضهم ، قد يذهبون الى أقسام البوليس ، لكن قلوبهم نظيفة وارواحهم طاهرة . يبدو أن الصراع هنا مكتوم ، يتم داخل الجدران . الآن يعرف أسرار الرجل المهم .. كلما طلب منه واحد مطلبا ، قال له :

ـ غدا .. بعد غد .. انت تعرف الصعوبات التى تواجهنى .

لم يعد يحب الناس الناعمين ، انهم يفكرون فى الخروج من المأزق ، ولا ينفعلون كثيرا ، ولكن قدميه تقودانه اليه . ليته ذهب مع زملائه .. لكنه أراد أن ينفرد به .. أيام سبعة وهو يضع الجريدة بجوار سريره . يعيد خبر عودته ، وكل يوم يفكر ، غدا تخف الزيارات ، بعد غد ينتهى الأقارب .. كل تأخيرة وفيها خيرة كما يقولون .. ربما لا يصل الى هدفه فى هذا اللقاء ، لكنها فرصة عاطفية لابد منها حتى اذا عاد الى العمل يفتح معه الموضوع بالتفصيل . انه يستطيع أن يرسله للتفتيش خارج القاهرة .. أو يكلفه بالسهر فى اعداد الميزانية .. أو يطلب منه

تقريرا ما .. وفى هـذا زيادة فى المعلوم .. قامته الطويلة يمكن أن تدر عليه الخير . عيناه المتوهجتان تشعان النور .. يداه تنزلان المطر النادر فوق أرضـه العطشى الجافة ، وعلى باب الفيـلا تلكأ وهو يدخل الحديقة الصغيرة ذات المقاعد الخشبية تذكر المـاضى . كان يريد دخول المدرسـة الأميرية بعد تعب من المدرسة الأهلية. اشتاقت نفسه لوجبة الطعام الشهية . وفى حديقة كهذه جلس هو وأمه ينتظران . كانت تكرر الأوراد وسـورة يس ، وتغفو من أثر السهر . أوصته أن يقف حين قدوم (البك) وأن يقبل يده بأدب . لن ينسى وجهه الأحمر المتورد . شعر نحوه بحب غامر ، سوف يحقق حلمه فى دخول المدرسة الأميرية . أخذه من يده الى حجرة الناظر مباشرة ، ثم خرج وفى يده الكارت . وفى دقـائق كان بجوار زملائه فى الفصـل .. من يومها وهو يخشى الحدائق الصغيرة .. يحس اذا جلس فى احداها .. انه فى حاجـة الى شيء ما . وها هى المواقف تعيد نفسها بعد زمن طويل . تخير أريكة خشبية وجلس عليها حتى لا ينفرد بمقعد واحد . كان يترقب خروجه . رائحة الفل والياسمين حلوة زكية تعطر انفه .. ألوان النباتات تزهو فى عينيه .. قطرات الندى تترك آثارهـا الشفافة على الأوراق الخضراء .. الكلب الأبيض يتمدد بجوار كشك البواب . حزن من أجل نفسه ، أن ينتظر الانسان رجـلا مهما بدون ود سابق شيء صعب للغاية ، ولكنـه قرر أن يخوض التجربة . انه الآن يتعجب من أفكاره المـاضية . لمـاذا لا يرفع قامته فى وجه كل الصعاب ؟ ! وفجـأة قفز الكلب نحو الباب الداخلى . حانت اللحظـة الحاسمة .. اضطرب داخله . لا يدرى من أين يبدأ ؟ . عينه على الكلب ليرى كيف يتصرف ؟ . قـام مسرعا نحو السلالم العالية . لم يستطع أن يقترب منه . حياه بكلتا يديه من بعيد . بسمة عريضـة جوفاء تتملكه .. تقترب من الضحكة الهستيرية .. ما الذى أصابه ؟ ! .. الكلب يهز ذيله

فى فرح وحب لاستقبال سيده .. يتمسح فى حذائه وسترته . حاول أن يفك الحصـــار المفروض حوله ، فخاب مسعاه .. غام الضوء فى عينيه .. ضاعت رائحة الفل والياسمين من انفه .. ابتدره الرجل المهم بقوله :

ـ هه .. كيف الحـــال ؟ !

وفكت عقدة لسانه بصعوبة بالغة :

ـ الحمد لله ..

ـ سمعت ببعض متاعبك فى العمل .

ـ جئت لزيارتكم فقط .

ـ شكرا .. لكن العمل لابد أن يسير بنظام .

ـ الحمد لله على السلامة .

ـ هل فرغتم من عملية ؟ !

ـ متأخرة قليلا .

ـ ومتى تنتهون منها ؟ !

ـ بعد أيام .

ـ والجـــزاءات ؟ !

ـ جئت لأطمئن عليكم .

وساد الصمت بينهما . الرجل المهم يقف فى أعلى السلالم . يتمسح الكنب بقدميه ، وهو فى المنحدر .. معقود اليدين ، يبحث عن منفذ للحـــديث .. فتعز عليه الكلمـــات ، يشعر بالبرودة تسرى فى جسده ، أطياف اللقاء المنتظر تفر من خياله ، أحجار السلالم هى التى تصـــدم عينيه .

احــزان الربيــع

لم استطع انتزاعه من عالمـه .. ظل يرفرف حولى كالفراشة الوادعـة الحنون . يلقى الى بتباشـير ثمر الفراولـة القرمزى الجميل . استقبلنى فى حياء وترحيب واعتذار .. لا ادرى سر هذا الصمت الدفين الذى انتابه فجأة . فى كل مرة كان يسعدنا بنكاته وقفشاته الطريفة الحلوة ، لكنـه اليوم هادىء كالطير .. عميق كالبحر .. صوته منخفض الى حد الضعف والاستسلام .. قلت له من باب الاطمئنان :

ـ مالك يا عبده ؟

قال وكأنه يطرد بعض الأشباح السقيمة :

ـ لا شىء .

ـ انى اعرفك جيدا . ليست عادتك أن تسكت .

قـال :

ـ الدنيا افعالها غريبة .

ـ هل حدث جديد ؟ !

ـ لا ...

ـ فرفش يا أخى .. لا تحملنا الهم .

ـ ربنا يصلح الأحوال .

كان الربيع على الأبواب ، وايام الشتاء الأخيرة تودع الأرض والشجر والانســان ، وتلقى اليهم بتحيتهــا التقليدية النقيــة السريرة .. ان كل عام وانتم بخير ، والشتاء القادم يعود اليكم وانتم اكثر بهجة ونقاء . ثمة شــعور جارف كان يهزنى ، أن أقوم لأحتضن اشجار البرتقــال واليوسفى ، وأن ألمس بخدى اوراق الكرنب الخفيفــة الزرقة .. هنا اللون الواحد له عدة الوان ، ولكن اهم الألوان جميعا هو الأخضر . انه يبهت ويدكن ويصفر ويزرق حسب اللوحــة التى يتناسق فيها . كانت الأرض حبلى بأشجار البسلة والثوم فى آخر أيام نضجها . وعلى حواف القنوات تتغطى الطماطم بالقش حتى تتغلب على الليالى الباردة . ان اللحظــة لا تتكرر بسهولة ، فالى جانب هــذا الخير الوفير تتطلع الينا الأبقار والجواميس والكلاب .

قلت وانا اخبط ساق العنبة الملتفة التى تستعد للانتعاش :

ـ بعد كام سنة تطرح المــانجو يا عبده .. ثلاث سنوات ؟

قال وهو بعيد عنى يمسح ظهر حماره :

ـ ليس فى كل الأحوال .. ربما ثلاث سنوات أو سنتان .. أو شهور .. حسب الشتلة التى تضعها فى الأرض .

ـ هل عندك شجرة مانجو .. ؟

وسكت وقد قهره نوع من الهروب الضجر .

قلت لأفتح بابا مثيرا للحديث :

ـ هل علمت بمقتلَ خديجة ؟

اشاح بيده فى شبه ياس :

ـ علمت .

قلت :

ـ ترى من قتلها ؟ !

قال :

ـ الله أعلم .. أولاد الحرام كثيرون .

ـ يقولون ان القاتل قصد سرقة صيغتها .

ـ لا ينفع المال الحرام ابدا .

ـ قبض البوليس على ابنها .

ـ ولد شرير .. له حوادث كثيرة .

قلت :

ـ نحن نعيش فى آخر زمن . يقتل الابن امه فى سبيل ذهبها .

ـ قال :

ـ لم اكمل لك قصة عود المانجو .

ـ آه والله يا عبده .. فرفش ولا يهمك .

قال وابتسامة شاحبة على شفتيه :

ـ نادر هذا العود فى منطقتنا كلها .. انه من النوع الهندى الممتاز .. حبته تزن كيلو وزيادة .

قــلت :

ـ هل أطعمك الله منه يا عبده ؟ !

قــال :

ـ ظل عشر سنوات عاقرا . حاولت ان اعرف ضعفه ، فلم استطع .. واخيرا بعد ان يئست ، فاض بالبشرى .

قــلت :

ـ هل دفنوا خديجة .. او سوف يشرحون الجثة ؟ !

وقال وقد ظللت الطمأنينة وجهه :

ـ لا اعــرف ..

ـ لم يعد فى الدنيا خير .. هذا زمان الشر .

ـ ولد عاق صحيح .. يقتل البطن التى انجبته .

وغصت فى عينيه أحاول ان أستشف قلقه . كانت عينــاه قلقتين مضطربتين تزوغان فى كل ناحية . قعد بجوارى على غير توقع .. امسك عودا من الحطب يرسم به خطوطا مبهمــة على الأرض .. وبين الحين والآخر يرفع راسه الى السماء ثم يخفضها متلصصا الى بنصف عين .. قال هاربا من شيء يضنيه :

ـ ليس هناك مثل المــانجو فى الحلاوة .

وانتفض واقفا يشير الى الكلب الصغير بجوارنا :

ـ اتعرف هذا الكلب ؟ !

قــلت :

ـ مالــه ؟ !

قـال :

ـ له قصة غريبة .

ـ اشتقت الى قصصك يا عبده .

ـ عجيبة حقـا .

ـ ما هى ؟ !

ـ امه تحضر له الطعـام كل يوم من بلد بعيد لا نعرف اين يقع .

ـ يمكنكم أن تسيروا وراءها .

ـ اذا عرفت اننا نراقبها عادت من طريقها .

ـ وماذا تحضر كل يوم ؟

ـ رغيفـا واحدا فقط .. من الصـباح المبكر تختفى عن اعيننا حتى اذا جاء المساء رأيناها قادمة وفى فمها رغيف من الخبز الجـاف تضعه امام ولدها ، ثم تظل تلهث الى أن تستريح .
ونظر حوله فى ذهول غامض ثم قال :

ـ تأمـل !

قـلت :

ـ غريبة .. عندك حق .

ماذا يقصـد عبده ؟ هل يريد أن يضللنى ؟ ! انـا اعرف وفاء الكلاب .. ولكنـه ينتقل من موضوع الى آخر ، وحمله لايزال فى باطنه لا يريد التخلص منه .

وعودت سؤالى عليه :

ـ مالك يا عبده ؟ !

ـ لا شيء .

ـ قل .. لا تخف .. انا اخوك .

ـ والله لا شيء .

ـ متى يدفنون خديجة ؟

قال وقد أشاح بوجهه بعيدا :

ـ لا اعرف .

ـ علمت انها قد تبيت الليلة انتظارا للتشريح .

ـ ربمـا ...

وتمـددت على الأرض . كانت الصـفرة تلون الكون من حولى .. تجاهد اللون الأخضر وتحيله الى مذنب يود الفرار من مصيره . لم أتعود هـذه التعاسـة من عبده .. كان فى كل مرة يملأ الأرض بهجة ومودة وسرورا .. يقلد اصـوات الحيوانات والطيور بقدرة خارقة ، يمشى على قدميـه وساقيه كالقرد ، يخبز ويعجن ويمشى مشية العجوز ويتمخطر مخطرة العروس .. ابن نكتة ومزاج .. الضحكة العالية الدافقة دائما فى فمه ، والبشرى أبدا فى طلعته . عندما تفرغ قفشاته ، يظل يضحك بدون سبب الى أن يعجبنا استهباله ، فنضحك نحن الآخرون ، فيظل يضحك ونحن نضحك الى أن يهدنا التعب . أهى عين أصابته ؟ ! فأخرست فيه المرح وفيض الأنس والطرب ، أم هو عارض مؤقت ، سوف يزول ، فيعود الى حالته من جديد . كان التخمين بأى شيء عسيرا جدا ، فنفسه الصـافية النقية لم تكن تتحمل الضيق والأزمة ، ولكنه الآن ، وياللغرابة يجدف ! . مرة تهزه النشـوة كالأوزة

السابحة فى المـاء ، واخرى يقيم وراء سحاب خادع لا نعرف متى يمطر ، ولا أين ينزل قطراته ؟ ! ما هـذا الخبث المفاجىء الذى لفه بين ذراعيـه ؟ أين الصراحة الحمقاء والقلب الطيب الرقراق ؟ أين أيام السمر للصـباح ؟ وصـوته الأصيل الحلو يشجينـا ويمتعنا ويؤرقنا فى آن واحد :

ـ امانة يا طبيب المبالى هات لكل جرح دوا ..

وغامت الشمس وراء السحاب فتسللت الى نفسى خشـية واجفة .. ما زالت المسافة طويلة بينى وبين عبده . كلما اقتربت منه ازداد بعدا .. لا ادرى لمـاذا ؟ امنيتى فى هـذه اللحظـات أن يعود الى صورته القديمة . وحشتنى خفة ظله اللطيفة . حقا انه يخطر حولى وديعـا حنونا ، ولكنـه فقد انطلاقـه وتدفقه الانسانى الذى عرفته به من زمان . يستحيل أن يتغير الانسـان بمثل هذه السرعة .. آه لو اعرف سره الدفين ؟ !

لقد تحول صمته وهروبه وخبثه المفاجىء فى نفسى الى هم ثقيل لا أستطيع الخـلاص منه . من ينقذنى من غمى وكآبتى ؟ كنت اريد أن أفرح بتباشير الربيع القادم ولا أريد أن يتحول فى قلبى الى أحزان كئيبة .. فعندما يتنفس الانسان ملء رئتيه هواء نقيا منعشا يصعب عليه أن يكره مخلوقا .. تعطينى الأزهار والثمار وجداول المياه وأوراق الأشجار وجذوعهـا والمساحـة الخضراء المنبسطة حبا كبيرا ، لا يفتر فى قلبى ، حتى فى أشـد حالات الضياع والسخط . ضاعت الابتهاجة الأولى من نفسى ، لكن اثرها مازال باقيا ، كالمسـك ، احاول الاحتفاظ برائحتها العطرة . هـذا التيه الزاخر لا يعطى اسراره الا لمن يحسـنون الشعور به .. متى يعطينى عبده سره ؟ !

قلت واليأس يتجسد فى اعماقى:

ــ هل ذهبوا ليحفروا القبر فى الجبل ؟ !

قــال :

ــ ذهبوا او لم يذهبوا .. لا ادرى .

ــ يقولون ان ابنها قد ضرب كثيرا ليعترف بالقتل .

ــ ضرب أو لم يضرب .. ما شأنى ؟ .

ــ وجدوا طاقيته بجوارها .

قال واطياف سوداء تلوح أمام عينيه :

ــ لمــاذا تصر على هذا الموضوع ؟ . انى أتشاءم من سيرة القتــلى .

ــ قــلت :

ــ فقط تضييع للوقت ما دمنــا لا نجد شيئا نتحدث فيه .

قــال :

ــ احاديث الأحياء كثيرة .. قلت لك ان ذلك الولد شرير، ولابد أن يأخذ جزاءه .

ــ دعنا من حكاية خديجــة .. قل لى حكاية مسليــة ، او نكتة طريفة .

لكنه عاد الى تجهمه من جديد :

ــ ليس فى جعبتى اى نكات اليوم .

ــ حلها يحلها الحلال .. لا تعقدها ارجوك .

ـ ياريت يحلها .. ملك منظمه سيدك .

قـلت :

ـ لقد وجدوا الصيغة مدفونة فى غيط السنباطى .

قـال :

السنباطى رجل طيب ، لا يحب المـال الحرام .

ورف فوقنا سرب حمام . كان يهدل بأغنيـات عذبة كاللبن الحليب .. يحوم فى السماء كقطع الكريستال الأصيل ، تعكس ضوءه اشعة الشمس الواهنة المحتجبة .

وتمتم عبده ببعض كلمـات تعبر عن وحدتـه او غربتـه المضنيـة :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

وتمطى الكلب بفتور ، فاتحا فمه اللاعق المجوف الجوعان.. وطردت ذبابة سخيفة حطت على وجهى بصفاقة . ونهق الحمـار مدشدشا الهواء من حوله .

كنت اتمنى أن يخرج لى ملاك من بين اشجار البرتقـال او اليوسفى او الكرنب ليهمس فى اذنى بسره .. لم اجد مفرا من طلب الشاى ربما انفتح باب آخر للحديث ، فقلت :

ـ عندك شاى يا عبده ؟

قـال :

ـ شاى وحلبة وقرفة .. اطلب ما تشاء .

ـ اريد شايا .

ـ سوف احضر لك العدة وتتسلى فى عمله .

ـ انا اريده من يديك .

ـ بالنعناع ؟

ـ يا ريت .

وقعدنا نرتشف الشاى فى آخر ايـام الشتاء . طعمـه مر كالعلقم . لونه اسود كسواد الليل . لا اثر فيه للنعناع او السكر . كدت اصيح فى وجهه :

ـ عذبتنى يا شيخ .

وكأنه ادرك ضيقى وصبرى الذى يكاد ينفد ، فهمس وهو يحتضن كوب الشاى الدافىء بكفه :

ـ فى بعض الأحيـان يحب الانسان أن يفضفض ، ولكنـه لا يستطيع .

ـ يا عبده انا اخوك .. قل ما تشاء .. وثق أنك تلقيه فى بئر عميقـة .

ـ لم تعد هناك امانة فى الدنيا .

ـ هل تشك فى نواياى ؟ !

ـ ابـدا .

قـلت :

ـ طيب .. بحبح ولا يهمك يا اخى .

ـ الدنيا كلها شرور ..

ـ ولكن فيها بعض الخير .

ـ شرها كثير وخيرها قليل .

ـ اصبحت فيلسوفا يا عبده .

ضحك بطرف لماح وقال :

ـ منذ خلقنى الله وانا فيلسوف .

ـ ولم قلبت فلسفتك من المرح والأنس والطرب الى الغموض والمراوغة والخبث ؟ !

ـ مرض مفاجىء ربما شفانى الله منه .

وحط علينا نحن الاثنين صمت كئيب . كتمت انفاسنا حيرة غريبة مذهلة . اختفت شعاعات الشمس الواهنة المتحجبة تماما .. ضاعت امنيتى فى ان ألمس أوراق الكرنب الزرقاء بخدى . تبخرت حلاوة الربيع القادم من قلبى .. طار سرب الحمام بعيدا عنا .. خذلنى عبده فلم أعرف سره .

انتظـــار

فى النهاية لم أجد الا قوقعتى أستعطفها .. كادت تغضب ، وتأخذ على خاطرها لولا أننى قلت لها :

ــ هؤلاء الأصدقاء يحتفلون بى .. ومن عــدم اللياقة أن أرفض دعوتهم ؛ انه احتفال صغير يجدد المودة فى النفس . فماذا ترين ؟

قالت وهى تدارى ضيقها :

ــ سوف تثرثرون وتضحكون .. وبعد ؟ !

ــ يعنى .. ساعة أو ساعتان من باب المجاملة .

ــ انت حر .. أفضل أن تبقى معى .. تقرأ كلمتين .. او تتأمل صورتين :

وعندما قابلت الصديق الذى كان ينتظرنى قال لى :

ــ موعدنا معهم فى السادسة .. والآن لا تتجاوز الخامسة.

ـ اذن نستطيع ان نتمشى على النيل .

عند كوبرى الملك الصالح كان الناس يحتشدون على سوره ، وفى منحدر جسر النهر . صفان طويلان ينتظران انتشال الجثث الأربع . عشرات العيون تتطلع الى المياه المـائجة بلا جدوى . ان الفاجعة لا تهزهم ، ولكنـه المصير النهـائى المشترك للانسان الذى يحرك فضـولهم . اربعة من الصبية خرجوا من بيوتهم الكئيبة صباح الجمعـة ليلعبوا فى المدينـة ، فاستهوتهم رحـلة قصيرة فى المـاء لم تتم . اختلفوا على قرش فى الحساب فقامت المعركة بينهم . لم يلتفتوا الى خطورة ما يقدمون عليـه ، ضرب احدهم الآخر بقبضة يده ، فقام المضروب اليه ، يعضه ويصفعه على وجهه دون رحمة . ظل الاثنان يتبادلان اللكمات والصفعات بينما الرفيقان الآخران يحـاولان احتجاز واحد منهما عن الثانى بعد أن تركا المجدافين ودفة القارب الصغير . وفى لحظـات كان المتطاحنان فى خضم المياه . هكذا تروى الحكاية ولا احد يعرف بالضبط سبب الغرق الحقيقى . هل هو الاختلاف على القرش ، او الرياح العاصفة ، أو تسرب المياه الى قـاع القارب ؟ ! .. وقفت مع صـديقى نتفرج . مأساة محزنة حاولت ان أتذوقهـا على طريقة المثقفين فلم انجح . عدت لتنتابنى كآبة حقيقية بعيدة عن التأويل والتفسـير . رايت النسوة يلطمن الخدود ويعددن على الأطفال المفقودين . تأثرت من منظر الرجـل الأسـمر ذى الندوب البيضاء فى وجهه وهو يجهش بالبكاء المعلول . لا ادرى لمـاذا تصـورته سائق قطار قديم جاب بلادنا كلها ؟ ربما لأن جلبابـه الأبيض الباهت ولون بشرته كان بهما آثـار من زفت القطارات ودخانهـا . لم يهزنى عويل احدى النسوة بصـوتها المرتفع تريد ان تطرد الحزن عنها . قـال أحد الواقفين وكأنه يعلمنا شيئا جديدا :

ـ الغواصون يستعدون للبحث عن الجثث .. انهم يتنفسون تحت الماء من انابيب الأكسوجين .

وقفت بعض العربات . نزل منها بعض الشبان يسألون عن الحادث . قال أحدهم وكان يتمتع بصحة جيدة تبدو على وجهه الأحمر :

ـ ما الحكاية ؟ !

ـ أربعة غرقوا .

ـ يا سلام .. اربعة !

عاد وركب السيارة ، وسار صديقى صامتا لا يتكلم . حاولت أن أعرف رايه او انطباعه فهمس بصوته العميق :

ـ حدثت لى .

قلت له بفضول :

ـ هل غرقت قبل ذلك ؟ !

ـ نعم .. وانا صغير انتشلونى من النهر .. ان سبب صمتى وعزوفىعن الكلام الآن هو هذه الحادثة .

لم احاول التعليق على كلماته ، انما نقلت الحديث الى مجال آخر :

ـ تأخرنا عليهم .

ـ لا .. بسيطة .

اجتزنا الكوبرى والأطفال الأربعة الغرقى يناوشون قلبى .. حوادث كثيرة تقع فى الطريق يتأثر بها الانسان فى وقتها ثم

ينساها هؤلاء الأطفال لا اعرفهم . كما انى لست عميق الانسانية للدرجة التى افكر فى مأساتهم طويلا .

* * *

فى بيت صديقى غنينا بعد ان شربنا وانتشينا . قـام احد الظرفاء ورقص وغنى باللهجـة الصعيدية ، فأثار فينا حبنـا لبلدنا ، استرجعنا بعض الذكريات القديمة فبكينا ، عاتب احدنا الآخر على حكاية كان يختزنها له من زمن بعيد . تحدثنا عن الأزمة بشكل عام ، تحمس صديق لم يشاركنا الضحك او البكاء فقال :

ــ السطحية منتشرة .

قلنا له :

ــ لا تذكرنا بالواقع ، نحن فى لحظة نسيان .

ــ والزيف ؟ !

ــ يا حبيبى نحن مسرورون الآن .

ــ السطحية والتزييف والانتهازية تطغى على كل شىء .

ضحكنا من الموقف .. نحن نشرب لننسى .. وهو يشرب ليفكر ويتفلسف . لم تجد معه الضحكات فأصر على مواصـلة تقريره :

ــ انا اقول ان ...

قاطعنـاه جميعـا والأكواب فى ايدينـا مهللين .. تسقط السطحية والانتهازية .. ويحيا العمق . لم يستطع ان يسيطر على

اعصابه الجـادة ، فضحك معنا علنا نستمع له مرة اخرى ، ثم ضحك فى النهاية من قلبه بعد ما ترك حمله الذى يرهقه . وانتهى الاحتفـال .

فى الطريق الى بيتى كانت نسمات الليل الباردة تدغدغ بقايا الكحول فى معدتى . أصـداء ضحكات الأصدقاء مع دموعهم تهتز فى خواطرى . تاهت منى التفاصيل على اثر ان افقت من المخدر ، لكنى عدت الى الشـاطىء من جديـد انتظر .. ترى هـل عثر الغواصون النبلاء على جثث الأطفال الأربعة ؟ !

الفخ

فجأة أصبحت عزيزة مثار اهتمام بلدتنا البالغ . وجد الناس انفسهم يتدافعون نحو الجبل مذهولين مندهشين حيث يقف هناك صف طويل من العساكر شاهرى السلاح ، يمتدون على طول شريط يقظ متحفز ينتظرون اللحظة الخطرة ، وقريبا منهم ضابط متلهف ، يلقى بأوامره الدقيقة المنضبطة :

ـ ارجوكم .. كل فى مكانه .. يبدو أن الخطة ناجحة .. لا تستخدموا النيران .. نحن نريد الحصول عليها حية . انها كلبة ذكية مقدامة . تعرف هدفها جيدا . حافظت على مدة التدريب واتقنته قبل رفقائها بمدة طويلة ، حنون مائلة ، لا تعرف الفوضى والتمرد .. لكن للأسف ثارت فى وجهنا أخيرا . هربت الملعونة .. من يدرى بهذا التحول الغريب الذى اصابها ؟ ! كنا نقدم لها اللحم الطازج فى الصباح ، تكرمها باللبن الدافىء فى المساء ، نغطيها بالصوف فى الليل .. اياكم أن تطلقوا النيران ، ارجو من السادة الفلاحين أن ينحدروا بعيدا عن الفخ الذى صنعناه .

كانت الأسئلة المستفسرة تنتقل على الشفاه واللغط يتجاوب صداه فى النفوس والصدور ، وشىء مؤلم لا يستطيع الناس ان يعبروا عنه يكمن فى القلوب . قليل منهم هم الذين جربوا السجن، ولكن الكثيرين يشعرون جيدا معنى أن تنصب للآخر فخا حتى تكبله حيا . أحس بعضهم بعطف غامر على كلبه أو كلبته الغلبانة التى لم تثر ابدا رغم الضنى والعذاب والجوع الذى تتحمله فى غالب الأحيان . كيف تهرب عزيزة وهى المنعمة باللحم واللبن والنزهة ؟ !

قال فلاح عجوز بعد ان سكتت الضجة :

ـ يا اخوانى ، أنا اعرف الكلاب ، انها لا تقبل الضيم . صحيح ربما تتحمل طويلا ، ولكنها فى النهاية تفك أسرها وترنو الى حريتها مهما كان الثمن .

وهتف بعض النسوة والحسرة على وجوههن :

ـ يا عينى يا عزيزة .. صعبانة علينا والنبى .

كان الفخ منصوبا أمام السرداب الطويل الذى حفرته الكلبة فى الأرض الرخوة على شريط الجبل عندما هربت منذ ايام . جعلت تحفر وتحفر الى ان اختفت وكمنت عن الأنظار التى تبحث عنها ، ولكن ها هى فى النهاية تحت رحمة الأقدار . ان الاغراء الشديد الذى تتعرض له لا تستطيع مقاومته بسهولة ، فقد جهز لها العساكر دجاجتين محمرتين ووضعوهما فى داخل الفخ حتى تنقض عليهما ويقفل عليها ، لكن الخطة تتلعثم امام الجميع ، والانتظار الممل يجثو فى صدورهم . ساعتان وهم يقفون ، الغيظ يشوى نفوسهم .. والهزيمة تلوح لهم من آن لآخر .. هل تغلبهم كلبة من عشرات الكلاب التى سيطروا عليها ودربوها اروع

تدريب .. ان الكرباج مع اللحم يروضان اقسى الوحوش والحيوانات ، بل انهما يروضان الانسان كذلك . وقال أحد العساكر والحقد يغلى فى صدره :

ـ طيب الملعونة .. نصبر عليها حتى تخرج ، والله سوف نؤدبها جيدا .. لا ينفع فى مثل هذا الصنف اللئيم سوى الجوع والبرد والضرب الشديد ، أما المعاملة الطيبة وتقديم اللحم والاحترام المتبادل فانها تذهب ادراج الرياح . بشرفى سوف اسجنها عشرة ايام على الأقل فى زنزانة بمفردها ، ولن ارمى لها غير الفتات الردىء ذى الرائحة الكريهة ، بنت اللئيمة القذرة تتعبنا معها حتى يضحك علينا الخلق .

كان اللغط يزداد عنفا وسط الجميع ، ثم سرعان ما يهدأ من جديد ، لو كان بينهم اسد يهددهم ، لأطلقوا عليه الرصاص وانفضوا ، لكنها عزيزة الطيبة الأميرة صاحبة السلوك المستقيم والصبر النافد ، يعرفونها قبل ان يأخذها العساكر للتدريب . اولادها لا يزالون يعيشون بينهم فى مودة وامان.. يطلقون عليهم.. اولاد عزيزة . كلما عثروا على احدهم ، فانهم يكرمونه وفاء للذكرى . وهب الضابط فى الناس ان يسكتوا :

ـ خلاص .. انها تخرج ببطء من مكمنها .. قربوا لها اللحم .

قالت امرأة وهى تتنهد :

ـ دا حرام والنبى .. غلبانة .

وظهرت عزيزة قرب الفخ تنظر اليه . زكمت انفها رائحة اللحم ، فعصرت صوتها تزوم من الجوع ، ولحست أطراف الحديد ليجري ريقها الجاف . كادت تهم بدخول المصيدة ،

لكنهـا تراجعت وهى تلوى عنقها الى الخلف . كانت تتجاذبها قوتان هائلتان لا تستطيع التمييز بينهما . فالجوع يقرص أمعاءها المرهفة . وشيء دفين يقظ يحثها على عدم الاقتراب ، فهى تعرف بسليقتها معنى تقـديم اللحم . وعـادت تمص الحديد . وفرح العسـاكر فى أعماقهم . لحظات ولن تستطيع المقاومة ، فسـوف تنقض على الدجاجتين .

وقال الضـابط من أعلى الربوة :

ـ هس .

وصمتت الألسن المهتاجة . وبحلقت العيون حول عزيزة . عيون الفلاحين خائفة وجلة مشفقة . وعيون العسـاكر تتمنى أن تلتهم اللحم . وطارت الحشرات فوق الرءوس ، وحوم الناموس قرب الوجـوه ، ووقفت على أعلى الربوة بجـوار الضـابط عصفورتان ترفرفـان بفرح عميـق ، تنتقلان بخفـة لطيفـة على الصخور الصغيرة . وارتفعت التخمينات على الشفاه :

ـ سوف تأكل .

ـ لا .. لن تأكل .

ـ ربمـا .

ـ مسكينة .

ـ يا خرابى يا ولاد .

ـ اما كلبة ..

وانفجر أحد الشبان ضاحكا :

ـ كلبة تغلب فرقة عساكر .. مش معقول ؟ !

وقال العجوز مرة اخرى :

ـ ابعدوا الفخ عن اللحم واحملوا بنادقكم بعيدا .. اما انكم تضعونه وسط الحديد والنار ، فثقوا انها لن تقترب منه .. هذه الكلبة من سلالة نقية . عاشت على الحرية ، وسوف تعيش عليهـا أبدا .

قال الضابط من أعلى الربوة :

ـ اسكت ايها العجوز الكئيب .. هل تعرف الحـديث عن الحرية ؟ !

قال العجوز :

ـ لن اسكت يا حضرة الضابط .. الحرية هى أن تتركوا الكلبة تربى اولادها وتحرس بهائمنا ، انها تشعر بالأمان فى ازقتنا وحظائرنا .. تأكل مما نأكل ، وتجوع عندما نجوع .

صاح الجميع :

ـ صحيح ... صحيح .

قال الضابط فى سخط مغيظ :

ـ اسكتوا يا غنم .. الحريـة هي أن نروضـها وندربهـا حتي تحرسكم جميعا .

كانت الكلبة مازالت واقفة تتأمل اللحم فى شهوة والم . واقترب احد العساكر نحو اللحم يحركه امامها حتى يثيرها ، فابتعدت فى خوف مجهول ، ثم أدارت ظهرها للفخ عائدة الى سردابها ، وزحفت الفرحة على صـدور الفلاحين ، وقال العجوز وابتسامة ساخرة تعلو شفتيه المتيبستين :

ـ الم اقل لكم ؟ .. هذه هى النتيجة .. والله لو وقفتم هنا سنوات فلن تقترب عزيزة من لحمكم . اننى اعرف طبائع الحيوان كما أعرف طبائع الانسان .. توكلوا على الله ، واحملوا حديدكم ونيرانكم وارحلوا .

وطار العصفوران من أعلى الربوة . حوما حول الفخ المنصوب ، وراحا يزغردان بصوتهما الملائكى الجميل . وتنفست الصدور راحة عذبة فياضة ، وكتم الضابط غيظه .. وحك العساكر أقفيتهم . جلسوا يفكرون فى لحظة اخرى ، بينما سارت اسطورة عزيزة على كل لسان . دخلت بيوت البلدة بروايات جديدة محلاة ومنمقة بتفاصيل عديدة . كل منهم يضيف ما يعجبه اليها ، ويحذف ما لا يعجبه . وباتت بلدتنا تناقش الحكاية الغريبة . وانتشرت الأسئلة .. هل تخرج عزيزة ؟ .. ومتى ؟ .. ومن اين ؟ ان السرداب مقفول من امامها بالفخ ، ومن خلفها بصخور شديدة الصلابة . ومع الأسئلة سارت التخمينات الآملة .. سوف تحفر من الجهة الأخرى وتخرج . ربما فك العساكر فخهم قريبا حين ييأسون منها .. وبدأت الاشاعات تترى أيضا .. العساكر صمموا على قتل عزيزة فى السرداب .. عزيزة ماتت من الجوع .

وانفض الجمع الكبير من حضن الجبل . راح الناس يشربون واحدا وراء الآخر . وخفض العساكر بنادقهم المشرعة ، غير أنهم تركوا اثنين منهم ليراقبا الفخ اذا اصطاد .

وغطت الظلمة المكان . وصفرت ريح مذعورة مفاجئة . وعوى ذئب من بعيد ، فانخلع قلب العسكريين ، فمن المعروف ان الذئاب تنزل الحقول فى الليل تهيم على وجهها ، باحثة عن رزقها . وحقا ان الذئاب تخاف الكلاب الى درجة الرعب ، لكن

عزيزة داخل السرداب لا يسمع احد صـوتها . استكنت تماما كانها تعيش فى بيتها الأبدى . شـعرت براحـة عميقـة وهى تختفى عن اعين المتربصين بها . لن تعود مرة اخرى الى طابور الصباح ولحم الظهر ولبن المساء . كل ذلك هباء مادامت لا ترى اولادها ، وتتشمم الأرض التى ولدوا عليهـا ، وتلمس اطرافهم وذوائبهم الحلوة . كم توحشها هـذه الرائحـة الحبيبـة التى حرمت منها ! . فى عز الليل البارد ، كانت لا تنام تأخذهم تحت بطنها ، تحـاول ان تمد كل جسدها حتى تحتضنهم جميعا وهم يتدافعون ويتصـارعون ليحظى كل منهم بفجوة دفء . وعوى الذئب من جديد .. فقال احد العسكريين :

ـ نعطيها رغيفا ربما تخرج .

قال الآخر :

ـ هل تترك اللحم وتأكل العيش ؟ !

قال الأول :

ـ فى بعض الأحيان يلذ للانسان ان يعود لأيام الفقر الأولى .

قال الآخر :

ـ والله لو حكمونى لهدمت عليها السرداب وخلصت منها .

قال الأول :

ـ ولكنا لا نعثر على صنفها الا فى النادر . انه وفى جدا لا ينسى صاحبه ابدا . يحكون عن أمها انها كانت تعيش مع احد الفلاحين . وكان قد خرج للسفر مرة فدهمته عربة فى الطريق . فجرت الكلبـة الى مكان الحادث وظلت تتشبث ببقايا جلباب الفلاح ، وعندما حملوه ليدفنوه لم ترفع فمها عن دمائه . كانت

تشمها وهى تعوى بحرقــة . وبعد أيــام ضعفت رائحــة الدم فأخذت تحفر مكانه بأظافرها ، رفضت الطعام الذى قدم لها . كانت تشحب وتضعف شيئا فشيئا الى ان هدهــا الجوع ، فتمددت بجوار المكان كتائه فى الصحراء حرم من المــاء والطعام فاستبسام لمصيره ، وماتت .

قال الثانى :

ـ ما علينا .. ياريت تموت وتخلصنا ...

وطلع النهار وجاء رسول يسأل :

ـ الم تخرج ؟ !

ورد عليه الثانى :

ـ لا ..

قــال :

استمرا فى المراقبة بامر الضابط .

ـ تعبنا يا سيد ..

ـ انا ابلغ الأوامر فقط ..

ـ لن نستطيع التحمل اكثر من ذلك ..

قــال :

ـ افعــلا ما تريان . بلغت الأوامر وانتهيت .. ما على الرسول الا البلاغ .

ومر اليوم الأول والثانى والثالث دون نتيجة . وفى اليوم الرابع جاءت كتيبة من العسـاكر ترابط . نصبت خيامها وشهرت

بنادقهـا . كانت فى جعبتها خطـة جديدة لا تريد الافصـاح عنها . طردت بقايا المتفرجين من الأطفال والنسـاء والعجائز . قال الضابط لعساكره :

ـ لقد احرجتنا هذه الكلبة السخيفة .. ونحن نريد ان نستعيد سمعتنا الطيبة .. ان الفلاحين لا يفهمون معنى الحرية.. وسوف نصبر الى النهاية .

وتمتم عسكرى فى سره :

ـ تعبنا والله ..

وهمس آخر :

ـ الفرج يا صاحب الفرج .

وفجأة بزغت الكلبة من السرداب تجر جسدها الهزيل . كانت عيناها المتعبتان الذابلتان تستعطف دون مذلة ، ترجو فى غير نفاق بانت عظمـة ظهرها كسلسلة السمكة الكبيرة المشوية . اصبحت تتارجح فى مشيتها كقـارب يشارف الغرق ، يناهض الأمواج العاتية . قعدت قرب الفخ تنظر اليهم والكبرياء الواهنة تلون صوتها قالت :

ـ ماذا تريدون منى ؟ !

قال عسكرى بضحكة تشوبها السخرية :

ـ خلصينا نرجوكِ .. اطفالنا ينتظروننا فى البيت ..

وقال الضابط فى ثقة :

ـ نحن لا نقبل التحدى . استسلمى وسوف نحررك ..

قالت الكلبة :

ـ انا لا اطلب التحرر .. انا اطلب المودة ...

قال الضابط :

ـ وهل شعرت بغير المودة والتقدير فى معاملتنا ..

قــالت :

ـ كنتم بين بين .. اذا اردتم منى شـــيئا ولم أفعــله ، استخدمتم الكرباج .. وهــذا آلمنى كثيرا اما اذا نفذت اوامركم أعطيتمونى اللحم واللبن .

قال الضابط :

ـ استسلمى ، وسوف نراعى هذه الأمور فيما بعد .

قالت الكلبة :

ما هو الضمان ؟ ! .

قال الضابط :

ـ لا ضمان لأى شىء .

قالت الكلبة :

ـ اذن لن استسلم ابدا ..

قال الضابط :

ـ ارجوك .. لا تحملينا فوق طاقتنا .

قالت الكلبة :

ـ لى طلب مهم .

قال الضابط :

ـ ما هو ؟ !

فقالت الكلبة :

ـ ان ارى اولادى كل خميس . تماما مثل العساكر .

قال الضابط :

ـ وكيف يحدث ذلك ؟ ! .

قالت الكلبة :

ـ بسيطة .. اذهب اليهم ساعة أو ساعتين ثم أعود فى أمان الله .

وانقطع الحديث بينهما . وزامت هى لتواصل الكلام ، لكن الضابط سكت وشعاع من البهجة يضىء داخله ، نادى على أحد العساكر ، وهمس فى اذنه بكلمتين ، وزغده فى بطنه وهو يزقزق :

ـ حالا .

وعاد بعض المتفرجين الى الحلبة . كان هؤلاء هم البلورة الصافية التى يهمها مصير الكلبة فعلا . يريدون الاطمئنان عليها من الأعماق . العجوز المجرب الحكيم الفيلسوف الذى يعرف الطبائع الحيوانية والبشرية .. وفلاحان شابان خرجا من الحقل ، والطين يسود كفيهما ، يرتكزان على فأسيهما ، وطفل مستبشر الطلعة كقط ابيض اليف ، لونت القذارة جماله وتقاطيعه الحلوة ، والكلب الأجرب المشهور واقفا يحك جروحه القديمة والجديدة . وعاد عسكرى المراسلة يحمل لفة مغطاة بين يديه وصاح :

ـ أهوه يا بيه ..

قال الضابط :

ـ هـاته ..

وبلهفة فرحة جرى الى الفخ واطلقه . كان جروا لطيفـا ؛ اغبش البشرة ، يحـاول العواء كالكلاب الكبار ، فيبدو صـوته متقطعا كالثمرة المقطوفة قبل الأوان . وفى لمح البصر كانت الكلبة داخل الفخ تتشمم الجرو وتلحسه ، تزوم والدموع تبلل وجهها. وقال العجوز بأسى :

ـ خدعوك يا مسكينة ..

وصاح الضابط :

ـ لا تقربوا منها .. دعوها الى ان تهدأ . لقد اقفل باب الفخ تماما . وعاد الفلاحون يلوكون اسطورة عزيزة فى الحقول والبيوت . وفى اعلى الفخ كان يحوم غرابان صفيقان ينذران بالنهاية الغريبة . وانزلت سحابة عابرة بعض العزاء . واهتز الجبل اهتزازا مروعا ، ثم سكنت الأرض بعد انتفاضة مؤلمـة قاسية .

العازفــة الصــغيرة

على السرير عــاد يحتضنها من جديد .. ارخت راســها الصغير على كتفه وهى فرحة .. مسح على شعرها الذهبى ذى الضفيرتين الطويلتين .. نظر فى عينيها الواسعتين فى حب . رأى فيهمــا ظـلال الحـيرة والألم المبهم . اقتطف بعض القبل من وجنتيها . تعلقت بذراعه وهى خائفة :

ــ اين كنت يا أبى ؟ !

صمت متحيرا لا يعرف كيف يرد عليهــا فأشرقت الكلمات من روحها مرة اخرى :

ــ لا تدرى كيف وحشتنا !

مدت اصابعهــا الى شــعر راســه الذى تخلله الشيب مبـكرا . لحست وجهه السـمح ، فارتاحت للنظر اليه . منذ سنوات لم ينم فى حضنها .. فجأة غاب عنها فى رحلة طويلة . قالوا لها انه مسافر ، سـوف يعود بعد ايام ، لكن الأيام تطول دون أمل . قفزت من السرير الى البيانو القديم فى ركن الحجرة .

جلست على مقعده المرتفع . رمقهـا من طرف عينيه وافراح العالم تصب فى قلبـه . أصابعها الرقيقة كالطيور البيضاء المرفوفة فوق مفاتيحـه . كبرت عايدة خـلال السـنوات التى غاب عنهـا . أصبحت تعزف على البيانو ، وعادت تلح فى سؤاله :

ـ اين كنت يا أبى ؟ !

صمت مرة أخرى . حاول أن يثنيها عن عزمها بالحيلة ، فقـال :

ـ هل تحفظين مقطوعة معينة ؟ !

ـ عدة مقطوعات .

ـ اتمنى أن نسمع احداها ..

ـ السلام على الأرض ، أو رقصة الأمل ؟

ـ رقصـة الأمل .

ـ احك لى أولا عن رحلتك ؟ :

ـ رحلتى طويلة تحتاج لوقت طويل ..

ـ طيب .. فى أى بلد كنت تعيش ؟

ـ لم أعش فى بلد واحد .. تنقلت فى بلاد كثيرة .

ـ فيهاعرائس ؟ ! .

ـ نعـم .

ـ وحدائق بمراجيح ؟ !

ـ آه ..

ـ وزهور بنفسجية ..

وغرق فى الصمت من جديد . تحسس الجروح القديمة فى جسده ، اندملت ، ولكن آثارها باقية . تاه فى رعب مقيت . لا أريد ان أحكى لك عن العذاب الذى تحملناه يا عايدة .. غدا تعرفين ذلك جيدا .. لهب الصحراء شقق أصابعنا .. السياط هدت قوانا .. الضيق كاد يخنق انفاسنا . الشوق اليكم كان يلطف أرواحنا . لم اكن وحدى يا عايدة .. فرسان شجعان . ركبنا خيلنا .. وحملنا اسلحتنا .. فى البدء كنا خائفين ، عالم مجهول نقدم عليه . قابلنا بعض قطاع الطرق فى ظلام الليل .. اوقعنى جوادى من فوق صهوته .. التأموا حولى . وظلوا يضربوننى حتى كسرت ذراعى .. قمت وانا لا أدرى شيئا . حملنى الصحاب حيث ضمدوا جراحى ، فرحت بالنجاة وهم يسقوننى جرعة ماء .

وافاق على صوتها :

ـ لم تجب على . هل هناك زهور بنفسجية ؟ !

ـ نعم .. بنفسجية وحمراء وخضراء وصفراء و .. و .. و .. لكن هناك زهرة كبيرة . كبيرة جدا مثل قرص الشمس .

قفزت اليه تتعلق برقبته . اشتهوتها صورة هذه الزهرة الغريبة . قالت :

ـ وهل لها رائحة يا بابا ؟

ـ طبعا .. رائحتها تملأ العالم كله .

ـ لماذا لم تحضرها لى ؟ انت تعرف انى أحب الزهور جيدا ..

ـ لا يستطيع احدا امتلاكها يا عايدة .. انها للجميع .

ـ واين هذه الزهرة ؟

ـ انها هناك .. تخفى نفسها .. لا تريد الظهور امـام النـاس .

ـ لمـاذا ؟ !

ـ لأنها تخاف أن يضايقها احد منهم .. انهم يتسـابقون على امتلاكها ..

غضبت قليلا .. اعتلت سحابة حزن صفحة وجهها . قبلها دامع العينين :

ـ الا تريدين أن يشم الجميع رائحتها ؟

ـ لكنى أحب الزهور ..

ـ سوف اهديك زهرة خاصة .. اما هذه فلا ..

ابتسمت .. انفضت غلالة الدهشـة من خاطرها ، فرجعت الى مقعد البيانو وهى تفتقد سرا حلوا .. تتمنى أن تعرفه .. ووضع هو نظارته الرقيقة على عينيه .. آه يا عايدة .. لو حكيت لك عن الأخطـار التى تحملناها .. انت تفكرين فى الزهور ونحن نفكر فى الفقراء ، ولا غنى للانسـان عن رغيف الخبز والزهرة معا .. يحزننا أن نرى محتاجا فى الدنيـا .. وربما جرعة مـاء او لقمة عيش ، او كلمـة حرة .. أنت تعرفين كم احبـك .. بالأمس القريب هددوك بالضرب فى المدرسـة ، فذهبت اليهم لأقنعهم بعدم جدوى هـذه الطريقة ، فأخذوا يبثوننى الشكوى ، فانغمرت فى مشكلتهم .. ونسيت ما ذهبت من أجله .. شعرت بالعطف عليهم . لن تستطيعى تذوق رائحة زهرتك الخاصة .

وانساب اليه الصوت الدافىء مرة اخرى :

ـ لم تقل لى .. هل تريد سـماع مقطوعة السلام على الأرض » او رقصة الأمل ؟

ـ كل ما تعزفينه جميل ..

ـ لا .. قل ما تريد ؟ .. انت وحشتنى جدا .

ـ اريد رقصة الأمل .

ـ واخذت اناملها الدقيقة ترفرف وتحط فوق مفـاتيح البيانو . تهز راسـها منتشية . غارقـة فى الأحـلام الوردية الغامضة . تسترق النظر اليه بين الحين والآخر .

نسمة هواء

كنت ادرك اسرار الأزمة قبل حدوثها . حاولت تجنبها والدوران حولها بهدوء ، فربما افلت منها . لقد اقتربت من ابنتى وهى تحتضن عروستها فى مودة بالغة أريد ان أطبع على خدها قبلة وداع الصباح ولكنها ابتدرتنى بأمنيتها الخالدة :

ــ خدنى معاك يا بابا .

سكت . ضربت اخماسا فى اسداس فأنا اعرف هذه الصغيرة جيدا . فعندما أرسم عليها ، تقابلنى بأن ترسم على أيضا . تحاول أن تأخذنى باللين كما آخذها به . قلت وحصيلتى من الصبر لم تزل زاخرة :

بكرة يا زينب . ان شاء الله بكرة .

سكتت مرة أخرى ، ولكنها ادركت انى اسوف . واحاول ان اضحك عليها . ضربت الأرض بقدمها منفعلة بغضب :

ــ لا .. أنا عاوزه أروح معاك .

ونظرت الى وجهها الدقيق الحلو ، وقوامها المخندق الممتلىء ، وتعجبت فى سرى .. كيف كبرت هذه العفريتة ؟ ! انني مازلت اذكرها وهى قطعة من اللحم الأحمر فى ليلة ميلادها. ولا انكر انني تضايقت عندما علمت انها بنت . وقد كنت أريدها ولدا على عادة الشرقيين والفلاحين خاصة . قالوا لى ان الطفل فى شهره الأول لا يعرف تحريك بصره . فنظراته مستقيمة . ولاحظت عيني ابنتى عندما كانتا لا تتحركان الا فى اتجاه واحد. وقالوا ان الطفل لا يبتسم الا فى الشهر الثانى أو الثالث . وقد ترقبت ابتسامتها الوليدة . ومن لحظتها وفكرة الولد والبنت تختفى من ذاكرتى . لم تعد تشغل بالى . اننا نريد عطفا وحنانا وحبا . وهذا ما تمنحنى اياه ابنتى حتى وهى فى شهورها الأولى ، اما المشى ، فقد تأخر طويلا حتى خفت عليها . لكن الذى سحرنى حقا هو كلماتها الأولى .. ما أحلى أن نراقب طفلا وهو يتعثر فى بداية الحديث مع هذا العالم .

منذ قليل كانت ابنتى تخطط خطوطا مستقيمة لتتعلم الكتابة والقراءة .. فى كل صباح تلح على أن ارسلها الى المدرسة ، ولكننا نشفق عليها من اخطار الطريق . قلت وقد تجمد الموقف قليلا :

ـ انا مش رايح الشغل يا زينب .

قالت ورنة الاستعطاف الودود تكسو صوتها :

ـ طيب خدنى لزكريا ألعب معاه .

عرفت اللعبة المكررة . انها تريد ان تنزل الى الشارع بأى ثمن وبأية حجة . اردت ان اجرب المودة مرة أخرى . اقتربت منها أريد أن قبلها ، ولكنها رفضت ، فبعدت عنى وجهها ..

اشاحت علامة عدم الرضـا ، ورأيت صفحة وجههـا تتكرمش رويدا رويدا كسطح اللبن عندما يبدو على النار فى أول الغليـان علامة على بدء البكاء . ولم تستطع أن تحبس دموعها فانسابت من عينيها فى صمت . أدرت الموضـوع فى رأسى ، فوجدت أن لها حقا ، صعبت على ، أخذتها من يدها الى حجرة لعبها . كانت مليئة باللعب من كل صنف ، لكن معظمها مصنوع من البلاستيك أو الجلد أو الخشب . هى دمى لا روح فيها ولا حياة .. وبمجرد أن وقعت عليها عيناها شعرت بالنفور والقلق . ايمكن أن تعيش فى هذه الزنزانة المحددة بلا انيس يبدد وحشتها ؟ ! .. طالمـا رتبت لعبها ثم أعادت هـذا الترتيب لتقتل الوقت .. وطالمـا طلبت منى لعبا جديدة .. ولكن لا جديد يحرك الحياة الخامدة.. كل شىء خشب فى خشب . حجر فى حجر ، بلاستيك فى بلاستيك، حتى الجـدران البيضـاء بهت لونها واصفر حتى صـار عليلا ممروضا . الحجرة كلها أصبحت كئيبة مملة خائقة ، لا تدخلهـا نسمة هواء .

قلت والأمل ما زال يراودنى فى اقناعها :

ـ اقعدى العبى هنا يا زينب .

وجاءتنى الاجابة محتدمة يسودها التحدى :

ـ لا .. لا .

والقت بعروستها على الأرض غير عابئة بها . ووقفت أمامى تنظر فى وجهى لتكشف انفعالاتى ، ثم جلست وكأنها واثقـة من ضعفى ، وزمت شفتيها كالكبار عندما يتكلمون :

ـ هات زكريا هنا وأنا اقعد .

ولم اجد مفرا من التهديد بالعنف .. سحبتها بقسوة مفتعلة الى الخارج :

ـ مش حاخد حد معاى .. ولا زكريا جاى .

فأفصحت عن ثورتها بصراحة :

ـ لا .. لا .. عاوزه زكريا .

وجرت نحو الباب تفتحه ..

ـ حفتح .. هيه .. هيه .

ومن الداخل خرجت أمها بالعصا ، انها تخاف عليها من الشارع ، تريدها نظيفة لامعة مزخرفة لا تحتك بأولاد الآخرين ، فزكريا يحرس كتاكيت امه ، يقدم لها الأكل والشرب طول اليوم ، ويهش عليها من الحداة والغربان ، ثم يسوقها اذا بعدت عن مكانها المعتاد . انه طول اليوم يساعد اباه وأمه فى قضاء الحاجيات من الخارج .. ولد زلطة صحيح .. لا يكل ولا يتعب ، يجرى ويقفز ويصفر ويضحك .. وما الحت عليه فكرة المدرسة أبدا . فمدرسته فى مساعدة ابيه وامه .. ولماذا يقيد نفسه ؟ ! وهو الطليق الذى لا يحد من حريته أحد . لا جدران ولا دمى ولا أوامر يومية مثل عشرات الأوامر والتنبيهات التى تلقيها زوجتى على ابنتى .. ما زالت فى ذاكرتها خواطر الأمس عندما فرت من الباب بعد أن غافلتنا . لعبت مع زكريا لعبة العريس والعروس والتبات والنبات ر .. خلفوا صبيان وبنات .. وهكذا كانت تقطع لنا الحدوتة عندما تحكيها لنا فى الليل .

واخيرا انخرطت زينب فى البكاء .. بكاء حقيقى نابع من اعماقها . ظلت تنشج واصابعها تقبض على حديد الباب فى عصبية

ظـاهرة . واستماتت نظراتهـا الى الخـارج . كان فى قلبهـا اشتياق عظيم للخلاص من قبضة هذا البيت الكئيب..من حجرتها الضيقة ذات الجدران الصماء والمساحة المحدودة والطلاء الباهت القمىء ..

فى هذه اللحظات كانت تهتف بصوتها المخنوق باسم زكريا .

وانخفض نشيجها قليلا . خفت حدة عبراتها المنسابة بعض الشىء .. فرحت فى داخلى . انها فرصة لاستخدام حيلة جديدة لاسكاتها .. رفعتها من الأرض واخذتها فى حضنى ، وتذكرت ابى .. كان هو الآخر حنونا رغم انه ما كان يملك شيئا .

استراحت زينب لهذا العطف ، واسترحت انا ايضا .. لكن لابد أن أشغل الوقت بشىء ما حتى لا تعود الى عنادها من جديد .

ـ أقولك حدوته يا زينب ؟

سكتت ولم ترد .

ـ كان فيه مرة تلات معيز ...

رفست بقدميها وتململت براسها ، ثم قالت فى حسم :

ـ عارفاها .

ـ طيب كان فيه مرة ملك ..

ـ عارفاها .. عارفاها ..

ولم أجد فى خيالى شيئا أقوله .. فرغت الحواديت .. وما عادت هـذه الحيلة تخيل على ابنتى .. تمنيت أن يغلبها

النعاس ، لكننا ما زلنا فى الصباح وهى نشيطة تستعد للجرى والقفز . سحبت يدها من يدي وتسللت نظراتها ناحية الباب فرات امها تقف لها كالديدبان الذى لا يكل .. تجاهلت الأمر قليلا . ثم أرادت استدرار عطفى :

ــ انا عاوزه زكريا .

أردت ان اطمئنها ، فقلت :

ــ زكريا زمانه جاى هنا ..

صرخت فجاة والدم يحتقن فى عروقها :

ــ لا .. مش جاى .. ماما مش عاوزاه يطلع هنا .

وانتفضت من حجرى وقد شدت ساقيها القويتين متجهة نحو الباب ؛ لوحت لها أمها بالعصا ، فتقدمت منها وهى تتأخر وكأنها تجس نبضها الحقيقى .. اخرجت لها أمها بالونة حمراء كبيرة ، لكنها أمسكت البالونة بفرح مدغم .

ــ حاخدها معاى بره .. نلعب بيها انا وزكريا .

واخذت وضعها الأول ، اصابعها تقبض على حديد الباب ، ونظراتها الولهانة تمتد الى الخارج ، واشتياق عظيم للخلاص من قبضة هذا البيت الكئيب يكمن فى قلبها .

انفعلت أمها . جذبتها من يدها ، لكنها استماتت على حديد الباب ، فهوت عليها بالعصا تريد تأديبها كما تقول .. شعرت بوخزات فى جسدها كأن الضربات تلسعنى .

فشلت زوجتى فى زحزحتها عن حديد الباب . وقفت ازاءها تتحداها أن تخرج ، ووقفت زينب تعتمد على اصرارها وتأييدى الذى تشعر به جيدا فى عينى ، فعندما صرخت مستغيثة بى

تقدمت لأمنع العدوان .. اخذت العصا من زوجتى . اردت ان اقنع زينب بالحيلة ان تترك الباب احضرت لها كلبتهـا الحبيبة لتلعب معها .. حاولت أن أوقفها على ساقيها الخلفيتين ، ولكنها نظرت اليها وابتسمت ابتسامة عذبة صافية من خـلال دموعها المنسابة . باءت كل محـاولاتى اليائسة بالفشل .. تقدمت من زوجتى وقد فاض بى الضيق :

ـ خلاص بقى سيبيها .. هيه حتروح فين ؟ خليهـا تشم نفسها اديها شوية حرية .

وفى سرعة غريبة ادارت زينب المفتـاح فى الباب ثم انطلقت كالعصفور الى الخارج ، متدحرجة على السلم ووجهها المتـألق يملأ الدنيا ضياء .

ومن النافذة رايتها تقفز على ساق واحدة تحتضن زكريا فى فرح غامر .

وفى الداخل كانت زوجتى تقف كما هى عند حديد الباب ، تدارى ضيقها وحسرتها .. لا تريد الاعتراف بالهزيمة .

زيـــارة

فجأة لم استطع ان اتقدم خطوة واحدة . شلت قدماى . اصبحت كالأسير العاجز امام مصيره . حتى ارتـاح لنفسى .. انت نذل ، لكن هذه الحيلة قديمة يعرفها المدربون على اساليب الخداع . اعتقد الناس اننى توقفت فى طريقى لأن المطر كان غزيرا وقاسيا . لكن صلة الرحم هى التى كانت تسمرنى فى مكانى . ابن امى . من سبقنى فى الميـلاد هو الذى يلح على الآن . هل تجدى الضوضـاء حولى فى انتزاعى من عالمى . بئست بها من خانات فارغة على ان املأها كل يوم . المعركة فى الخـارج تطحننى . عندما ووجهت بمرفأ الأمان سمعت صوتا يقول لى :

ــ هل هذا يرضى ؟ !

حاولت ان اهرب ، أن اموه .. لكن الحجج كلها انهارت .. قال لى الطيف الحبيب :

ــ هل تتركنى كل هذه السنوات دون زيارة واحدة ؟ !

ــ سكت وانا اشعر بذنب ثقيل ، أعاد على الشكوى :

ـ انا لا أعتب عليـك .. أنت تعرف انى لا أريد منـك شيئا كبير .

قـلت :

ـ لا استطيع تحمل زيارتك .. انها تتعبنى وتضنينى .. امرض بعدها شهورا .

ـ هذا كلام لا أصدقه .

ـ اقسم لك بشرفى ..

ـ أعرف أنك تعانى فى سبيل الاحتفاظ بشرفك .. اريد قسما آخر ؟ !

ـ اقسم بحياتى ..

ـ انك تناضل لتعيش ..

ـ اذن بماذا اقسم لك ؟ !

ـ ليس بيننا قسم .. أعرفك جيدا .. ألم نعش معا قبل ان تعرف اى شىء فى الوجود .. بل انى سبقتك الى الحياة .. ويكفى ذلك ..

ـ وماذا تفيدنى العواطف .. والبكاء .. ؟ !

ـ اذا اردتنى أن اتحدث اليك كما يتحدث الناس .. أريد غطاء للشتاء .. وغاب الطيف عن خاطرى لحظـات . أنا اجلس فى مكان دافىء . مبسم الشيشة فى فمى . وكوب الشاى يتصاعد منه البخـار فى يدى . وعلى زجاج باب المقهى تتناثر حبات المطر . عاودت مواجهة نفسى .. أنت نذل . لكنه عاد وقال لى :

ـ لا اريد أن تلوم نفسك .. فقط تصرف ببساطة .

ـ كيف ؟ !

ـ تعال لزيارتى .

ـ لا استطيع الآن .

ـ وماذا يشغلك ؟ !

ـ ذاهب الى العمل .

ـ وفى غير وقت العمل ؟ !

ـ فى البيت .

ـ منذ متى عرفت زوجتك ؟ !

ـ بعد أن عرفتك طبعا ..

ـ طيب لماذا تنسانى .. ؟

ـ لم انسك ابدا .

ـ وماذا تفيدنى العواطف .. والبكاء .. ؟ !

وتذكرت اول مرة زرته فيها . لا داعى لذكر المكان او الزمان. كلهم قابلونى بترحيب . كانوا يضحكون .. فاذا اقتربت منهم .. يصمتون .. لم . ؟ ! لا أحد يعرف .. ثم يعودون الى الضحك من جديد . وآخرون ينزوون فى الأركان . يشبهون القردة الذكية، منكودة الحظ . تحسست راسه . ما زالت به العلامة القديمة.. الكى الدائرى الذى أعرفه به . سكت وهو ينظر فى حنان . قلت له :

ـ هل تعرفنى ؟ !

ـ طبعا .

ـ طيب من انا ؟ !

ـ انت فريد .

وزعوا عليهم الأكل . كان اليوم جمعـة . الزوار عديدون احضروا معهم الأكل الكثير . ونحن صغيران فى البيت كنـا ننام على سرير واحد .. نأكل من طبق واحد .. نصطاد من نهر واحد. لا أستطيع أن ابوح بشيء من الذكريات . الضوضاء تحـاول أن تطمس النبع العميق . تريد أن تمتص رحيق مائه العذب . قطرات المطر ترطب جفاف الزعيق السخيف . ليتها تمطر دواما حتى يتوقفوا ليفكروا .. لكنها تمطر .. فيتجمعوا ليثرثروا ، وهو يطل على من المستشفى فى خفر . كلمـات الاخـاء فى شفتيه . واصداء الجلبة فى اذنى . لابد ان اتوقف .

قال لى عامل المقهى :

ـ احضر حجرا آخر ؟

قـلت :

ـ هـات .

غاب ثم عاد :

ـ احضر نارا جديدة ؟

ـ هـات .

المقاعد الطويلة التى كانوا يجلسون عليها تتجسد فى خيالى. مرضى طيبون ، لا يعترضـون على شيء . ليسـت لهم مطـالب يدافعون عنها ، لا يشعرون بالزمن الذى يمضى . لايعرفون البرقيات

واساليب الاحتجاج التى يعرفهـا المرضى الآخرون . عـاد الى صديق الرحم :

ـ انت تتفلسـف .. تعـال .. وسـوف تدرك الواقـع الصحيح .

ـ لا استطيع ..

ـ تحب الهروب .. اليس كذلك ؟ !

ـ نعـم .

ـ هل تهرب من اخيك ؟ !

ـ اخى فى عينى .

ـ كلام فـارغ .. شـبعت منه .. اذا كنت جادا تعـال لزيارتى .. انا اشتاق اليك .. هل نسيت أيام الطفولة ؟ !

ـ يستحيل .

ـ اذن لمـاذا تتراجع ؟ !

ـ اخاف المستشفى ..

ـ نحن لا نخيف احدا .. قوم مسالمون .. انـا نتوه فى عالمنـا ..

ـ افكر فى خروجك ..

ـ هذه تكاليف عليك ..

ـ لا يهم ..

ـ وايضـا .. اعصـابك لا تتحمـل .. ان لى متـاعبى الخاصة ..

– سوف اقاوم ..

– أوصيك بأمك وزوجتك ..

– وانت .. ؟ !

– لا أطلب منك غير المودة ..

الضوضاء لا تزال تصم الأذن . والشفاه تهتز بالكلمات . لا ادرى ماذا أفعل ؟ ! . صديق الرحم يطل على يعاتبنى ، والعمل ينتظرنى . وشىء كالموت بدأ يزحف على صدرى .

الزائـــر الكئيب

فى الطريق اليها كان الحلم ما زال حيا فى خاطرى . حاولت أن اتجنب ذكراه السخيفة ،فرسخ على صدرى كاللزقة الانجليزى، تشفى ولكنها تضـــايق المريض وتذله . بالأمس نمت مهموما ، فانتهز الفرصة وتسلل الى كاللص المتخفى تحت جنح الليل البارد. قال وهو يتصنع الشفقة التقليدية :

ـ نائم يا عينى ..

فى البداية تململت ، حاولت أن اتناوم ، اتجاهله ، لكنـــه اقترب بخطواته الثقيلة المفعمـــة بالعذاب ، انى اعرفه جيـــدا ، زارنى كثيرا قبل الآن ، وطردته مرات متعددة . فى كل مرة كان يتوعـــدنى :

ـ طيب .. انتظر ..

فى هذه المرة كان الاصرار باديا على وجهه ذى الغضـــون الرمادية الصفراء . تجملت بالصبر ، فقلت أستعطفه ربما يرق :

ـ والنبى ... نفسى انام ..

قــال :

ـ معى دقيقتان .

ـ اسبوع كامل وانت تلاحقنى .. دعنى ارجوك ..

ـ لا تخف ... كن شجاعا ..

ـ لا شجاعة فى حضرتك .

ضحك حتى علا الزبد شفتيه :

ـ كلكم هـكذا .. تخـافون فى البدء .. ثم تنســون فى النهايــة ..

ـ لست فى حاجة الى نصائحك ... ارجوك ..

ـ انى رجل عملى .. لا يهمنى شىء .. لكن هنــاك بعض الناس يسعدنى ان أجلس معهم قبل ان أقدم على تجربتى ..

قلت وانا مخنوق الأنفاس :

ـ هل تستغل ضعفى ؟

ـ لا ...

الدموع تطفر من عينى ...

ـ اذن ... كن مهذبا ..

ـ انت تقيس الأمور بمقياسك .

ـ لمــاذا لا تعيش لى ؟ ! من حقى الا تفاجئنى فى الظلام ..

قال والطمأنينة تكسو اساريره :

— قضى الأمر ..

انتفضت واقفا اريد أن أصفعه على وجهه ، فاذا به يهدىء من روعى : امسكنى من يدى ، ثم صحبنى خلفه فى سـكون . صفق بيديه ، فاذا باب يفتح على مصراعيه ، كان العجـائز يلطمن الخدود ؛ يلبســن ملابس الحداد . وهنـاك صفان طويلان من الرجال ، يجلسون على مقاعد من الأحجار الصفراء ، رءوسهم فى الأرض ، وايديهم بجوارهم كالجثث الميتة . ما بالى بهذا العالم النتن ؟ ! مررنا عبر الجماعة نحيى ونتبادل الزيف . تركنا هذا الباب الى باب آخر حيث الأسرة تنتحب . انها هى التى حدبت عليها . قومت كيانها فى الحياة . كانت الأم الحنون التى تلتقط الحب لها من كل مكان ، تسعى الى الدفاع عنها اذا مسها أحد كالنمرة المفترسة ، لم يكن ابى موجودا بين افراد الأسرة ، فقد ودعنا قبلها . اخى الكبير كان يجلس كعادته مستعدا لأية خدمة نطلبها منه . اخرج من جيبه بعض الجنيهات ليتشاور فى امر الدفن والعزاء احتضنا بعضنا فى لحظـة واحدة ، انا واخوتى . أصبحنا كومة من اللحم كأننا مولود قد نزل من بطن أمه للحظة. شهقنا فى صرخة واحدة تريح الضمير :

— امنا ... امنا ... يا حبيبتنا يا امنا ..

وعاد المولود يتجزأ من جديد ، تفرقنا منهزمين ، فهتفت فى زائرى المنتصر :

— أيرضيك هذا ؟ ! .. حرام عليك ..

— لم يعرنى التفاتة واحدة . كسحنى أمامه فى خشونة . وانفتح لنا باب ثالث . كنت وحدى هذه المرة ، فجريت حتى اعود الى الأسرة . لكنه اعترضنى وقال :

ـ دعهم .. انهم يجهزون الواجبـات التقليدية .. اما أنت فتأمل قليلا ..

قلت :

ـ ليس أمامى شيء استطيع أن اتأمله .

قـال :

ـ اصبر .. سوف ترى بعد قليل ...

المكان اشـبه بجزيرة مهجورة منذ الأزل .لا انس فيهـا ولا جن ولا طير ولا حيوان . حتى الشـمس والقمر والنجـوم لا اثر لها . انا نفسى اكاد افقد مذاقى وطعمى ووجودى فى الوقت الذى يمتلىء فيه هو حيوية ونشاطا وقوة . فى الخـارج كان طبعا يخيفنى ، اما هنا فهو فى كامل حريتـه . يأمر وينهى ويرعب . ضرب أصابعه الحديدية الى احشاء الأرض ، وقال :

ـ أعرف أنك عطشان .. خذ هذه القطرات ..

وكالنملة المذعورة ضمرت أمامه خائفا ، قلت :

ـ لست عطشان ... الحمد لله ..

ـ اشرب حتى تتحمل .. لم نصل الى النهاية بعد ؟ !

تغصبت على نفسى ، ومددت فمى الى كفيه الصلبتين ، فاذا الحديد يلطمنى ، ورائحة مائه تزكم انفى ، لونه كصديد جرح قديم متقيح ، ومذاقه ليس كمذاقه شيء . افرغتـه من فمى حـال الوصول اليه . تمدد على أرض الجزيرة يلهو ويعبث . كان لسان حاله يقول : هذه الدنيا لى رغم انى لم ابن فيها ذرة واحدة ! . لى وحدى لا ينازعنى فيها منازع . ونهض يقهقه فى انطـلاق وانا اتلاشى شيئا فشيئا من امامه . غير انه صفق بيديه مرة أخيرة ،

فانفتح لنا باب رابع ، فوجدتنى امامها مباشرة ، تركنى ووقف بالخارج ، فأصبحت وحدى مع الجسد المسجى تحت غطائه . امتزجنا معا خلال اثير غريب لا اعرف منتهـاه . كان وجههـا داكنا من أثر العزلة ، لكن قدميها دقيقتان .. دقيقتان كأنهـا عروس فى ليلة الزفاف .

قالت لى :

ـ واخيرا رايتك ...

قال القلب من الأعماق :

ـ لا أستطيع ان اراك يا امى ؟

قـالت :

ـ قضاء وقدر .. لا تحزن .. لقد اديت واجبى .. ومن الذوق ان ارحل ..

ـ يا امى لا يصح .. اذا كان هـذا رايـك .. فليس هو راينـا .

ـ المسألة ليست مسألة آراء .. هى قضـاء وقدر .. تقبلها كما هى تستريح ...

ورغم ضيق المكان ، فهو أشبه ما يكون بسرداب مستدير ، مثل وجه بومة عجفاء ، فقد سمعت صوت طائر لا اعرف مصدره يغنى :

ـ لا تحزن بمفردك .. احزن مع العالم ..

اذن تحاول أمى أن تقنعنى فى مماتها كما كانت تقنعنى فى حياتهـا . يا للغرابة ! .. يبدو أنها سـوف تظل تقنعنى مدة الحيـاة .

***

وكان الطريق اليهـا مملوءا بالصعاب ، فالناس يتزاحمون على الأوتوبيس فى تكالب حيوانى مؤسف . كل منهم يود أن يحظى بموضـع لقدميه . الشتائم والسباب لا تهدأ بينهم . تتقـاذف السنتهم الاستفزاز والعراك الدائم . أردت أن أهرب من الوجوه امامى ، فاذا بى ارتد الى جو العمـل . وفى لمح البصر انفتحت طاقة أخرى للموت فى نفسى . تركتهم يجهزون المقالات الطويلة فى رثاء الرجل المهم رغم أنه لم يمت بعد . حقا ان موته محقق ، ليلة واحدة ، وبعدها ينتهى . قال محفل الأطباء المجتمع فى بيته : أفلس الطب ، واصبحت المعجزة فى يد الله وحده .. ان التسليم هو الحـل الوحيـد .. رتبوا النعى والجنـازة والعزاء ، كان الزملاء ينكفئون على المكاتب يدبجون المقالات عن حياته العريضة. جرى بعضهم الى مكتبة المعلومات والوثائق ليكشفوا عن خفاياه واسراره .. المواقف الحرجة فى حياته .. والمواقف الجريئة .. النشأة التى أثرت فيه .. المباحثات والاتفاقيات الخطيرة التى جلس على مائدة المفاوضات فيها .. ثم أخيرا .. هل هو مع الشعب أو ضد الشعب .. الى اى المدارس السياسية ينتمى؟!. بالأمس كنت قرفان منهم لهذا الجلد المزرى الذى يواجهون به الموت ، فيتحول على أقلامهم الى مقالات طازجـة منمقة ، لكن وبعد حلمى الكئيب ، أفكر فيهم اللحظة ببرود شـديد أخصهم عندى الصحفى الأليف ، كتلة اللحم المربربة ، انه اشطرهم فى مثل هذه المناسبات . له ارشيفه الخاص الذى يغرف منه فى صمت كأنه حرز حريز . كشرت فى وجهه بالأمس قائلا :

ـ بأى حق تدبج مقالة موت فى انسان مازالت تتردد فيه انفاس الحياة ؟

قـال :

ـ ولا تزعل .. كلنا لها .. انى فى حاجة الى المكافاة ..

لا ادرى للآن ان كان الرجل المهم مات أو لم يمت ؟ !

تململ الواقف بجوارى فى ضيق . ضغطت قدمى على قدمه غصبا عنى . سهوت أن أعتذر له ، فرمقنى بنظرة مميتة ، لو بادلته نظرته لقلبها هلولة ربما شملت العربة كلها ، زغت من نظرته الى الخارج . كان الطريق على النيل قرب امبابة مغبرا قذرا . صافحت عينى المياه ، فاذا ارض الجزيرة الجميلة فى الناحية الأخرى عند الزمالك تنقلب الى ساحة للموت . كلما تخلصت منه ، جرى ورائى يريد أن يتمسك بتلابيبى كالكلب المسعور . قلت له ذليلا :

ـ ارجوك .. ابعد عنى .. الم يكفك زيارة الحلم الكئيب ؟!

قال :

ـ تريد أن تهرب عند مياه الجزيرة !

قلت :

ـ لمحة راحة واحدة وسط هذا الضيق المخنوق !

قال :

ـ انسيت حادث الترولى باس ؟ !

كادت قدماى فى هذه اللحظة أن تنوء بحملى . سرت القشعريرة فى بدنى . انه لا يهددنى وحدى ، وانما يهدد هذه المجموعة كلها . هى لا تتصور فى عراكها وسخفها اليومى أنه يستطيع أن يسكتها الى الأبد فى لحظات .

***

خلا مكان بشق الأنفس ، فرايت الأجساد تتدافع عليه بالعيون والسيقان والأقدام والصدور . وجدت نفسي جالساً فيه رغما عني ، لأني اقربهم جميعا اليه . أصبحت الدنيا كلها تزكم الأنف برائحة الموت . انه فى كل شيء ترسو عليه العين . فى فراش نومى ، وعلى نافذة حجرتى ، فى جوربى ورباط عنقى ، فى العيون التى أتطلع اليها ، وفى الأيدى التى تصافح يدى ، معلق فى خطواتى عبر الشارع ، وفى الأوتوبيس ، وعلى صفحة المياه ، وبين الحدائق العامة والنافورات . وعلى مشارف البيوت والعمارات ، عند قمم الأشجار وأعمدة النور ، وأسلاك الكهربا .. فى الماضى والحاضر والمستقبل . لفنى فى ردائه لفة محكمة غريبة . لم يعد يجدى صراخى وتذللى واستعطافى له . هدات الضجة بعض الشيء ، وخف العرق من وجوه الناس معى . واتضح الأفق لصوتين يسعيان الى اذنى :

الأول ـ مات على عجلة القيادة .. كان فى رحلة سياحية الى الغردقة ...

الثانى ـ لا ... يقولون انه مات وهو يقرأ الجريدة ...

الأول ـ على كل حال ... انه مات وانتهى ... عجلة القيادة ... على الجريدة ...

غمغمت فى سرى . لم استطع ان اتحمله اكثر من هذا . نزلت لأمشى عله يغرب عن وجهى . فاذا بالطريق يذكرنى بجنازة ابى . كان اليوم قائظا مثل هذا اليوم تماما . الغبار والرطوبة يملآن البلدة . اسرعت خطواتى دون ان ادرى . وجدت نفسى اجرى واجرى واجرى .



وفى احضانها القيت بصدرى متهالكا . قبلت وجهها المتغضن الضامر . مسحت خدى بشعرها الأبيض الناصع البياض من اثر السنين . كانت كالراهبة المضناة ، هدتها معاناة التعبد الطويل الصابر . على وجهها ابتسامة مستسلمة ، تتحول الى ضحكة طفولية حلوة .. قالت والدموع تجمل الضحكة القادمة :

ـ واحشنى كتير يابنى .. متبآش تغيب عنى كده !

لم اصدق عينى . تلفت حولى ، فلم ألمح شيئا . وتنفست من اعماق الصدر لأول مرة بعد اختناق طال مداه . ورف فى قلبى فرح مفاجىء كقطعة القشطة الطازجة النقية . كنت مع أمى .

ذكريـات قديمـة

فجـأة تصلبت عينـاى على صـورته بصفحة الوفيـات بالجريدة . بحلقت طويلا فيها لأتأكد .. لاشك انه هو .. أصابنى انهيار مفـاجىء . بدأت اقرأ النعى .. ربما كانت الذكريـات العزيزة هى التى اثارت شجونى .. فى ذمة الله شهيد الواجب الكونستابل الممتاز أحمد الغرباوى ، مات وهو يؤدى عمله على خير ما يرام .. والد ايناس وممدوح بالثـانوى وزوج شقيقـة الحاج عبد الفتاح ابو اليزيد .. ونسيب وقريب عائلات المكن والهريـدى والزنـاتى بالشرقيـة والسـبع والحنش وطنبورة بالمنوفية .. الخ هذه التعقيدات التى لا افهم منها شيئا . ظللت لحظات لا أدرى سر التعاسـة التى انتابتنى .. تركت الجريدة جانبا .. انداحت الأيـام فى خواطرى .. كنت اعرف احمـد الغرباوى : طالبا هادئا وديعا .. ليس مجتهدا فى دراسته ولا بليدا، يجلس فى آخر الفصـل ساكتا لا يكلم أحدا .. بعيدا عن المشاكل التى تحدث لنا .. يتغيب معظم الأيام ، تكمن فى عينيه ريبـة من الآخرين .. عازف عن الهرج والنكت التى لا نكف عنهـا . كان كمن يخفى فى صدره سرا لا يعلمه الا هو . وجهه شارد ينم

عن ازمة صارمة . وتتسع دائرة الذكريات فى خيـالى .. مدرسة التوفيق الأهليـة بفنائها الضيق المحـدود .. الجرس البـالى العتيـق ، رائحـة العطـر القـديم المختلط برائحـة السـمك المنبعثة من حلقة السمك المجاورة..شنودة افندى الناظر العجوز المريض بالسكر .. الذى يخاف اى طالب ان يقترب منه وفى جيبه « برجل » او موسى . يحكون عنه انه انتسب فى شبابه الى الأزهر وحفظ القرآن بتفوق ، وكانت له حكاية مثيرة .. ومتولى افندى معلم الألعاب وحامل الطلبـة المشاغبين الى الخارج . كان جسدا ضخما وقلبا طيبا .. لم نفهمه عندئذ . كانت مدرستنا أيامهـا لا تعرف الهدوء .. كل يوم مظـاهرة بلا جدوى .. كلما نفعله الخطابة .. فى كل صباح يظهر خطيب جديد يجرب حظـه فينا حتى ان الخطباء الأصلاء ابتعدوا بعد ان ملوا التكرار ...

فى ذلك الصباح كان الاصرار يبدو على الوجوه .. كان وزير خارجية بريطانيا قد صرح منذ أيام اننا لايمكن ان نتخلى عن قناة السويس لأن لنا فيها مصـالح حيوية من المستحيل التفريط فيها .. وما ان قرأنا هـذا العنوان حتى شاطت أعصابنا .. التأمنا جميعا حول أحد السلالم العالية منتظرين الخطيب .. وفى لحظات كان أحدنا يهتف :

ـ يسقط الاستعمار ...

ومن الخارج جاء الزعيم يهرول .. قفز على أعلى السلم .. احمرت أذناه .. وفغرفاه ليتكلم ، فتطلعت اليه العيون وترقبته الآذان .. ووقف بجواره ـ عن يمين وشمال ـ طالبان طويلان يحميانه من اى عدوان .. وانبسط الآخرون أمامه كالبسـاط السندسى القابل لأى توجيـه .. وعم القلوب حمـاس غامر فى البداية ، تبعته الهتافات الصاخبة ، ثم انحسرت موجة الحماس

لتليها موجة صمت هادىء عميق للتفكير فى المصير .. ورفرف الخوف فوق الرءوس ، فلا أحد يعرف ضحايا اليوم .. وانطلقت حنجرة الزعيم :

ـ ايها الزملاء ..

وساد الحماس من جديد .. ووقف الطلاب المجتهدون من بعيد يتفرجون ، حاملين كتبهم وكراريسهم منتظرين انحسار المظاهرة وخروجها حتى يعودوا الى بيوتهم آمنين . وبمجرد ان خرجت المظاهرة الى الشارع حاصرها العساكر من الخلف والأمام . وزعق الطلبة فى هتافاتهم وكأنهم يستغيثون .. ودخل بينهم ضباط المديرية العظام ليقنعوهم بالانصراف والهدوء .. وازداد اللغط والاصرار والاضطراب وسط الشارع الضيق . فلم يستطع الضباط الا ان ينتزعوا انفسهم من وسط المظاهرة والانتظار الى فرصة أخرى .

وفى ميدان المديرية كانت المعركة .. الجنود بعصيهم ورصاصهم والطلبة بالطوب والزلط والزعيق والهرب .

فى صباح اليوم التالى تجمعوا فى الفناء .. كانوا متعبين من أثر الأمس ، نفوسهم ملولة .. وارواحهم يعتريها السأم . وفجأة قال احدهم :

ـ الغرباوى هو اللى ودانا فى داهية .

وبحلقت العيون فيه :

ـ فين الغرباوى ده ؟ ! .

رد وهو يشهق :

ـ فى رابعة رابع ..

ـ جه النهارده ؟

ـ لسه ماجاش .. خايف ..

وساد لغط كل يوم ..

قال طالب :

ـ احنا لازم نضرب الواد ده علقة !

وقال آخر :

ـ لا .. لا نضربه ولا حاجة بس نحتقره ونقاطعه .

وجرى خطيب جديد من بينهم الى أعلى السلم المشهور .. قفز عليه واخرج منديله من جيبه ليجفف عرقه اولا .. ثم هتف من جوفه اللاهث .. يسقط الخونة .. لا خونة بيننا .. صف واحد ضد الاستعمار .. أيها الزمـلاء .. ان الطريق امامنـا طويل وشاق .. المعركة بيننا وبين الانجليز والحكومة طويلة .. أين الفرباوى الخائن ؟ ! . لابد أن نحضره بأية وسيلة .

وصعد خطيب آخر اكثر تركيزا .. ايها الزمـلاء .. انني أرى ان تشكل لجنـة تنفيذية لتحـاكم الغرباوى .. أما هـذه الطريقة فلا يمكن أن تصل بنا الى نتيجة .

وهتف واحد من المجتهدين :

ـ ياخوانا نقول للناظر وهو يعرف شغله .. لسه مخدناش فى مقرر الأحياء غير صفحتين .

وفى الحـال تشكلت اللجنـة التنفيذيـة .. ثلاثة عن كل حزب .. بالاضافة الى اثنين من المستقلين .

وانجرفت اللجنة الى معمل المدرسة مدفوعة بأكتاف الطلبة وسواعدهم .. وقف الأحد عشر عضـوا كزعماء الثورة الفرنسية العظام ، وكأنهم فى احدى المحاكمات التاريخية الخطيرة .

وفجأة ساد الهرج والزعيق قاعة المحاكمة .. كان اللغط فى الخارج يتعالى .. والضجة القادمة تعلن عن نفسها :

ـ سيبه انت .

ـ لا .. انا متبت عليه من رقبته .

ـ لا ..لا .. انا ماسكه من دراعه ..

ـ اوعى كوعك يا على .. جه فى صدرى ..

كان الغرباوى بين ايدى الطلبة ، ممزق الثياب بادى الاضطراب ، محمر الوجه ، مذهولا من هول ما يرى حوله ، مدفوعا بالأكف والسواعد القوية المتحمسة ، يتعثر فى فناء المدرسة المترب المتحجر ، كان كالقطة يتشفون فيه وينتقمون .

عدت الى الجريدة أتطلع الى الصورة والى الكلام المنشور تحتها . جرفنى الحماس فقمت خطيبا مثلهم .. وطالبت بالقضاء عليه .. هذا لا يهم .. الزمن يمحو كل شىء .. لو عاش لحاولت أن القاه .. اعرف منه سره الغريب .. ربما اعتذرت له عما بدر منى .. أو ربما فهمت منه الحكاية الحقيقية .. لكنه مات .. وانا بمفردى ، لا أملك الا اجترار الذكريات الحزينة .. لا فائدة من ذلك كله .. اللحظـة التى تمضى لا تعود مازالت الأيدى تدفع به الى داخل قاعة المحكمة .. الهدير ينبعث من داخلها .. يسقط الخائن .. لا مكان للخونة بيننا .. يسقط الاستعمار .. واخيرا تستقر به الأكف امام الطلبة .. فكوا وثاقه ، فظل كما هو عاقد اليدين كما كان .. ذاهل العينين .. منكس الراس .

قال أحد الطلبة من آخر الجمع :

ـ القـدر ..

وقام احد أعضاء اللجنة التنفيذية ليبدأ المحاكمة ، فقال :

ـ مين شافوا منكو مع البوليس ؟ !

وهبت الأصوات المحتدمة :

ـ انـا ..

ـ انا .. انا .. انا ..

قال عضو اللجنة بصوت حاسم :

ـ انا عاوز واحد بالتحديد .

وقفز الى المنصة احد الطلبة :

ـ انا شفته مع واحد منهم .

قال عضو اللجنة :

ـ قبل المظاهرة أو بعدها ؟ !

ـ اثناء المظاهرة .. عندما حاصرونا فى شارع مولد النبى .

ـ كان بيقول ايه ؟ !

ـ مكنتش سامع من الزيطة .

سأل عضو اللجنة المتهم :

ـ كنت بتقول للظابط ايه ؟ !

انكسرت نظرات الغرباوى وتوقفت الكلمات فى فمه طويلا .

قال له عضو اللجنة :

ــ انطــق .

قال والدموع تكاد تطفر من عينيه :

ــ دا واحد كونستابل من بلدنا .

وساد الهدوء قاعة المحاكمة . مفاجأة لم يكن يتوقعها احد . ربما بادله التحيــة العابرة .. ولكن الحمــاس لم يتوقف كان قد وصـــل الى درجة لايمكن التوقف عندها ، وغليان النفوس لم يعد هنــاك من يستطيع اطفــاءه .. ربما كان الطلبــة يريدون الانتقام من الانجليز او الحكومة .. فعجزوا .. فلم يجدوا أمامهم الا الغرباوى .. وربما كانوا على حق أيضــا .. فقد زعق طالب من وسط الجمع :

ــ ياخوانا انا عاوز أتكلم .. عندى حاجات مهمــة عاوز أقولهــا ..

قال عضو آخر من اللجنة التنفيذية أخذ مكان القاضى :

ــ افسحوا له الطريق .

وبعد مشقة وصل الى المنصة ، وبدون أن يسأله احد قال :

ــ انا شفته ليلة المظاهرة ، كان سهران مع الظــابط على القهوة .

قال له القاضى الجديد :

ــ صحيح يا غرباوى ؟ !

قال الغرباوى :

ــ ايوه ..

ـ انت كنت عارف ان المظاهرة حتقوم امبارح ؟ !

ـ ايوه ..

ـ قلتوا ايه ... ؟ !

ـ هو اللى سالنى :

ـ قالك ايه ؟ !

ـ قال لى ايه الجو عندكم فى المدرسة ؟ . قلتله زى الزفت ..

ـ يعنى قلتله على المظاهرة اللى عملناها ؟ !

ـ كل الناس عارفه ان فيه كل يوم مظاهرة ..

قال القاضى :

ـ لا .. احنا بنسألك .. يعنى مقلتوش ان مدرستنا حتعمل مظاهرة ؟

صمت الغرباوى فهاجت النفوس وعلت الأصوات متلاحقة متوترة :

ـ انطق ياجبان ..

ـ قول ياخاين ..

وجرفت الحماسة الطلبة من جديد ، فحاولت اللجنة التنفيذية أن تهدأ ، وتنقذ الموقف ، ولكن بدون جدوى ، ودخل القاعة متولى أفندى مدرب الألعاب محاولا انتزاعه ، فتصدى له الكل يمنعه . قالوا له :

ـ اخرج بره .. اخرج بره !

وبلغ الاضطراب اوج حـدوده عندما اخترق الجمـع احد الطلبة ، غير معترف باللجنة ، ولا بأحد من الحـاضرين . قفز الى أعلى المنصـة . اختلجت صفحة وجهه بالغضب والثورة .. وارغى وازبد مطالبا بفصل الغرباوى .

وافلت الأمر من أعضاء اللجنة .

وفجأة دخل الناظر .. فساد السـكون الواجم للحظات . تطلع الى الحشد فأخذته الدهشـة . اراد أن يداهن ويبسـط الموضوع ، فقال :

ـ ياخوانا الغرباوى غلطان .. سيبونى أنا اعالج المسـألة على مهـلى .. ادونى فرصـة .. عيب كـده .. بـلاش الشوشرة دى ..

قـالوا :

ـ عاوزين فصله فورا ..

ـ ليس من حقى فصل طالب الا بعد التحقيق معه .

قال الطالب القافز الى المنصة بعصبية :

ـ حققنا معاه .

ـ ولكنكم لستم ادارة المدرسة ..

ولم يستطع ان يكمل جملته .. فقد هبوا فيه محتدمين :

ـ اخرج بره .. اخرج بره ..

وبدا الطالب القافز عنوة يطالب بصياغة وثيقة الفصل ، واخذ التصـويت على الموافقـة . وارتفعت الأصابع والأصـوات فى وقت واحد :

ـ نوافق .. نوافق ..

ووجدت اللجنة نفسها فى خضم الموافقة فوافقت .

وهدات النفوس بعدما انحسرت موجات الغضب الثائر .. واختفت الدماء الملتهبة من الوجوه . وبدات الراحة تغمر الأجساد الفائرة . وسكنت الحناجر المتعبة . وبدات التمتمات الصغيرة تنتقل على الشفاه .. كيف نمنعه من دخول المدرسة .. من يبلغ الناظر قرار الفصل . ونظرت العيون الى الغرباوى . كان خائفا مقرورا لا يستطيع ان ينطق بشىء .. راسه منكس الى حذائه ، العرق يسيل على جسده .. لم يتحرك من مكانه الا عندما سحبوه من يده الى خارج قاعة المحاكمة .

* * *

ولمرة اخرى افقت من الذكريات لأتطلع الى الصورة امامى .. يا للحيرة الغريبة . ما سر هذا الأسى الزاحف الى نفسى .. ليتنى لم اشهد محاكمة الغرباوى .. لا أعرف ان كان يستحق كل هذا العنف أو لا .. هل هو مذنب أو غير مذنب .. ؟ !

جرعة ماء

فجأة التقيا ، لم يتحملا وقع الصدفة . أرخيا العيون فى لحظة واحدة نحو الأرض . ارتعش الجسدان دون جدوى . أروع شىء أن يبكيا ، لكن الدمعة جامدة صلدة . من يحن عليهما بنزع القشرة الزائفة . الناس فى الشوارع يلغطون بالحديث فى كل الأمور .. اللحمة فى هذا العام متوافرة . ثلاثون ألف خروف طرحت فى الأسواق ألف ألف ذبيحة استوردت ؛ لم يشبع أحد ، كلما اكلوا جاعوا ، وكلما جاعوا أكلوا .. ربما سئم الاثنان اللحم فخرجا يبحثان عما ضاع منهما ، رفع الابن وجهه فى وجه أبيه . نفس الاكتئاب الحزين الصامت مازال يغلف نفسيهما . انقلب الأب طفلا أمام ابنه الكبير . ود أن يجرى فى الشارع هاربا من حمله الثقيل . أمسك به من طرف جلبابه الجوخ ، قال له :

ــ واخيرا وقعت فى يدى .

لم يرد عليه . حاول أن يطيعه فاقترب منه ليشعره بالمودة ، فأزاحه بعيدا عنه ، قال :

ـ وقعت في يدي .

ـ ....

ـ لمـاذا لا تتكلم ؟

ـ ليس عندي ما اقوله .

ـ انتهيت ؟

ـ لا ...

ـ اذن علام يدل صمتك ؟

ـ تعال نجلس في أحد المقاهي .

وفي أحد المنعطفات الجانبية سارا متجاورين ، كتفاهما على ارتفـاع واحد . وجهاهما متشابهان ، اللون الأسـمر الداكن ، العينان العسليتان الجميلتان ، الجبهة العالية . الشعر المفلفل القصير . كبر الابن ، فأصبح مثل أبيه ، لكن الغربة باعدت بينهما. في البداية لم يعترف بهما سـوى القاضي . حلل الخبير دم الابن، فاتضح أنه من فصيلة دم أبيـه . كان يوما بهيجا جدا .. احتفل به الناس جميعا . رقصت النسـوة على باب الأم . خرج الرجال في الليل حاملين عصيهم على شط الترعة . كانوا يهتفون : خلينا هنا للصباح ، خلينا هنا للصباح . الشيء الذي عذبهم طويلا عاد اليهم . لم يعد يهمهم ما يقـال عنهم . عاد الشرف الى بلدهم . عشر سنوات وهم يشعرون بالحزن والعار ، كفوا عن لقاء أهل القرى الأخرى . ظلوا يكتمون حسرتهم حتى سمعوا زغرودة الجدة العجوز أمام المحكمة ذات يوم .. كسبنا القضية . عادوا الى بيوتهم متحمسين فرحين . شعروا بالراحة والأمان . لم يناموا في تلك الليلة ، حملوا الصبي على أعناقهم ، لفوا به الحواري

والأزقـة والبـلاد المجـاورة . خاضـوا به الترع والأنهـار والصحارى وهم لا يحسون بالتعب . وفى آخر المطاف نزل الابن من على أعناقهم منتشيا لا يدرك سر الأفراح التى يعيش فيها . وضعوا أمامه اشهى اكلة عندهم .. الخبز والملح والمـاء . اكل وارتوى ، ثم حمد الله وطار الى أمه فى البيت ، فوجدها تبكى من الحرقة ، تعجب فى سره ، كل الناس فرحون الا هى . سقطت دموعهـا على خديها . راقبهـا عدة أيام فلاحظ انهـا تنوح فى صمت فقدت شيئا غاليا لم تسترده بعد قال لها فى حنان :

ـ مالك يامه ؟

ـ حزينة يا ولدى ..

ـ لـم ؟ !

ـ الا تعرف ؟ !

ـ اعرف ولكن ..

ـ لا يهمنى حكم القاضى .

ـ اذن ما الذى يرضيك ؟

ـ التشـفى .

ـ كيف ؟ !

ـ اشوف فيه يوم ، ربنا يذله .

وصـلا الى المقهى . جلسـا متقابلين . صفق الأب يطلب مشروبـا .

قال الابن :

ـ لا أريد أن اشرب شيئا .

ـ لـم ؟ !

ـ لن انسى جرعة المـاء التى شربتها يوم احتفلوا بى .. من يومها لم اذق احلى منها . عشر اكف مدت الى دفعة واحدة تصب المـاء فى فمى العطشان .

ـ لا افهم .

ـ لا يهم .. اشرب ما تريد حتى تستطيع ان تتكلم .

ـ انت ترهبنى !

ـ ضرورى .

ـ واحس بالتهديد معك .

ـ هذا شىء طبيعى جدا .

ـ انا ابوك مهما كان الأمر .

ـ انت تضحكنى .

ـ ابوك يا حسن .

ـ بعد عشرين عاما .

وســاد الصمت بينهما من جديد . عاد الابن الى أمــه . ومازالت تختفى عن الأعين فى المساء . ســنوات ولا أحد يعرف سرها ، الى ان تعقبها ذات ليلة .. كانت تتلفت وراءها فى حذر وهى خائفــة .. خلعت حذاءها وهى تخوض فى ميــاه الترعــة الصغيرة ، امام القرية .. وصلت الى الضفة الأخرى . ســارت نحو الصحراء فى اعلى البلد .. شعر بالرهبة وهو يسير فى الظلام .. تسللت الأشــواك الى قدميه . اخترقت طريقــا جديدا لم يعرفه من قبل . عرجت على المقابر . وقفت على احداها وقرات

الفاتحة . كادت تتوه منه وسط كثافة الظلام المرتجف . انحرفت من طريق آخر بعيد من القبور قرب كفر النجدى . وتحت شجرة توت عجوز جلست تبكى.ذراعاها تحتضنان جذع شجرة ، ووجهها ينكفىء بين ساقيها . نسمات الليل البارد تلفح جسدها الهزيل . كانت تشعر بالندم ، تواسى روحها الملتاعة .. تردد موالها فى صوت ضعيف مشروخ :

الصبر طيب ولو كان مر نصبر له ..

واللى اكل حلو أو كل مر يصبر له ..

يا عينى عليكى يا مقهورة يا خديجة ، أولاد الأصول يضيعوا، والخسيس الموالس الكذاب له قيمة ، ياما باس ايدى هنا تحت الشجرة ، باحبك يا خديجة .. حنعيش سوا يا خديجة ، لكن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين .

وعاد الابن الى أبيه الجالس أمامه . كان يرتشف القرفة بلذة متمهلة ، يضع الشيشة بين شفتيه ، تتسلل الثقة الى نفسه قليلا ، يود أن يتفتح الحديث بينهما . مد قدمه الى الأمام بقلق ، فوضع الابن ساقا على الأخرى ، ورمقه بغيظ ، قال الأب :

ـ هذا جحيم لا استطيع أن أتحمله .

ـ صبرك .. الحساب بينا طويل .

ـ أتعود للتهديد من جديد ؟

ـ ألم تؤرقك لياليك ؟ !

ـ طويلا !

ـ هل تعرف شجرة التوت العجوز ؟ !

ـ ....

ـ تـكلم ..

ـ ....

ـ لقد ادركت كل شيء ..

ـ ولكن الأيام تمر .. يجب أن تنسى ..

ـ ....

ـ ....

ـ ....

ـ سوف اقبل راسها ..

ـ وما الفـائدة ؟ !

ـ وقدميها ..

ـ هى لا تريد ان تراك ..

ـ من اجلك افعل اى شيء ..

ـ خنت عهد الشجرة ..

ـ ظروفى كانت صعبة ..

ومد الابن يده الى كوب المـاء على المنضدة ، فخاف الأب . ارتعش جسـده كله . كان الطفل المذنب الذى يقف أمام والده خجلا .. رفت رموش عينيه فى عصبية .. تبدت على صفحـة وجهه اطياف مستعطفة . تلوى فى روحه ألم ممض لم يفصح

عنه .. تشبث بيد ابنه .. نظر فى عينيه فلم يستجب له ..
قال الابن فى جفاف :

ـ دائما تلقى الحمل على الظروف ..

ـ لا والله ..

ـ كـذاب ..

ـ بم اقسم لك ؟ !

ـ قسمك لا قيمة له ..

ـ كن عطوفا بى ..

ـ ولمـاذا ابتعدت عنى وانا مازلت فى المهد ؟ !

ـ اخوتى لم يوافقوا على الزواج ..

ـ ومن منعك عن الاستقلال عنهم ؟ !

ـ كانت لى أرض مشتركة معهم ..

ـ تفضل الأرض على ابنك ..

ـ لم أكن قد وعيت بعد ..

ـ ....

ـ ....

ـ سامحنى ..

مازال الأب يتحسس اصابع ابنه .. طويلة مثل اصابعه ، رسم اسماء الله الحسنى فى كفيه تماما كالتى فى كفيه .. دماؤه التى تجرى فى شراينه من دمائه ، ناضـل من أجل أن يتخلص

متها ، لكن الخبير كشفه .. فلت فى الظـاهر ، ففضحته المحكمة أمام البلد كلها التى اقامت الأفراح ، ودقت الطبول لتعلن الانتصار عليه .. يستحيل أن تنجب ولدا بلا أب . ظل يحـاور ويقاوم طويلا دون أمل . باع الأرض فلم يبق له قيراط يحرص عليـه ، وعاد يبحث عن دمه المفقود ، كبر المولود الذى لم يره مرة واحدة فى حياته . اصبح فى طوله وعرضـه . صوته ينساب فى اذنه قويا غريبا يقلقه ، لا فائدة من التخلص الآن ، حلاوة الانتصـار فى ذلك اليوم الذى حملوه فيه على الأكتاف دفعته الى الأمام . كان الأول دائما .. راسـه الكبير شامخ ابدا .. التف حوله الناس لحلاوة لسانه ورجاحة عقله ونبل خصـاله ؛ خـدوم فى وقت الحاجة ، صبور فى الشدائد ، فى كل مساء يعود الى امه وفى يده هدية . ربما كانت فاكهة من الطريق ، أو دواء جديدا يشـفى علتها ، ليس فى فمه سـوى كلمة .. نعم .. حاضر .. طيب ، رضيت عنه الأم فرضى عنه الرب . وعاد الأب يلح على ابنه :

ـ ارجوك ان تخفف من عذابى ؟ !

ـ تسمع ما اقوله لك ؟ !

شهق الأب بحرية وحب وقال :

ـ تحت امرك .. اطلب ما تشاء .

ـ ترجع الى التوتة .

ـ إنى أحج اليها دون أن تدرى .

ـ لكنى لم ارك هناك ، الم تزرها ليلا ؟ !

ـ لا ....

وانحنى الأب على يد ابنه يلتهمهما فى حنـــان وفرح . دموعه المنسابة تشعره براحة غريبــة فقدها من زمان ، قال :

ـ اذا اردتنى أن أبيت تحتها لن اتردد ..

ـ لا داعى لذلك ..

ـ اذن لمـاذا توصينى بزيارتها ليلا ؟ !

ـ ....

ـ ارجوك .. انا تحت أمرك ..

وزاغ الابن ببصره بعيدا عن ابيه ، ثم احتضن راســه بين كفيــه فى صمت حزين . لم يستطع ان يتحمــل الضــوضاء من حوله . فطلب ان يقوم ، قال له الأب :

ـ كما تريد .. لكنى لن أتركك بمفردك أبدا ..

ومد ذراعه يتأبطه ، فلم يقاوم . تقدم الأب خطوة ، فسار الابن بعده . قــدم له سيجارة ، فتطلع اليه بوجهــه المحتقن ، المشرف على البكاء :

ـ شكرا .. لا ادخن ..

ـ لا .. لابد أن تأخذ سيجارة من ابيك .

ـ شبعت من ثدى امى ، فلم اعد فى حاجــة الى شرب شيء آخر ...

وسارا متساندين نحو احد الحقول خارج البلدة . الشمس على وشك المغيب . نصفها يرقد تحت خط الأفق البعيد ، ونصفها الآخر كقطعــة الذهب الآفلة الى منجمها السحيق . رائحة حقول الحنطة الصفراء تنبعث قريبا منهما . جموع الفلاحين يعودون

متعبين ، اقدام البهائم تثير الغبار والتراب . اختنقت انفاسهما من صهد الأرض اللافح .. عطش الابن ، فمال الأب الى حافة الترعة يقدم له جرعة ماء بين كفيه ، أراد أن يقبله ، فأشاح عن وجهه بحياء ، غابت الشمس تماما عن العين . همس له فى رجاء :

ـ لم توصينى بزيارة التوتة ليلا ؟ !

ـ لم اقل ذلك .

ـ هل تنسى سريعا ؟ !

ـ لا اذكر .

ـ اذن من عرفك بها ؟ !

ـ عرفتها بالمصادفة ..

ـ يستحيل لابد انها حكت لك ..

ـ لا احب اخوض فى هذا الموضوع ..

ـ طيب خذ سيجارة ..

ـ ارتويت من ثدى أمى ..

ـ كم رضعت منها ؟ !

ـ مازلت ارضع منها الى الآن .

ـ غريبة ...

ـ تعطينى العطف والحب والحنان .

ـ الم تشعر بالشوق الى حياتك .. ؟ !

ـ بدافع الفضول فقط .

ـ لكنك لم تبرح خيالى ..

وازدادت ظلمة المساء ، فارتدا راجعين الى البلدة . امه الآن تستعد لرحلة الليل الجريئة ، سوف يعود الى البيت وحيداً ، من يعزيه فى عذابه ؟ ! نسى الناس منذ أمد طويل حكاية اثبات النسب ، لكن طعم جرعات الماء التى قدموها له مازال ريان عذبا فى فمه ، من يداوم على تقديم الماء اليه ؟ ! انه عطشان دائما .. لا يستطيع أن يرضع من ثدى أمه ، قال له الأب ، ودفقة من الحماس تجتاحه :

ـ هل تأتى معى ؟ !

ـ انى ذاهب الى أمى .

ـ اذن لا فائدة .

ـ ليس الأمر بهذه البساطة .

ـ أريد منك وعدا بزيارتى !

ـ عندما تزور التوتة فى الليل ..

ـ سوف اطير اليها الآن ..

وتصافحا فى هدوء . ابتعد كل منهما عن الآخر خطوات ، لكن الأب عاد اليه يسأله فى رجاء :

ـ هل تذكرنى ؟ !

ابتسم فى مودة :

ـ كلما قدمت الماء بين كفيك الى كل عطشان .

رز بــــلبن

كانت شوارع بلبيس تكاد تخلو من المـارة .. وحوانيتها تصفصف من زبائنها وتجارها ، وأسواقها تستعد للهدوء والراحة بعد طول العناء الذى لاقته فى ساعات نهارها الأولى . وهجر الناس المقاهى ، فأصبحت تشــكو الوحدة والوحشـــة . كانت بلبيس بشوارعها الهابطــة الصــاعدة الفسيحة الضيقة . تستعد لصلاة الجمعة ، فأصوات المؤذنين تعلو رنانة مرددة النداء الحبيب الذى ينتظره المسلمون فى كل أسبوع :

ـ صلوا صلاة الجمعة الغرة التى ..

والناس تستولى عليهم حالة من التقى والورع ، فلا تفارق المسابح أياديهم ، والتمتمــات أفواههم ، وذكر الله وتوحيــده قلوبهم . كانت حــارة الشيخ متولى هى الأخرى قــد خلت من الناس .. ولم يبق غير الشيخ عبد الستار صاحب دكانة ترزى العائلات ، وهو يرتب شغله قبل أن يذهب الى الجــامع . وضع

قطع الملابس على الرف ، وجمع الابر والدبابيس بالمغناطيس .. وركن المقص الكبير جانبا .. واخذته الحيرة فجأة .. فأين يضع سلطانية الرز ابو لبن التى أحضرتها له زوجته للغداء .. مسح ذقنه الطويل ، ومصمص بشفتيه ، وبسمل فى سره قبل أن يلقى نظرة عامة على المحل ، وعلى صبيه العفريت عبده .. اعتراه شىء من عدم الاطمئنان ، فهو يعرف عبده جيداً ، ريقه يتحلب لرائحة الطعام أبدا .. حقيقة انه يخاف منه ، فلا يمكن أن يقدم على أكل الأرز ، ولكن من يدريه .. فربما فقد عقله وعملها . وتطلع الى عبده وهو قابع أمامه فى ذلة وانكسار بجلبابه الدمور وطاقيته المنحولة . ووجهه الضامر الحزين .

نظر الى اصبعه المجروحة ، فاعترته الشفقة عليه ، فناداه وطبطب عليه ، واخرج كيسه القماش الطويل ، ثم راح يفرز قروشا عديدة ، ومده يده الى باطن الكيس ، وفرش على يده محتوياته. عثر على مناه ، النكلة التى كان يبحث عنها ..

وفى تودد مصطنع اعطاها له ، وهو يقول :

ــ خد يا عبده عشان تجيب دندرمة ..

واخذ عبده النكلة وهو غير مسرور ، فهو يعرف معلمه حين يعطيه هذه النكلة كل اسبوعين أو ثلاثة . فلابد انه يريد منه شيئا جديدا . وسكت الشيخ عبد الستار وهو يركن بكوعه على واجهة المحل ، وفى يده المسبحة اليسر ، ويده الأخرى على كتف عبده ، عينه فى عينه ، وعينه الأخرى فى سلطانية اللبن .. وعبده فى هذه اللحظات صامت ، لا يتحرك كأن الهداية قد نزلت عليه فجأة ، يستغرق فى تفكير عميق كالرجال الكبار .. لم تكن تساوره اية رغبة فى سلطانية اللبن ولا نكلة الشيخ . كان قلبه

هناك مع أمه المسكينة التى تركها فى الصباح وابوه قد تعـارك معها .. واشبعها بالشتائم والسب ، وهى تهذى وتقول كلاما لا تعيه .. وكان سبب الخناقة هو .. فابوه يريد أن ينتزعه من عند الشيخ عبد الستار الشح الذى لا يعطيه شيئا ، لكن امه لا توافق على ذلك .. فالولد ضعيف لا يقوى على شغل الفأس.. ولو طلع الى الحقل مرة لمـات .. ومع هـذا فقد كان عبده يريد أن يترك المعلم عبد الستار بوجهه الكالح وروحه السقيمة .

ففى كل صباح يستقبله بالشتائم المقذعة ، ثم يودعه بها حتى لا يتأخر فى الصباح .

لقد كرهه من قلبه .. وما عاد يحب ان يراه .. كم من مرة ضربه المعلم ، وكم من مرة اشـتاق للهرب من وجهه .. ولكن ما الفائدة ؟ ! . وابوه ينتظره هو الآخر ليستقبله بالتأنيب .. لكن ماذا يفعل الآن والشيخ يقف أمامه ؟ هو يعرف ما يجول بخلده .. ما أعطـاه النكلة ، ولا غمره بعطفه المفاجىء صـدفة ولا محبة ولا انسانيـة .. هـذه الحركات من أجـل سلطانيـة « الرز بلبن » ، لأنه يخـاف عليها ، يخشى أن التهمها .. فأحرمه من الغداء .. يدعه يذهب ويرتاح من خلقتـه النكد ، ويتعهد بحفظ الصينية وحمايتها . ورفع بصره اليه ، لكنه وجد المعلم يمسحه بنظراتـه المستوعبة المتأملة ليرى اثر النكلة عليـه .. وارخى بصره ثانية وهو خجل يبلله الأسى ، وتطغى عليه الخيبة وسوء الطالع . قال له المعلم :

ـ هيه .. مبسوط يا عبده ؟ ! هات دندرمة بقى وهيص .

وسكت الصبى ، ولكن الشيخ لاحقـه فى خبث ودهاء :

ـ خلى بالك من سلطانيــة الرز ابو لبن يا عبده . اوعى تقرب لها أحسن فيها سم .. سم قاتل بيموت .

وضحك عبده فى سره . فهو يعرف الاعيب الشيخ .. فاذا كان بها سم حقيقة ، فلماذا جاءت بها زوجتــه ؟ ! كم قال له المعلم قبل ذلك عن الطعام انه حامض فلا تأكله حتى لا تموت .. وفى النهاية يجلس هو يلتهم الطعام الحامض كالحيوان ، وذقنــه غرقانة به .. لم يكن عبده جوعان ، بل كانت نفسه مسدودة ، يحس بالقىء . تسرح افكاره بعيدا عند امــه وابيــه واصبعــه المجروحة . قال للشيخ بعد طول سكوت :

ـ حاضر يا معلمى ..

وسرح الشيخ فى داخله . خيل اليه ان عبده قد اقتنع ، وان النكلة اتت مفعولها ، وان اكذوبة السم قد اثرت عليــه ، فرفع قامته ، ومد اصابعه تتخلل ذقنه السعيد . وعلت وجهــه ابتسامة صفراء باهتة ، تاهت ملامحها بين شعر ذقنه الكثيف وشاربه الحليق وانفه الأفطس وعينيه الضيقتين المحشــورتين فى اعلى وجهه ، وقال :

ـ طيب يا عبده .. انا متوكل على الله رايح اصلى .. وانت خلى بالك بقى ..

وبمجرد ان فك اقدامه الثقيلة فى الطريق كان هناك سيال من البهجة والفرحة والأمل يترع قلب عبده . فلقد انزاح الكابوس الثقيل الذى كان يرسخ فوق صــدره ، واعترته الدهشــة ، فماذا يفعل وهو فى الدكانة بمفرده الآن ؟ ! . فى البداية لم يصدق انه وحده ، فصــورة المعلم لا تفارقه كأنها شبح عقيم يطارده ..

جن يطارد حياته ليل نهار ، يسيطر عليه وهو نائم عند أمه ، ثم يكبس عليه فى النهار ، وها هو يفارقه بعد طول ركود ، لأنه يصلى الجمعة .

انحرف الى رف القماش وانزل ثوبا منه فرده أمامه ، وكأنه معلم كبير وامسك المقص وطرقع به فى الهواء ، ثم جمع الثوب ثانية ، وهو يرميه باستهتار وكأنه الشيخ عبد الستار فى ساعة تجليه حين يفعلها أمام الزبائن ليستعرض عضلاته .. واقترب من ماكينة الخياطة الكبيرة .. ذلك السر الغامض المهول الذى لا يعرف كنهه ولا مكنوناته الباطنة .. جلس على الكرسى أمامها وادارها .. وفجأة اعترته الدهشة والذهول ، فقد شاهد الابرة تعلو وتنخفض فى سرعة واعجاب ، فأمسك قدمه .. وصمت . لقد ارتكب حادثا مهما هز اعماقه اليائسة المنهارة .. وخبط الماكينة بيده كأنه يسترضيها بعدما أزعجها . وعلى شماعة الملابس جرى تحتها .. وراح يتحسسها فى اشتياق زائد .. ووقعت عيناه على جلباب صغير ، وتطلع الى جلبابه الدمور ، وحالا تكونت الأمنية الجميلة فى رأسه .. لو كان له هذا الجلباب ؟ ! . الأبيض فى أبيض ، لكن كيف ؟ . طيب يلبسه ولو دقائق من نفسه . وخلع جلبابه ورماه جانبا ، وهو ينظر اليه بشماتة . وادخل جسده فى الجلباب الحلو الجديد ، ذى اللون الزاهى . وتحسس قماشه ووضع يده فى جيبه ، ومشى داخل الدكان وهو مختال فخور ، ثم انحرف فى ركن مظلم حتى لا يراه أحد . وبقى دقائق وقلبه يفيض بالفرح ، ونفسه تعتريها البهجة والسرور ، وما عادت اصبع قدمه تؤلمه ، ولا يفكر فى ابيه وامه .. كان يعيش فى عالمه الخاص الجميل الفريد . وكانت عين الخيال تغريه . ماذا لو خرج بهذا الجلباب فى الشارع ؟ ! انه خاو الآن وهادىء ، فقد ذهب الناس لصلاة

الجمعة . وفى سرعة قفز الى الخــارج ، ودار حول الدكان ، ثم عاد سريعا ، وهو يخلعه فى اضطراب وخوف ، فقد احس بخيال يلمحه فى الشــارع . ولبس جلبابه القديم ، ووضــع طاقيته على رأسه . وكانت قد سقطت منه فى الزحمــة . وشعر بالجوع ، واقترب من سلطانية اللبن ، كشف غطاءها ، تحلب ريقــه ، تحسس طبقة القشدة التى تغطيها ، ولحس أصابعه ، ثم بلع ريقه بشهية مفتوحة ، ثم سوى سطح السلطانيــة ، لكن أصابعه تركت خدشا ظاهرا بها ، لم يستطع أن يســويه ، وعاوده الخوف من جديد ، لكن فكرة جديدة قفزت الى راســه .. لقد قــال له المعلم أن السلطانية بها سم ، وأياك أن تقترب منها والا تموت . ليكن بها ســم ، المهم كيف أتخلص من لكماته وشتائمــه ؟ ! . آه سأخفى المقص ثم أقول انه ضــاع ، وقد أكلت السلطانية لكى أموت .. حتى لا تضربنى . وسأحاول أن ابحث عن المقص أمامه قبل أن يضربنى .. ولحظتها سيرق لى قلبــه ، وشرع فى تنفيذ خطته .. حمل المقص بين يديه وأخفاه فى طيات ثوب القماش . وأدخــل الثوب الى آخر الرف ، ثم جلــس على الأرض أمــام السلطانية يتأملها . وفرد لسانه يلحس وجهها بخفة وحنــان ، يستطعم حلاوتهــا ، وقبل أن يلتهم الأرز كانت هنــاك فى آخر الحارة حشرجة يعرفها جيدا ، ونحنحة متقطعة تعود عليها . كان الشيخ عبد الستار يستند على عكازه من آخر الحــارة ، يرتفع الى دكانته العتيدة . وانهار عبده ، وأحس أن سيالا باردا كالثلج قد اعترى جسده . وانتفض الى السلطانية وغطاها باحكام ، ثم جرى الى واجهة الدكانة ينتظر معلمه ، وكأنه لم يتحرك من مكانه من لحظة أن تركه .

اول طلقـــة

كنت قد اكملت تدريبى .. وحملت البندقيـة .. وحين أستعيد قصة تعليمى انا وجماعتنا استروح فيها اشواقا كبيرة لحب الوطن . فقد كان الشاويش عبد الحليم ، سبع سنين تعليم فى خدمة الجيش ، كما كان يحب أن يطلق على نفســه دائما ، يدربنا . وكان التعليم صعبا ، بل لغزا بالنسبة لنا ، لم نتعوده من قبل ، ولولا الحرب التى كانت تهددنا ما كنا تعلمنـا . كان الشاويش عبد الحليم يقف امامنا كالصقر الهادىء الواثق من نفسه ، ثم يقول بعد أن يرمق صفنا من دون الصفوف العديدة التى تمتد امامه :

ـ خدى بالك يا صحافة .. البندقية اللى فى ايدى دى (لى أنفيلد ٣٠٣) ماركة قديمة ، لكن مفيش مانع تاخدوا عنهـا فكرة ، ويمســك الشاويش عبد الحليم أجزاء البندقية ، مفصلا كلماته ، ومشيرا الى أحد السارحين منا :

ـ الحتة دى اسمها ايه يا اخينا .. ؟ مفيش فايدة .. ؟

اسمها التتك يا استاذ فاهمين ؟ ! ويزغر بعينيه فى آخر الصف ويقول :

الأفنــدى اللى مولع سيجــارة هنــاك .. افرض انك فى الميدان .. الحرب عاوزة رجاله .. رجاله يزحفوا على بطونهم .. ويقعدوا أيام من غير شرب سجاير ، ويمكن اكل كمان .. الأوامر هى الأوامر .. طفى السيجارة عيب يافندى وانت متعلم ، ويعود الى البندقية :

ــ آه .. خد بالك من الشرح كويس .. النهارده احنـــا بنشتغل من الساعة أربعة الصبح لغاية تمانيــة بالليل .. الحالة عاوزة كده ، آدى المؤخرة .. اسمها الدبشك ..

وبحركة بطيئة كأنما يريدنا أن نتابع يده :

ــ وهنا سن الدبانة ، النيشان يعنى ، البندقيــة صنعت من زمان .. صنعها واحد اسمه .. تقيلة ، وزنها ستة سبعة كيلو .. حوالى كده بالتقريب .

ومن خلال الظلال السمراء التى تنعكس على وجه الشاويش الوقور وعضـــلاته المتعبة من طول التمرين وعينيه الغائمتين فى عالم كان يحدثنا عنه دائما ، كنا نسمع صوته يقول :

ــ انا حاربت فى فلسطين .. ونفدت من اربع رصاصات .. لسه واحدة معلمة فى دراعى اليمين ، ونمت أربع أيام بلياليهم من غير ميه ولا اكل .

وما كنا فى تلك اللحظات نود أن يحدثنا عن فلسطين . كان املنا الوحيد أن نعرف ضرب النار ، ثم نفلت من تحت يده ، فالأيــام تمر كالبرق ، وأعصابنـــا محملة بالضيق والكد . ولم

يكن فى حياتنا الا الشاويش عبد الحليم ، والمعسكر والتفكير فى الحرب التى نود أن نخوضها مع كل الصعوبات التى تعترضنا .

وكان أمامى انا بالذات شىء واحد اعيش فيه ، وأتمنى أن احققه ، ان احارب ، وان أعيش وسط المعركة . وكان التراجع يهزمنى دائما ، فأقنع نفسى بأنه لايمكن ان اذهب الى الميـدان وانا ناقص التدريب .

فى تلك الأيام لم يكن لنا قائد سوى الشاويش عبد الحليم ، احلم به بالليل ، بانبطاحه على الأرض وهو يرفع البندقيـة ، وقدماه من الخلف ترقدان على الحشيش الأخضر منبسطتين ، كالسبعة حسب التعليمات ، أقبض على يده فى كل صباح وهو يوصينى بالانتباه ، ويأخذنى فى بعض الأحيـان الى جانب وكأنه يطلعنى على سر كبير :

ـ اسمع .. البندقية اللى فى ايدى دى روسى .. مش زى النيلة (لى انفيلد) .دى خفيفة تودى بعيد .. تعمر مرة واحدة وتضرب زى ما انت عاوز .. ولمـا تخلص الذخيرة تفتح الخزانة من نفسها .. وزى ما تكون بتقولك هات .. فاهم ؟ ! ، لسـه يمكن أعلمكو عليها بكره بعده ..

وفى ضحى يوم من الأيام تسلمنا الشهادات ، ولم يكن عليها توقيع الشاويش عبد الحليم ، ولكنى ذهبت اليه وانا أريد ان ابقى معه ، أو ادعوه لزيارتى ، ولكن الوقت لم يكن يسمح ، وودعنا هو بنظرة عادية ، وهو منهمك فى تعليم آخرين :

ـ مع السلامة ياخوانا ، ان شاء الله نسمع عنكم خير .

فى ذلك الصباح كنت قد اكملت تدريبى ، وحملت البندقية بجانبى وكأنى احمل قوة جديدة . امدتنى بالثقة والأمل فلا أقل من أن ندافع عن القـاهرة بعدما منعتنا احوالنا من السفر .

كنت اسير على كوبرى قصر النيل والنسمات تدغدغ وجهى طربة ، حية ، منعشـة ، احس معها بالراحة تصعد الى اعضائى بعد الانهاك الشـديد الذى تحملنـاه ، ورغم اننى مررت على الكوبرى قبل اليوم الا اننى للمرة الأولى شعرت بهذه النسمات الغالية ، شعرت بأن لها ثمنا كبيرا قد يصـل الى بذل الدماء .. فقديما ضربنـا الانجليز ، ونحن نتظـاهر على هـذا الكوبرى مطالبين بالاستقلال .

كنت فى تلك اللحظات أريد أن أرتاح ، أجلس فى أى مكان . لم افكر فى شىء آخر . وكانت تلك النسمات ترطب صـدرى وتنعشه ، وتبثه الاطمئنان . لقد أحببت أن أسترخى بنصفى الأعلى واسرح كما اشاء ، وعملتها . ورحت اتأمل المياه ، وعجبت من نفسى ! . فلم يكن الوقت وقت تأمل ، ولكن يدى امسكت بالحديد ، واطلت بجانبى فوهة البندقية ، تزاحم هى الأخرى لتتفرج . واغمضت عينى فى شبه تعسيلة ، وكاد النوم يخطفنى .

وانتزعتنى صفارة الأمان ، بل ربما كانت صفارة الانذار . على كل حال كان هـذا أمرا لا يهم . فقد كنا تعودنا على الغارات. وفى زحمة المـارة والكوبرى يحتضن الجميع ، مادا عليهم ذراعين قويتين ، هما المدفعان المضادان للطائرات .

فى تلك الزحمة كانت هناك فتاة يبدو انها تزوجت صغيرة تهدهد ابنها المذعور . وثمة حبيبان منغمران فى المناجاة والهمس

تفرش بسمتهما الطريق فى تألق مشرق ، وتتعانق ذراعاهما كأن شيئا من حولهما لا يحدث .

وتمثلت أمامى صورة أخيرة للشاويش عبد الحليم ، وقبضت على البندقية . لقد علمنى اناس كثيرون . علمونى فى المدرسة وفى البيت وفى الشارع . ولكن وظائفهم هى التى كانت تفرض عليهم هذا . علمنى بعضهم وكان يشعرنى بأنه أستاذ وعملاق وما من سواه . وتظاهر آخرون بتعليمى ليشبعوا غرورهم وعظمتهم . تعلمت فى المدرسة كيف أعامل الناس بأدب. ولكن الشاويش عبد الحليم أشعرنى بحياته وروحه الودود كيف ادافع عن وطنى واضحى فى سبيله ، واتحمل الضنى والزحف لأنتصر فى الميدان . علمنى بصبره الطويل أجزاء البندقية ، واحدة واحدة ، حتى خزانة التنظيف الخلفية فتحها اى مع عدم اتساع وقته الضيق لفتحها . وزهت هذه الصورة فى مخيلتى وانا التفت الى نادى المعلمين ، المكان الذى احتوانى فى أول أيامى ، وكل الأسلحة امامى طلاسم ، وودعنى وقد أطلقت أول طلقة فى حياتى .

تعـريف بالمـؤلف

* التصق بالفلاحين عن قرب سنوات طويلة فى أبو كبير وانشاص بمديرية الشرقية ، فانطبعت فى قلبـه ووجدانه شخصياتهم الانسانية الصادقة ، البسيطة .

* يحاول أن يرعى وينمى ما تعلمه منهم فى نفسه واخلاقه . وان يعكس ما يعانون منه ، وما يشتاقون اليه .

* يعتقد أن أرض الريف رغم ما كتب عنها ما زالت بكرا ، يجب على الكتاب أن يغزوها بأقلامهم ، وينقلوا الينا واقع الفلاحين واحلامهم وأمانيهم .

* يؤمن بأن الموهبة وحدها لا تخلق كاتبا ناضجا . فلابد من أن يمتلك الفنان أدواته الفنية بتحكم . وعليـه وعلى الكتـاب الشبان أن يطوروا ادواتهم الفنيـة من ناحية الأسلوب واللغة والحوار والتكتيك بالثقافة الشاملة ، والممارسة المضنية .

* نشر معظم قصصه فى روزاليوسف ، والثقافـة الوطنيـة ، والمسـاء .

* متزوج وله ابنـة .

* درس فى المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم فى الحقوق .

الفهـــرس

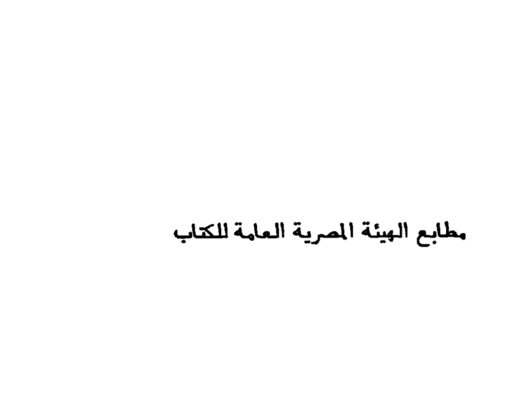
الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٤/٣٨١٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3756 — 1



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إلتصق بالفلاحين عن قرب سنوات طويلة فى أبو كبير وأنشاص بمديرية الشرقية، فانطبعت فى قلبه ووجدانه شخصياتهم الإنسانية الصادقة، البسيطة.

حاول أن يرعى وينمى ما تعلمه منهم فى نفسه وأخلاقه. وأن يعكس ما يعانون منه، وما يشتاقون إليه.

أعتقد أن أرض الريف رغم ما كتب عنها مازالت بكراً، يجب على الكتاب أن يغزوها بأقلامهم، وينقلوا إلينا واقع الفلاحين وأحلامهم وأمانيهم.

آمن بأن الموهبة وحدها لا تخلق كاتبا ناضجا. فلابد من أن يمتلك الفنان أدواته الفنية بتحكم. وعليه وعلى الكتاب الشبان أن يطوروا أدواتهم الفنية من ناحية الأسلوب واللغة والحوار والتقنية بالثقافة الشاملة، والممارسة المضنية.

نشر معظم قصصه فى روزاليوسف، والثقافة الوطنية، والمساء.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٥٠ قرشاً